

طه حسين

حديث الأربعاء

٢

الطبعة الثالثة عشرة



دارالمعارف

الناشر: دار المعارف ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج.م.ع.
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

كان نشر هذا الكتاب للأستاذ مصطفى صادق الرافعي
— رحمه الله — في جريدة السياسة مثاراً لجدل عنيف وخصومة
خصبة لها في تاريخ الأدب العربي الحديث أثر أى أثر .

لذلك رأيت أن أثبت نص هذا الكتاب ، ليستطيع
القارئون من الشباب الذين لم يشهدوا هذه الخصومة أن يتبعوها
واضحة جلية .

وهذه الفكرة نفسها قد اقتضت أن أنشر في هذا الجزء
فصلاً يتصل بهذه الخصومة قد نشر في الجزء الثاني من
حديث الأرباء ، لتكون قضية الخصومة بين القديم والحديث
كاملة . ولن يعاد نشر هذا الفصل في الجزء الثاني ؛ لأن
مكانه في هذا الجزء .

obeikandi.com

أسلوب في العتب

سيدي الفاضل الدكتور حسين هيكل بك
أرسل إلى السياسة هذه الرسالة عاتبت بها ظريفاً من أدباء الشام كنت
كُتبت إليه فتفتت في رد كتابي ، لأن جماله ظرف وظرفه جمال ، وهما إذا اجتمعا
كان لهما حكم خاص في قانون الرسائل .

وقد كتبها من النمط الأول الذي هو فن من زينة البلاغة العربية يشبه
بعض فنون الزخرف والتنسيق ، وهو حين يكون في مثل هذه الرسالة لا يكون
أبداع منه شيء من الأساليب الأخرى .

فأرجوكم الحفاوة برسالتى هذه في السياسة الغراء . ، والتمهيد لها بما يبين
عن سبب كتابتها . حفظكم الله للمخلص :

مصطفى صادق الرافعي

سيدي :

كُتبت إليك من أيام يشفع لها قربك من نفسي فلا أقول إنها بعيدة ،
وتمر قديمة ولكن ما في هذه النفس منها يجعلها دائماً جديدة ، وكأنها تجري
في إلى الفناء فهي تطول إلى غير حد ، وتأخذ معنى اليأس من كل أمس فتتسخ
به معنى الأمل في كل غد ، وأرى الأيام تعد بالأرقام أما هي فقد جعلتها أنت
تعد بأنها لا تعد .

وانتظرت ردّ خطابي وأن تلقى إلى ورقة من شجرة عتابي ، فما زالت تنقطع
الساعة من الساعة ويلتقي اليوم باليوم ، ويذهب اللوم إلى العتاب ويحيىء
العتاب إلى اللوم ، وكتابك على ذلك كأنه الدهول نوم اليقظة أو السهد
يقظة النوم .

فسبحان من علّم آدم الأسماء كلها لينطق بها ، وعلمك وحدك السكوت....
والسلام عليك في أزلية جفائك . أما أنا فأقول « والسلام علىّ يوم ولدت ويوم

أموت . ما هذا ياسيدى وليس خيط العمر فى يدك ، ولا أمس الضائع بمعوض على من غدك ، ولا أنا أقل من «أنا» ولا أنت أكثر من «أنت» ، ولا أعلمتنا من قبل أنك مع القدر تحركت ومع القدر سكنت . أتراك لما خفت المحاكم فى قتلى جعلت تقتل بهجرك أبامى ؟ ولما عرفت أنك من سرورى أردت أن أعرف أنك من آلامى ؟ أم أنت فى نورك وظلامك تفعل ما يفعل الليل والنهار ؟ أم أغراك بنا ذلك الذى قال خلقته من طين وخلقتنى من نار ؟ أم تحسبنا خلقنا بهذه الرقة لنعرف كيف يتحجر قلبك ويحمد ، وأثبتنا الله فى هذا العمر لتجىء أنت يا صاحب «المزرعة» فتحصد ؟ أم خلقت فى يد الله إرادة ماضية وخلقنا عليك اتكالا ، وجئنا على الطاعة شكلا واحداً وجئت أنت من يد الله أشكالا ؟ !

فإن كان قلبك شيئاً غير القلوب فما نحن شيئاً غير الناس ، وإن كنت هندسة وحدها فى بناء الحب فما خلقت أيامنا فى طولها وقصرها للقياس . وهب قلبك فى هذه الهندسة مربعاً أفلا يسعنا ضلع من أضلاعه ، أو مدوراً أفلا يسكننا محيطه فى انخفاضه وارتفاعه . وهبه مثلثاً فاجعلنا منه بقية فى «الزاوية» ، أو مستطيلاً فعدنا نمتد معه ولو إلى ناحية .

ما بال كتابنا - حفظك الله - يمضى سؤالاً فيبقى عندك بلا «جواب» ؟ وبنية على حركة القلب فتجعله أنت مبنياً على السكون ولا عمل له من «الإعراب» ، وما بالنال تقطع فى انتظار الرد مسافة من هجرك لو طار فيها البريد لانهى بكتب الحسنات والسيئات إلى السماء ، ولو جاس خلال الأرض لتقدم حتى لا يبقى أمام وتأخر حتى لا يبقى وراء ؟ ! فإن كنت ترضن أن توجه إلينا من عرشك خطاباً أو تنزل علينا من سمائك كتاباً ، فقد أقفل باب النبوة من قبلنا فما هذا الباب ، واحتجب الوحي من زمن بعيد فما هذا الحجاب ؟ !

لعلك تخشى إذا جاءنى كتابك الكريم أن يزعم الناس أن جبريل أصبح فى الأرض من سعاة البريد ، وأن السماء عادت تشرع لهذه الأرض فجاءتها بكتاب جديد ! أم لعلك تخاف أن تكتب بقلمك الأعلى أن يتعجل على الناس قلم لا يحتمل التأجيل ، وإن انتهى إلى كتابك قامت قيامة أوربا على مصر لأن عندى صفحة ناقصة من الأناجيل ؟ !

لقد هممت أن أعاقب القلم الذى كتبت به إليك فأحطم سنه ، وأجعله

من ناحيتي في «خبر كان» حتى لا يبقى من ناحيتك في خبر «إنه» وقلت كيف ، ويحك ، سودت وجهه صحيفتي بما هو في سواده مداد مع المداد ، وفي نفسه سواد غير السواد ؟ فقال : وهل أنا في هذه النعمة إلا «عود» ، وهل كنت إلا حركة ألفاظك من قيام وقعود ؛ وسل الدواء من أمدها ، والصحيفة من أعددها ، وسل أناملك كيف كانت تضغط على كأنها تسلم سلاماً ، ولا تخط كلاماً . وسل نفسك كيف كانت في حركتي تضطرب ، وقلبك كيف كان من كلمة يتعد وفي كلمة يقترب .

فما ندرى يا سيدي وقد أحبيناك أنعدك في ذنوب الزمان أم في أعذاره ، ونأخذك في الحب من وقائه أم في الجفاء من أخباره . . فإن أبيت أن تكون منا إلا سماء من أرضها ، وأن تكون منك إلا سنة من فرضها ، وأبيت وأنت مفرد الحسن إلا أن نعدك مع كبرياتك مثني بألف ونون ، وإلا أن تكون كما أردت أن تكون ، فإذا خاطبتنا قلنا يأيها الصديقان ويا غضبانان وراضيان ، وأنشدنا : ولو كان هماً واحداً . . . ولكنه همٌّ وثان . وإن أبيت إلا ما نأى ، ولم ترض مع صدقنا في حبك إلا كذباً ، قلنا لك بلغة اليأس منك : لشد ما أصاب الزمان فينا وأخطأ ، فليصب بك أو فليخطئ . وكثيراً ما أعطانا الدهر وأخذ ، فلتكن فيما يأخذ أو فيما يعطى ، وقلنا مع الذكر نسيان ، وما عسى أن ينقص الناس بإنسان !

ومن ظن «بصرفنا» عن نفسه أنه كبير ، جعلناه من «نحونا» في باب التصغير . ومثلنا - أصلحك الله - لا يتكلم إلا بفائدة ولا يسكت إلا لفائدة ، فإن أخطأنا معك في واحدة أصلحناها بواحدة . والسلام .

مصطفى صادق الرافعي

أما أنا فأعتذر للكاتب الأديب إذا أعلنت مضطرباً أن هذا الأسلوب الذي ربما راق أهل القرن الخامس والسادس للهجرة ، لا يستطيع أن يروقنا في هذا العصر الحديث الذي تغير فيه الذوق الأدبي ، ولا سيما في مصر ، تغيراً شديداً .

طه حسين

أسلوب في العتب

علق الأستاذ طه حسين على رسالة العتاب التي نشرتها السياسة بقوله :
إنه يعلن « مضطراً أن هذا الأسلوب الذي ربما راق أهل القرن الخامس
والسادس لا يستطيع أن يروقنا في هذا العصر الحديث الذي تغير فيه الذوق
الأدبي . . . »

ولست أجادله في ذوقه إن كان الأمر إليه أو إلى ذوقه ، وهو أعلم حيث
يجعل نفسه ، وليحملها على ما شاء ، وليحمل ما شاء عليها . ولكني لا أتبين
مرجع الضمير في قوله « لا يستطيع أن يروقنا » فهل ترجع « نا » هذه إليه
وحده أم إلى أهل العصر الذي نحن فيه ؟ وهل هو هو حسبه أم هو أكثر
من نفسه ؟ وإلا فمن سلطه ليتسلط بالنق؟ ومن قدر على النقى قدر على الإثبات ،
ومن تصرف في الجهتين لم يبق مع أمره أمر ولا بعد حكمه حكم . ولا أظن الأستاذ
الفاضل يزعم هذا لنفسه ، أو يمكن لها فيه .

على أن الأسلوب الذي كتبت به الرسالة كان موضع الانفراد ، وكان
الغاية التي تتقاصر دونها الأعناق منذ القرن الرابع إلى آخر التاسع ، ولم يوحش
منه تغير الذوق الأدبي ، كما يقول الأستاذ ، بل ضعف الكتاب فيه وتقصيرهم
عن حده ، وأنهم لا يوافقون به مواضعه ، ولا يعدلون به إلى جهاته في ألفاظه
ومعانيه .

لقد علم الكاتب أننا لا نزعم أن هذا الأسلوب هو الوجه في كل فنون الإنشاء
ومناحي التعبير ، بل قلنا إنه شيء من الزخرف ، وفن من التنسيق . ونقول الآن
إن أكثر كتاب العصر ، ومنهم الأستاذ طه ، لا يجيدونه ولا يستطيعونه مهما
تكلفوا له ، وبالغوا في هذا التكلف ، وتحروا في هذه المبالغة . وهذا عندنا
وجه من وجوه التأويل في معنى تغير الذوق الأدبي . وهب أن (كذا) الذوق
تغير وأتى على كل شيء في اللغة وأساليبها ، فأين معنى الطرفة والنادرة والملمحة في

مثل هذه الآثار الدقيقة ، وقد قامت الدنيا وركعت وسجدت . . . لدقائق توت عنخ آمون ، مع أن الذوق الفنى مات وبعث ثم ، مات وبعث فى أكثر من ثلاثة آلاف سنة . ونبه الأستاذ إلى أننا نشترط فى هذا الأسلوب أن يصيب موضعه وألا يجاوز مقداره ، وأن ينزل منزلة الزخرف لا منزلة البناء . ثم إننا نفرض أن هذا الفاضل اضطر أن يكتب فى هذا المعنى الذى كتبنا فيه وأراد أن يأتى بصورة من جمال الأدب ، فليكتب الآن وليلأ الوجه الآخر من الصحيفة بما تم به المقابلة بين ما يروق وما لا يروق ، وليأتنا بالبلاغة التى عجزنا نحن عنها ، إذا كان هذا رأيه المستور الذى يرى إليه برأيه الظاهر فى تلك الكلمات .

مصطفى صادق الرافعى

• • •

(السياسة)

يرى الكاتب الأديب « أن أكثر كتّاب هذا العصر ، وأنا منهم ، لا يجيدون "هذا الأسلوب" ولا يستطيعونه مهما تكلفوا له ، وبالغوا فى هذا التكلف ، وتحروا فى هذه المبالغة . وهذا عندنا وجه من وجوه التأويل فى معنى تغير الذوق الأدبى » .

وأنا لا أتردد فى إقرار الكاتب الأديب ، على أننا لا نجيد هذا الأسلوب ، وعلى أننا لا نريد أن نجيده ، لأن الذوق الأدبى ، ولا سيما فى مصر ، قد تغير . وقد كنت أريد أن أناقش الكاتب ، ولكن له فى نفسه رأياً لا يسمح بمناقشته والتحدث إليه . فلندعه ورأيه ، ولنحى الذوق الأدبى الجديد الذى يلائم حاجات الناس وحياتهم .

طه حسين

القديم والحديث

قرأت في الأسبوع الماضي وفي صحيفتنا الأدبية كتاب العتاب الذي بعث به الأستاذ مصطفى صادق الرافعي إلى أديب من أدباء الشام ثم اصطفى السياسة لتذيعه في الجمهور . ثم قرأت رأينا في هذا الأسلوب ورد الأستاذ علينا في هذا الرد . وتقرأ اليوم^(١) رد كاتيين على الأستاذ مصطفى صادق الرافعي ، ثم تقرأ رسالة أخرى في هذه الصحيفة نفسها عنوانها «بين الجمال والحب» للكاتب الأديب طه عبد الحميد الوكيل . وأعتقد أنك إذا قرأت كتاب الأستاذ الرافعي ورسالة الأستاذ طه عبد الحميد الوكيل رأيت أسلوبين في الكتابة الأدبية مختلفين أشد الاختلاف : أحدهما قديم جداً ، والآخر حديث جداً . وكلاهما فيما أعتقد بعيد كل البعد عن ملاءمة الحياة التي نحيها والعصر الذي نعيش فيه .

لو أني كنت أريد أن أذكر الكاتيين الأديبين لذكرت ما يمتاز به أحدهما من حسن رأيه في نفسه ، وما يمتاز به الآخر من التواضع بل الغلو في التواضع . ولكنني أعدل عن الكاتيين إلى الأسلوبين ؛ فقد يخيل لي أن من الخير أن يتفق الأدباء على أن لهذا العصر الذي نعيش فيه حاجات وضروباً من الحس والشعور تقتضى أسلوباً كتابياً يُحسن وصفها ويجيد التعبير عنها دون أن يسرف في القدم أو يغلو في الجدة . ولست أدري لم لا يتفق الأدباء على هذه القضية ، ونحن في حياتنا المادية إنما نلأم بين حاجاتنا وبين الأدوات التي نستخدمها لرضى هذه الحاجات ، فمالنا إذا أردنا أن نتكلم لنذل على هذه الحاجات لا نلأم بين لغتنا وبين حاجاتنا ، أو بعبارة أصح : مالنا لا نلأم بين اللغة وبين الحياة ؟ لسنا نعيش عيشة الجاهليين ، فنلأم أن نصطنع لغة الجاهليين . ولسنا نعيش عيشة الأمويين ولا العباسيين ولا المماليك ، بل لسنا نعيش عيشة المصريين في أوائل القرن الماضي ، فنلأم أن نستعير لغات هذه الأجيال وأساليبها لنصف بها أشياء لم يعرفوها ، وضروباً من الحس والشعور لم يحسوها

(١) راجع صفحة الأدب في السياسة بتاريخ ٤ يونيو سنة ١٩٢٣ .

ولم يشعروا بها . إذا كنا لا نعيش في الخيام ولا نتخذ هذه الأدوات المختلفة الحضرية أو البدوية التي اتخذها الجاهليون أو أهل بغداد ، فليس من سبيل إلى أن نشعر كما كان يشعر الجاهليون وأهل بغداد . وإذا فليس من سبيل إلى أن نكون صادقين حين نتكلم أو نكتب كما كان يتكلم الجاهليون أو كما كان يكتب أهل بغداد . وإذا فالغلو في اصطناع الأساليب الجاهلية أو العباسية على أنه مخالف لطبيعة الحياة التي تقتضى أن يكون اللفظ ملائماً للمعنى ، وأن تكون اللغة مرآة الأطوار المختلفة التي يتقلب فيها المتكلمون — أقول إن اتخاذ هذه الأساليب عيب خلقي في نفسه ؛ لأنه يدل على أن الكاتب أو المتكلم يعيش في تناقض متصل مع حياته الواقعة ؛ فهو يحس شيئاً ويقول شيئاً آخر وهو يشعر بشيء وينطق بشيء آخر .

اتخاذ هذه الأساليب نقص أدبي ؛ لأن الكمال الأدبي يستلزم أن تكون اللغة ملائمة للحياة . وهو نقص خلقي ؛ لأنه كذبٌ للكاتب على نفسه وعلى معاصريه . وهو نقص من جهة أخرى ؛ لأنه لا يدل على أقل من أن الكاتب ينكر شخصيته ولا يعترف لها بالوجود . وأي إنكار للشخصية أشد من أن تحس وتشعر ثم تستحي أن تصف إحساسك وشعورك كما تجدهما ، فتستعير لهذا الوصف أساليب لا تلائمه وضروباً لا تؤديه !

لنا حياة خاصة ، ولنا لغة خاصة تلائم هذه الحياة ، فإلنا نفرق بين الأشياء المؤتلفة ؟ وإلنا نقطع الأسباب المتصلة ؟ وإلنا نعيش في عصر ونتكلم في عصر آخر ؟

أعرف أن الأسلوب الذي اتخذته الأستاذ الرافعي كان مستعذباً في عصر من العصور . ولكني أعرف أنه إنما كان مستعذباً لأنه كان يلائم هذا العصر ، فإذا انقضى هذا العصر وانقضى معه ما ألف الناس من ضروب الحياة فيه ، فيجب أن ينقضى معه أيضاً أسلوب التعبير الذي كان الناس قد اتخذوه وسيلة لوصف ما يجدون في أنفسهم .

ومهما يقل الأستاذ الرافعي وأنصاره — إن كان له أنصار — فليس من شك في أنه يشعر كما كتب ، ولم يفكر كما كتب ، وإنما شعر بطريقة ، وكتب بطريقة أخرى . فلنأنا نراه هو في كتابه ، وإنما نرى في هذا الكتاب تكلفه ومحاولة الإجابة . ولا تنس أن الأستاذ يعاتب صديقاً ، وأن العتاب

يحتاج فيما يظهر إلى أن يظهر الصديق لصديقه دخيلة قلبه وخلاصة نفسه ،
لا أن ينسج له نسجاً ليس بينه وبينه صلة .

أسلوب الأستاذ الرافعي قديم جداً لا يلائم العصر الذي نعيش فيه .
وأسلوب الأديب طه عبد الحميد الوكيل حديث جداً لا يلائم العصر الذي
نعيش فيه أيضاً . وآية ذلك أني لا أشك في أن كثيراً من القراء سيشعرون حين
يقرءون رسالته بشيء من الغموض كثير ، وبأنهم أمام أشياء لا يشعرون بها
ولا يحسونها . لا لأن الله قد اختص بها الكاتب وحده ؛ فكثير من الناس يحب ،
وكثير من الناس يلذ الجمال ، ولكن لأن الكاتب قد اتخذ في وصف الحب
والجمال أسلوباً لا يلائم ما ألف الناس حين يحبون وحين يلذون ، وحين يحاولون
أن يصفوا الحب أو اللذة .

ويغلو قوم منا في إثارة القديم فيضيِّقون وفي الحياة سعة . ويغلو قوم منا
في إثارة الجديد فيرتفعون عما ألف الناس . ومع ذلك فالقصد أساس الخير
في كل شيء . لسنا أبناء القرن الخامس للهجرة ، ولسنا أبناء القرن السادس
عشر للهجرة ، وإنما نحن أبناء القرن الرابع عشر للهجرة . بيننا وبين الماضي
أسباب متصلة ، وبيننا وبين المستقبل أسباب متصلة . فالتنا لا نحفظ بهذه
المكانة التي وضعنا فيها الطبيعة ، فلا نسرف في التقدم ، ولا نسرف في التأخر ؟ !
لا أمقت القديم ولا آنف من الحديث ، وإنما أرى أني وسط بين القديم والحديث ،
وأرى أن لغتي يجب أن تكون مرآة صادقة لنفسى . ولن تكون لغتي مرآة صادقة
لنفسى إذا كانت قديمة جداً أو حديثة جداً ، وإنما هي مرآة صادقة لنفسى
إذا كانت مثلى وسطاً بين القديم والحديث .

سيقولون : فلننصرف إذن عن اللغة العربية الفصحى ؛ فهي قديمة جداً
لا تلائمنا ولا تؤدى ما نحسه ونشعر به . كلا ! ليس هذا حقاً ؛ فإن اللغة
العربية الفصحى ليست من الموت والجمود بحيث تظنون ، وإنما هي كثيرها
من اللغات الحية مستحيلة إذا تكلفها أحياء يخضعون لنظام الاستحالة والتطور .
حياة مستحيلة لأننا نفهمها ونتخذها وسيلة للتخاطب وتبادل الآراء ، فيفهم
بعضنا بعضاً دون تكلف ولا عناء . وكل ما نريده لهذه اللغة هو أن تسلك
سبيلها في الحياة والاستحالة ، دون أن يحول بينها وبين ذلك أسلوب قديم كأسلوب
الأستاذ الرافعي ، ودون أن يفسد عليها هذه الحياة أسلوب حديث جداً كأسلوب

الأديب طه عبد الحميد الوكيل . لا نكره أن يصطنع الأدباء في دقة واحتياط ألفاظ اللغة العربية الفصحى التي جلاها الاستعمال وصقلتها الألسنة، وأن يؤثروا هذه الألفاظ على الألفاظ الساقطة المبتذلة . كما لا نكره أن يستعير الكتاب في قصد وحسن اختيار من اللغات الحديثة الأوربية معاني وأساليب وألفاظاً دون أن يفسد ذلك جمال اللغة العربية وروعها . وعلى الحملة نريد أن تكون لغتنا مرآة لحياتنا ، لا قديمة خالصة ، ولا أوربية خالصة . فأى شيء في هذا ؟ وماذا يمكن أن ينكر علينا الأستاذ الرافعي وأصحابه من هذا ؟ ومتى كان القصد إلى الصدق وحسن الملاءمة بين ما نجد وبين ما نصطنع في وصف ما نجد ذنباً ينكر أو شيئاً يعاب ؟ على أننا نود لو كتب الكاتبون في هذا الموضوع وأعلن كل منهم رأيه فيه ؛ فقد تنهى المناقشة بنا إلى الاتفاق على قاعدة يحسن أن نتفق عليها منذ الآن ، فتتق هذا الاضطراب الذي نشهده في النثر والشعر وأساليبيهما . ونتق شيئاً آخر ثقيلاً منكرأ هو سخط الأدباء والكتاب إذا تقدم ناقد أو أخذهم كاتب بما لا يحبون .

طه حسين

الذوق الأدبي

شديد جداً حرج هذا الموقف الذى يضطر إليه الصحفي إذا أراد أن يكون حراً ، وإذا أراد أن يقدر حرية غيره ، فيبيح صحيفته لنقد الناقدين واختصاص المختصين . شديد جداً حرج هذا الموقف ؛ لأن الناس لا يقدرون حرمتهم وحرية غيرهم كما ينبغي ؛ فهم يسرفون إذا اکتالوا ، ويطففون إذا كالتوا . يرون لأنفسهم الحق فى كل شيء : فى أن يقولوا ما يشاءون ، وفى أن يسبوا ما يشاءون . وينكرون على غيرهم كل شيء ، فليس لهم أن يقولوا إلا خيراً ، وليس لهم أن يصفوك إلا بما تحب وترضى . يجب أن يكونوا لسانك لا ألسنة أنفسهم . يجب أن يشعروا كما تشعر ، ويدوقوا كما تذوق ، لا كما يشعرون ويدوقون . وقد احتملنا هذا الطغيان فى الخصومة السياسية ؛ لأن الله قد ابتلى مصر بأدعياء السياسة يتخذونها تجارة وسبيلاً إلى الربح . وكنا نرجو أن يعفينا الله منها فى الخصومات الأدبية ؛ لأن الأدباء أحق الناس أن يكونوا مؤدبين . ولكن الله أبى إلا أن يفتن الناس فى الأدب كما فتنهم فى السياسة وكما فتنهم فى الأخلاق . فلنصبر ولنسأل الله أن يبيح لنا من أمرنا رشداً فى كل شيء .

نكتب هذا وبين يدينا مقال للأستاذ صادق الرافعى أراد أن يدافع به عن أسلوبه فى العتب ؛ فلم يتح له هذا الدفاع إلا بالشتم واستصغار الخصم ، فوصف الناقدین اللذين تناولا أسلوبه فى الأسبوع الماضى بأنهما عقربان ، ثم أضاف إليهما القصور وجرهما الفقه الأدبى . كأن الله عزوجل قد أبى الكمال والإتقان إلا على الأستاذ وأصحاب الأستاذ ؛ مع أن الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء .

ونحن مضطرون إلى أن ننشر مقال الأستاذ ؛ لأنه يدافع عن نفسه ، ولأن فيه ما يستحق الرد . ولكننا نحب أن يلتفت الأستاذ إلى أن النقد شيء والشتم شيء آخر ، وإلى أن الذوق قد تغير فى هذا أيضاً كما تغير فى الأساليب الأدبية . فبالناس لا ينقد بعضهم بعضاً الآن كما كان يتهاجى جرير والفرزدق

منذ أحد عشر قرناً . وليس ينبغي أن يباح لك الاستمتاع بالحرية الصحفية ، فتسرف في هذا الاستمتاع ، وتضطرب صاحب الصحيفة إلى أن يخرج عن طور الأدب فينشر الشتم والسب ، أو يصطنع الحزم فيأبى عليك أن تدفع عن نفسك حتى تكون في ألفاظك ومعانيك مقتصداً مؤثراً للين القول وحلوه على غليظه وفجوه .

وبعد ، فقد أعجبنا من الأستاذ دفاعه عن نفسه حين أخذناه بقوله : « وهب أن الذوق تغير » في هذا الدفاع بحث ، ولكننا لا نريد أن ننازع الأستاذ ولا أن نطيل جداله في مسألة لفظية ، وإنما نلفته إلى أن الذين يؤثرون الأسلوب القديم ويتكلفونه ، ويزدرون الأساليب الحديثة ويمقتونها أحرىء ألا يتكلفوا هذه الأساليب إلا مجيدين متجنبيين مواضع الشبه ، مؤثرين فصيح القول على ركيكه ، مفضلين ما ليس فيه شك على ما وقع فيه الخلاف . وأنا أعتقد أن الأستاذ حين كتب عبارته كان يعتقد أنها صحيحة فصيحة لا غبار عليها ولا خلاف فيها . فلما نبهناه إلى هذا رجع إلى اللسان وإلى الحريري ، فجعل الله له مخرجاً من حيث لم يحتسب . فليهنأ الأستاذ حسن حظه بما قال ابن بري ، وليحرص منذ الآن إذا تكلف القديم على أن يكون قديماً حقاً ، لا قديماً من قوارير .

ثم سخر الأستاذ من ناقديه ، وعرض لهما مثلين من الأدب الذي يليق بأهل هذا العصر . عرض لهما كتابين كان يكتبهما لو لم يكن من أنصار القديم المخلصين في نصره وتأييده . ويسوئنا أن نلقت الأستاذ إلى أنه لم يوفق في هذه السخرية ، وأن مثليه لا يصفان أذواق الناس في هذا العصر . فهم لا يكتبون كما كتب الأستاذ في رسالته التي هو بها معجب . وهم لا يكتبون كما كتب الأستاذ في رسالته اللتين هو منهما ساخر . وإنما لم في العتب وغير العتب أساليب صادقة سهلة حلوة ، يشعرون بها ويفهمونها ، وهي بريئة من تكلف الرياضة ، بريئة من تكلف الفلك ، بريئة من تكلف لغة الفقهاء . . ونريد الفقهاء الذين يتلون القرآن على القبور . أساليب هذا العصر بريئة من كل هذا التكلف . ولهذا نؤثرها وننصرها ، وندعو الناس إلى إيثارها ونصرها إن أرادوا أن يكونوا صادقين حقاً فيما يكتبون وفيما يحسون .

ثم أراد الكاتب أن يناقش ما كتبناه عن الذوق الأدبي الجديد ، فرأى أننا موفقون وأنا غير موفقين . موفقون « إذا اعتبرنا به ما بين الكتاب وجهور

الناس ، وغير موقنين ، وإذا اعتبرنا به ما بين الأدباء بعضهم من بعض .
وإذا فللكتاب ذوقان : ذوق مبتذل يصطنعه الأدباء إذا تنزلوا إلى مخاطبة جمهور
الناس . وذوق آخر راق جليل الخطر مقدس يصطنعونه إذا تحدث بعضهم
إلى بعض . هذا رأى الأستاذ .

أما نحن فنرى غير هذا الرأى ، ونرى أن الذوق الأدبى العام واحد لا يتغير
بتغير من تتحدث إليه . وقد تختلف الرسائل عسراً ويسراً وتختلف لئناً وشدة ،
باختلاف من تتحدث إليه ؛ فللصحف لغة وأساليب ليست للكتب التى
يؤلفها العلماء للعلماء والأدباء للأدباء . ولكن ذلك شئ ، واختلاف الذوق شئ
آخر . وهؤلاء كتاب أوربا وأدباؤها يتحدث بعضهم إلى بعض ويتحدثون
إلى جمهور الناس فى الفرنسية أو الإنجليزية أو الألمانية ، فلا يختلف الذوق
الأدبى فيما يكتبون باختلاف القراء ، وإنما يؤثران الوضوح والإيماء حيناً فيطبنون
ويسهبون ويصطنعون ألفاظاً ألفها الناس . ويؤثرون القصد والإيماء حيناً فيوجزون
ويتخيرون ألفاظاً متقاة . والذوق هو الذوق ، والكتابة هى الكتابة ، وروح
العصر الذى يعيشون فيه هو فى كتبهم ولغتهم وفيما يكتبون لعامة الناس .
ونحسب أن الأمر كان كذلك أيام العباسيين ، فى هذا العصر الذى
يرى الأستاذ أنه أحد مثليه . فلم يكن فى هذا العصر ذوقان أديبان : ذوق
مبتذل يتنزل به الكتاب إلى عامة الناس ، وذوق أرسقراطى يتفككون به فيما
بينهم . هذا إسراف يذكرنا برأى بعض الفرق الباطنية : رأى أولئك الذين
يرون الدين وسيلة إلى إصلاح العامة وأخذها بالمعروف وحملها على النظام .
فأما الخاصة فهى منظمة بطبعها راقية بطبعها ، وإذا فليست فى حاجة إلى
الدين ، يباح لها ما حظ على العامة . يجب على العامة أن تصلى وتصوم ؛
أما الخاصة فلها أن تشرب الخمر وتقرن الآثام ؛ لأن هذه الآثام أضعف
من أن تفسد نفوسها الطاهرة الراقية بفطرتها . إلى هذا النحو ذهبت طائفة من
غلاة الباطنية . ويظهر أن الأستاذ يريد أن يذهب فى الأدب مذهب أولئك
الناس فى الدين .

أما نحن ف نريد أن يفهمنا الناس ، كما نريد أن نفهم الناس . ولهذا نتحدث
إلى الناس بلغة الناس ، وإذا تحدثنا إلى الأدباء أمثال الأستاذ تحدثنا إليهم
أيضاً بلغة الناس . وليمح لنا الأستاذ أن تلفته إلى شئ ذى بال ، وهو أن

الأدباء الذين « يقدرون أنفسهم » لا يكتبون إلا وهم يفكرون في أنهم يُظهرون الناس على شيء من أنفسهم ، وفي أن ما يكتبون له قيمته ، فهو خاص اليوم ولكنه عام غداً . ولعل الأستاذ لا يجهل أن رسائل الأدباء فيما بينهم تنشر في حياتهم وتنتشر بعد أن يموتوا . وإذا فخليق بالأديب الذي يقدر نفسه ويريد أن يقدره الناس إذا كتب ، أن يفكر في هؤلاء الناس ، وأن يكون من السهولة ومراعاة الذوق الأدبي بحيث لا يعجز الناس عن فهمه . والأدباء حقاً يذهبون هذا المذهب . فنحن نقرأ الرسائل الخاصة التي كتبها « فكتور هوجو » إلى الشعراء والأدباء والتي تلقاها منهم ، فنفهمها كما نفهم غيرها من الرسائل . ونقرأ ما كان بين « رينان » و « برتلو » من الرسائل فنفهمها دون مشقة ولا عناء؛ ولم يكن « فكتور هوجو » و « لامارتين » و « فلوير » و « بودلير » و « رينان » و « برتلو » يتكاتبون باللاتينية ولا بفرنسية القرون الوسطى ولا بفرنسية القرن السادس عشر ولا بفرنسية القرن السابع عشر أيضاً ، وإنما كانوا يتكاتبون بفرنسية القرن التاسع عشر وذوق القرن التاسع عشر . ولم يكن أدباء العصر العباسي إذا تحدث بعضهم إلى بعض أو كتب بعضهم إلى بعض يصطنعون ألفاظ روية والعجاج وأساليب الجفافة من الأعراب ، وإنما كانوا يتحدثون ويكتبون متأثرين بذوق العصر الذي يعيشون فيه . وإذا فلسنا مجددين إذا دعونا إلى الملازمة بين اللغة وبين الحياة . نحن أقرب إلى السنة العباسية من الأستاذ ، ونحن أقرب إلى السنة الأدبية العامة من الأستاذ . نحن أحياء نحب الحياة ولا نحب الموت .

يخشى الأستاذ إذا انتصر مذهبنا أن تضعف اللغة ويذوى عودها ، وأن يضطر الناس بعد حين إلى أن يترجموا العربية إلى العربية . وليطمئن الأستاذ ! فليست اللغة تتعرض لهذا الخطر إذا انتصر مذهبنا ، وإنما تتعرض له إذا انتصر مذهبه . وآية ذلك بينة ، وهي أن الناس محتاجون الآن إلى أن تترجم لهم رسالته في العتب ، وليسوا محتاجين إلى أن تترجم لهم رسائلنا . ماذا نقول ، ليسوا محتاجين إلى أن يترجم لهم الجاحظ وابن المقفع ، وهم محتاجون إلى أن يترجم لهم الأستاذ صادق الرافعي . وسل القراء ينبشوك الخبر اليقين !

ولسنا في ذلك بدعاً من الناس . فلك أن تذهب إلى باريس وإلى « بيت مولير » لترى كيف يسمع الناس ويفهمون من غير مشقة ولا عناء لغة « كورنيل »

و «راسين» و «مولير» دون أن يحتاجوا إلى مترجم . وأؤكد لك أن الذوق الأدبي في القرن السابع عشر الفرنسي غيره في هذا القرن الذي نعيش فيه . ذلك لأن اللغة الفرنسية تحيا وتستحيل في نظام وهدوء ، فهي لا تطفر ولا تثب . وإذا فالصلة قائمة متينة بين عصورها الحديثة على اختلافها . وكذلك كانت الحال أيام العباسيين ، وكذلك نريد أن تكون الحال في هذه الأيام .

أما إشفاق الأستاذ أن تدفن الكتب العربية كلها لأنها من آثار الذوق القديم ، وأن «يوضع على دار الكتب شاهد من شواهد القبور» فالفاظ تنثر ولا تقدر . ذلك أنا لا نشفق على كتب العرب هذا الإشفاق ولا نخشى عليها الموت ، وإنما نأمل لها حياة أصلح وأنفع من حياتها الآن إذا انتصر رأينا . نأمل لها أن تحيا كما تحيا الآن في فرنسا آثار «راسين» وفي إنجلترا آثار «شكسبير» . ذلك أنا لا نقطع الصلة بين قديمنا وحديثنا ، وإنما نزيدها قوة ومثانة . نستمد الحياة من قديمنا على أن نضيف إليه من الحديث ما يتيح له الخصب والإثمار . وهذا هو الفرق بيننا وبينك يا سيدى الأستاذ .

أقصيت عصرًا من عصور اللغة ليس هو أجملها ولا أنقاهها ، ثم لجأت إليه وتحصنت به ، وأبيت أن تتأخر عنه أو تتقدم . أما نحن فنستبيح لأنفسنا عصور اللغة كلها ، نستخلص صفوها ، ونضيف إليه صفو العصر الحديث ؛ فنجد من ذلك شراباً عذباً يبعث فينا القوة والحياة .

لك يا سيدى الأستاذ أن تناقش وتجادل عن رأيك . ولكن عليك أن تلتفت إلى شيئين : أحدهما لين القول والرفق فيه . والآخر أن «السياسة» حرة تنشر ما يصل إليها من الرسائل متى شاءت وحيث شاءت . فإن لم يرقك هذان الشرطان فنحن آسفون ، والصحف في مصر كثيرة . والسلام .

حول أسلوب في العتب °

قصير جداً هذا الحديث ؛ لأن الأدباء الذين خصمهم الأستاذ الراجعي وخصموه لم يتركوا لي موضعاً في صحيفة الأدب . ولكنني أردت مع هذا أن أتحدث إلى هؤلاء الأدباء بشيء من العتب قليلاً . قد كنت أحب لهم و « للسياسة » وللأدب أن يؤثروا الحلم ويأخذوا أنفسهم بلين القول وشيء من الصفتح والإغضاء ، ولكن الأستاذ الراجعي نالهم بالأذى ، فأخرجهم ذلك عن طورهم وتجاوزوا في ردهم على الأستاذ ما يجبون ونحب إلى ما نكره ويكرهون . ولولا أن لهم حق الدفع عن أنفسهم لاعتذرت إليهم من نشر ما كتبوا . ولولا أني لا أبيع لنفسي المسخ والتشويه لحدفت مما كتبوا شيئاً كثيراً . ولكن « السياسة » تنشر لهم اليوم وتم ما جاءها في هذا الشأن غداً معتذرة إلى الكتاب جميعاً من إقفال هذا الموضوع الذي تجاوز البحث الأدبي النافع إلى ما يكره الأدباء .

ولدينا كلمة للأستاذ الراجعي لا نستطيع أن ننشرها ، فنعتمد إلى الأستاذ ، ونظنه يفهم ، ونظن غيره يفهم أن « للسياسة » الحق في ألا تنشر شتم كتابها ومحرريها في غير حق وفي غير فائدة ولا نفع .

° راجع السياسة في ٢٠ و ٢١ يونيو سنة ١٩٢٣ .

حول أسلوب في العتب

يأى الأستاذ مصطفي صادق الرافعي إلا أن نشغل به ، فقد أطال الجدال حول « أسلوبه في العتب » . فلما أعلننا انصرافنا عن هذا الموضوع أخذ يجادلنا في أسلوبنا . ولعله أراد أن يثار لنفسه ، فتقد أساوننا كما تقدنا أسلوبه . ولكننا نتقبل نقده على نحو كنا نود لو نحاه بإزاء نقد الناقدين له . نتقبل نقده شاكرين متواضعين لا ساخطين ولا مجادلين . فلسنا نزعم لأسلوبنا امتيازاً من الأساليب . ولسنا نصفه بأنه من أنواع الزخرف . ولسنا نزعم أن الأعناق تقطعت دونه عصوراً . ولسنا نزعم أن الكتاب غير قادرين على إتقانه مهما بالغوا وتكلفوا في المبالغة . لسنا نزعم لأسلوبنا شيئاً من ذلك ، إنما نشعر فنكتب ، وقد نجيد مرة وتورط في الردىء مرة أخرى . وقد نصيب حيناً وتورط في الخطأ حيناً آخر . فلمن شاء النقد أن يتقد ، ولمن تفضل بإرشادنا إلى مواضع الخطأ أو الرداءة أن يرشدنا مشكوراً .

أما بعد ، فلسنا نحكي بأسلوبنا أسلوباً آخر قديماً أو حديثاً . ولسنا نتكلف هذه المحاكاة ، وإنما هي طريقتنا في التفكير وطريقتنا في الإملاء . فإذا أراد الأستاذ أن يقدر هذه الطريقة ويؤرخ لها في كتابه فنحن شاكرون له عنايته وحسن ظنه . وإذا أراد الأستاذ أن يزدريها ويربأ بكتابه عنها فله ذلك غير ملوم ولا معاتب .

يأخذنا الأستاذ بكلمة « مفزعة » وليس في « المفزعة » مأخذ فهي كلمة يرضاهها القياس ويقرها السماع . والرجوع إلى المعجمات أيسر على الأستاذ في هذه الكلمة من الرجوع إلى هذه المعجمات في وضع « أن » بعد « هب » . وأيسر عليه من تلمس المعاذير ومن تتبع ما قال ابن برى في مناقضة الحريري . ولعل الأستاذ يذكر أننا حمدنا له حسن حظه إذ وجد من ابن برى عاذراً ومقبلاً . ويأخذنا الأستاذ بكلمة « مهلعة » ، وليس في هذه الكلمة مأخذ ، فإن كتب النحو وكتب اللغة سواء منها ما يقدر الأستاذ وما لا يقدر تبيح للناس

أن يُعدّوا الأفعال اللازمة الثلاثية بالهمزة قياساً مطرداً . فالله يأذن لنا في أن نعدى « قام » و « قعد » و « رضى » وما إليها بالهمزة فنقول « أقامه » و « أقعده » و « أرضاه » و « أغضبه » . ولسنا ندرى لم يحظر الأستاذ ما أباح الله ! فقد يحمد للناس أن يتشددوا في اللغة ، ولكن يجب عليهم أن يتشددوا في قصد وإيثار للصواب . والإسراف شر في كل حال ؛ وقد يكون شرّاً من الإسراف شيء آخر تورط فيه الأستاذ ونحب أن نلفتته إليه في لطف ورفق .

كتب الأستاذ إلينا مع رسالته هذه كتاباً أراد ألا ينشر ، فكتب في رأسه « ممنوع نشر هذا الكتاب » . فالأستاذ يعلم أن هذا ليس من أدب الخطاب في شيء ، وأن الله لم يمنحه من القوة ولا من السلطان ما يبيح له وضع مثل هذه الصيغة المتبدلة . وهو يعلم أنا لو أردنا نشر كتابه لما منعتنا من ذلك هذه الصيغة ، وإنما عرفنا رغبته في أن يظل كتابه مكتوماً فكتمناه ، وإن كنا لم نفهم لم آثار أن يكتم هذا الكتاب .

على أن إعراضنا عن نشر هذا الكتاب لا يمنعنا أن نشير إلى شيء جاء فيه . ينثرنا الأستاذ بكلمات قد يتناولنا بها في صحف أخرى . فهل قرأ الأستاذ : « زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً » .

وهل قرأ الأستاذ قول الآخر : « تمنأتني ليقطنني زياد » . على أني أعتذر إلى قراء هذه الصحيفة من إطالة الجدل فيما لا خير فيه ، وأعدهم بأنني سأستأنف معهم الحديث عن أبي نواس في الأسبوع الآتي .

القديم والجديد

تقرأ في الرسالة الفارسية « لمنتسكيو » رسالة لا تخلو من فكاهاة ولذة ، تناول فيها بالعبث والمزاح خصومة الأدباء الذين كانوا يتنازعون في عصره حول القديم والجديد وحول القدماء والمحدثين . تجد في الرسالة أن الباريسيين يحبون القهوة ويكلفون بها ، وقد ظهر حبهم إياها وكلفهم بها حتى أنشئت أندية خاصة يختلف إليها الناس ، يقرءون الصحف ويتناقلون الأخبار في بعضها ، ويلعبون الشطرنج في بعضها الآخر ، وتقدم إليهم كؤوس القهوة أثناء القراءة واللعب . وبين هذه الأندية ناد خاص يظهر أن للقهوة فيه فضلا على غيرها من القهوات التي تقدم في الأندية الأخرى ، كأن فيها شيئاً يشحذ العقل وينبه الخاطر ، ويزيد البصيرة نفوذاً ، والذكاء توقداً ، والألسنة انطلاقا . فالذين يختلفون إلى هذا النادي ويتناولون القهوة التي تقدم فيه أفصح الناس لساناً وأعذبهم بياناً ، وأقدرهم على التصرف في فنون السحر ، وأبرعهم في اصطناع ضروب الجدال ؛ فهم يتحدثون ويتناقشون ويتجادلون ، وهم يتقاذفون ويتشائمون كأعنف ما يتقاذف الناس وأقبح ما يتشائمون ، كل ذلك في ألفاظ مختارة منتقاة تقع وقع الصواعق وتنفذ نفوذ السهام . وكل هذه المناقشة وكل هذا العنف وكل هذا الجدال إنما يدور حول شاعر يوناني عاش أو لم يعيش منذ ألفي سنة ، يكبره بعضهم حتى يبلغ به منزلة لا تعدلها منزلة ، ويحقره بعضهم حتى يبلغ به من الخسة دركاً ليس دونه درك . وهم يختصمون ويتنازرون ويقتتلون دفاعاً عن هذا الشاعر أو هجوماً عليه ، ويفتبط الكاتب أنه ليس هذا الشاعر ، ويحمد الكاتب الظروف التي أماتت هذا الشاعر قبل أن تقوم هذه المعركة العنيفة حول اسمه ومكانته ، فلو قد أدركها لقتلته أو لنالته بشر من الموت إن كان هناك شر من الموت .

على هذا النحو يتحدث « منتسكيو » عن أدباء الفرنسيين الذين كانوا يختصمون في القرن الثامن عشر حول القدماء والمحدثين . ويظهر أن عبث

«منتسكيو» وسخريته من هؤلاء المختصين ، وأن عبث غير «منتسكيو» وسخريته من هؤلاء المختصين ، لم يصرفاهم عن الخصومة ولم يلهيهم عن القديم والحديد ، فظلوا يختصمون في القرن الثامن عشر كما كانوا يختصمون في القرن السابع عشر وكما اختصموا من قبل ذلك وكما اختصموا من بعده ، حتى انتصر جديد على قديم ، ثم أصبح هذا الحديد قديماً ، واختصم الناس حوله وحول جديد آخر ، فما زالت الخصومة حتى انتصر هذا الحديد على ذلك القديم . ويظهر أن هذه الخصومة ستستمر أبداً في كل لغة وفي كل جيل وحول كل أدب ، على شرط أن يكون للغة والأدب والحيل الذي يتصرف فيهما حظ من الحياة . وقد تأخذ الخصومة حول القديم والحديد أشكالاً مختلفة وصوراً متباينة تمثل العصر الذي تنشأ فيه والظروف التي تحيط بها ، ولكنها مهما تباينت أشكالها وتباين صورها ، ومهما تختلف العصور التي تنشأ لها والظروف التي تحيط بها خصومة بين القديم والحديد ، لا مصدر لها إلا الحياة من حيث هي حياة ، ولا منصرف عنها لأنها الحياة .

نقول هذا كله بعد أن فرغنا من قراءة فصل من مجلة «الهلال» التي صدرت أول هذا الشهر . وكاتب هذا الفصل الذي نسجل مسرورين أنه ممتع هو الأستاذ مصطفى صادق الرافعي ، كتبه يدافع به عن المذهب القديم في الأدب ؛ لأن كاتباً آخر هو الأستاذ سلامة موسى كتب في مجلة «الهلال» التي صدرت في الشهر الماضي فصلاً عن الأستاذ الرافعي هاجم فيه المذهب القديم في الأدب مهاجمة عنيفة ، وجعل فيه الأستاذ مصطفى صادق الرافعي زعيماً من زعماء هذا المذهب القديم . فلم يكن بد للأستاذ من أن يدافع هذا الهجوم العنيف دافعاً عنيفاً . ولم يكن بد للقارئ «الهلال» من أن يقرأ هذين الفصلين العنيفين ، ثم يسأل فيم يختصم الكاتبان ؟ وما أصل هذا العنف في خصومتها ؟ وهل لهذه الخصومة نتيجة أو أثر في الأدب القديم أو الأدب الجديد ؟

الحق أن ميدان هذه الخصومة أوسع من مجلة «الهلال» وأن أبطال هذه الخصومة أكثر من الأستاذين سلامة موسى ومصطفى الرافعي . وإذا كان لنا ألا نسرف في استقصاء التاريخ وألا نذهب بالقارئ إلى ما بعد به العهد ، فقد يكون لنا أن نذكر القارئ بأن مصدر هذه الخصومة في هذه الأيام الأخيرة

إنما هي صحيفة الأدب في « السياسة ». ففي الصيف الماضي اشتدت الخصومة بين الأستاذ الرافعي وطائفة من الكتاب المصريين حول رسالة له بعث بها إلى « السياسة » تحت عنوان « أسلوب في العتب » وذهب فيها مذهب المتكلمين من بعض الكتاب القدماء ، فأنكر عليه بعض الكتاب المصريين جمال هذا الأسلوب . وكانت حول هذا الإنكار خصومة طويلة انتهت إلى الشتم والتنازع . ثم لم تكد تنتهي السنة الماضية حتى نشرت « السياسة » لكاتب أديب من كتاب فلسطين هو الأستاذ خليل السكاكيني رسالة حول الأسلوب القديم والأسلوب الجديد وحول الإيجاز والإطناب ، تناول فيها بالنقد كاتباً أديباً من سورية هو الأمير شكيب أرسلان ، فرد عليه الأمير ردّاً طويلاً ، واشتدت المناقشة بين الكاتبين حتى انتهت إلى شيء من العنف ليس بقليل . ثم عرض الأستاذ سلامة موسى للأستاذ الرافعي في مجلة « الهلال » فعهده مع الأمير شكيب أرسلان من زعماء المذهب القديم ، وأشار إلى الكاتب الأديب خليل أفندي السكاكيني على أنه من أنصار المذهب الحديث .

هذا هو التاريخ القريب لهذه الخصومة بين القديم والجديد في الأدب . ويخطئ من ظن أن هذه الخصومة ستنتهي غداً أو بعد غد . ويخطئ من سأل نفسه عن قيمة هذه الخصومة وعن آثارها الحسنة أو السيئة . فستستمر هذه الخصومة في الأدب العربي ، كما استمرت في الآداب الأخرى ، وكما استمرت في الأدب العربي القديم نفسه ، وستنتج نتائجها التي أنتجت في كل زمان وكل مكان، فينتصر جديد على قديم، ثم يصبح هذا الجديد قديماً وتكون الخصومة حوله وحول جديد آخر ينتصر متى آن له الانتصار . وستظل الحال كذلك ما دام للغة العربية والأدب العربي حظ من حياة .

هذه الخصومة إذاً مشروعة ، سواء أكانت نافعة أم لم تكن نافعة ، فليس الأدب العربي بدعاً من الآداب ، وليس الأدب العربي العصري بدعاً من الآداب العربية المختلفة . فليختصم الأستاذان سلامة موسى ومصطفى صادق الرافعي ، وليختصم الأديبان خليل السكاكيني وشكيب أرسلان . ولكنا نظن أن من حقنا نحن القراء على هؤلاء المختصمين أن نسألهم : فيم يختصمون ؟ وأن نطلب إليهم في رفق ولين أن يتفضلوا فيحددوا لنا موضوع الخصومة ؟ حتى نتبعهم فيها على بصيرة من أمرها ومن أمرنا . فقد يظهر لنا إلى الآن أن هؤلاء

المختصين يختلفون في أشياء لم يستطيعوا بعد أن يحدوها . وآية ذلك أنك تقرأ مقال الأستاذ الراجعي فتجده يسأل ما « المذهب الجديد » وما « المذهب القديم » ، ويحاول أن يتبين هذين المذهبين وما بينهما من فروق ولو كانت الخصومة بينه وبين صاحبه واضحة الموضوع بينة الحدود لما كلف نفسه هذا السؤال ولما احتاج إلى أن يكتب كل هذا الفصل الطويل . وقل مثل هذا في الخصومة بين الأدبيين خليل السكاكيني وشكيب أرسلان ؛ فهما يختلفان في الإيجاز والإطناب والمساواة ، يرى أحدهما أن الإطناب خصلة من خصال اللغة العربية قد عمد إليها أكبر الكتاب وأرفعهم قدراً منذ كان النثر العربي إلى الآن ، فمن الحق أن نتبع طريقهم في ذلك . ويرى الآخر أن الإطناب خصلة من خصال اللغة العربية ، ولكن له مقامه فلا ينبغي أن يعتمد إليه الكاتب ولا سيما في هذا العصر إلا بمقدار وإلا حين تدعو إليه الحاجة الأدبية . ويدور المختصمون جميعاً حول الذوق دون أن يحدوا هذا الذوق . أليس من حقنا أن نسألم عن حد هذا الذوق ما هو ؟ وما الذي يريدون منه ؟ ولا تقل إن الأستاذ الراجعي قد أجاب عن هذا السؤال ؛ فنحن نعرف بأن جوابه أدق من أن نفهمه وأشد غموضاً من أن نظهر عليه . وانظر إلى ما يقول في الذوق : « وأنت تعلم أن الذوق الأدبي في شيء إنما هو فهمه ، وأن الحكم على شيء إنما هو أثر الذوق فيه ، وأن النقد هو الذوق والفهم جميعاً . . . » . نعرف بأننا لا نفهم هذا الكلام ، بل نعرف بأننا نعتقد أن هذا الكلام ليس من شأنه أن يفهم . فإذا كان الذوق الأدبي في شيء إنما هو فهمه ، وإذا كان الحكم على شيء إنما هو أثر الذوق فيه ، فكيف نستطيع أن نفهم أن النقد إنما هو الفهم والذوق جميعاً ؟ ذلك أن الجملة الأولى صريحة في أن الذوق هو الفهم ، وإذا فالذوق والفهم لفظان يدلان على معنى واحد ، وإذا فليسا شئيين وإنما هما شيء واحد هو الفهم ، وإذا فالحكم أثر من آثار الفهم . والنقد هو الفهم ، وإذا فالنقد والفهم والحكم والذوق كل أولئك شيء واحد تدل عليه ألفاظ مختلفة . . . نعرف كما قلنا بأننا لم نفهم هذه الجملة ولم ندققها ، وإذا فنحن لا نستطيع أن ننقدها ولا أن نحكم فيها ؛ لأن الذوق هو الفهم ، والفهم هو الحكم ، والنقد هو الذوق والفهم معاً ، وتستطيع أن تدور في ذلك ما شاء الله أن تدور . . . فما زال الأستاذ الراجعي مطالباً بأن يوضح لنا نظريته هذه في الذوق . ونحسبه يحتاج في توضيح نظريته

هذه إلى عناء كثير . ذلك أنه يخيل إلينا أن الذوق شيء والفهم شيء آخر ، وأن من الإسراف أن نقول إن الذوق هو الفهم ؛ فقد تفهم أشياء كثيرة دون أن تذوقها . وآية ذلك أنا نفهم كثيراً من كلام الأستاذ الرافعي دون أن نذوقه أو نعجب به . وربما كان لنا أن نذهب إلى أكثر من هذا فتزعم أننا قد نذوق أشياء كثيرة دون أن نفهمها . وإثبات ذلك ليس بالشيء العسير ؛ فما نظن أن الذين يذوقون الموسيقى ويضطربون لها يفهمونها جميعاً ، بل نعتقد أن الكثرة المطلقة من الذين يسمعون الموسيقى فيضطربون ويتأثرون وينتهي بهم ذلك إلى شيء يشبه الذهول ، لا يفهمون الموسيقى كما يفهمها الموسيقيون الإخصائيون . فأتت ترى أن الذوق والفهم شيان مختلفان ، قد يجتمعان حيناً تفهم قصيدة من الشعر أو فصلاً من النثر وتعجب بهما ، وحيناً تفهم قطعة من الموسيقى وتضطرب لها ، ولكنهما قد يفترقان حيناً تقرأ فصلاً من فصول الكتاب المتكلمين أو قصيدة من نظم الشعراء المتكلمين ، فتفهم النظم وتفهم النثر ، ولكنك تنكرهما وتسخط عليهما السخط الشديد ، وحيناً تسمع قطعة من الموسيقى فتعجب وتضطرب دون أن تفهم ما أراد الموسيقى .

وللأستاذ الرافعي في فصله هذا آراء كهذا الرأي محتاجة إلى شيء من المناقشة ومنها ما كان يحتاج إلى شيء من التواضع قبل أن ينشر ويعلن إلى الناس . انظر إليه مثلاً يزعم أن المذهب الجديد في الأدب ليس في حقيقة الأمر إلا نتيجة لضعف في اللغة والأدب العربي وقوة في اللغة والأدب الأجنبي... وأن الذين يزعمون أنهم من أنصار المذهب الجديد إنما هم قوم ضيعوا حظهم من لغة العرب وآدابهم ، وأخذوا بنصيب موفور من لغات الفرنج وآدابهم ؛ فكانت قوتهم في هذه اللغات والآداب وضعفهم في اللغة العربية وآدابها مصدر تورطهم في فنون سخيفة من القول ، وكان اعتزازهم بالمذهب الجديد وإنكارهم للمذهب القديم ضرباً من الاعتذار لأنفسهم ولوناً من ألوان الغرور بأنفسهم أيضاً . . . نعتقد أن الأستاذ الرافعي مسرف في هذا الحكم . ولعل مصدر إسرافه في هذا الحكم ، إن صححت نظريته السابقة ، أنه أخطأ فهم ما يكتب أنصار المذهب الجديد . وهو إنما أخطأ الفهم لأنه أخطأ الذوق ، أو هو إنما أخطأ الذوق لأنه أخطأ الفهم . وتستطيع أن تدور مع الأستاذ الرافعي حول الذوق الذي هو الفهم أو حول الذوق الذي ليس هو الفهم ، والفهم الذي ليس هو الفهم حتى تتعبا فتسقطا

معاً ، وقد بلغ منكما الكلال والإعياء . ولكن الأستاذ الرافعي معذور على كل حال ؛ فما كان له أن يحكم فيحسن الحكم دون أن يفهم ويدقق . وهو قد يخطئه الفهم والذوق أحياناً فتمخطئه الإصابة في الحكم . ونظن أن للأستاذ الرافعي حظاً من الإنصاف ، وأنه يرى معنا أن بعض أنصار المذهب الجديد ، أو الذين يسمون أنصار المذهب الجديد ، قد أخذوا من اللغة العربية وآدابها بحظ لا بأس به ، وأن قوتهم في اللغة الأجنبية وآدابها لم تحملهم على أن يضيعوا حظهم من اللغة العربية وآدابها ؛ فهم يستطيعون أن يفهموا الجاحظ كما يستطيعون أن يفهموا « فولتير » . وإذا فانتصار هؤلاء للمذهب الجديد ليس ضعفاً وليس اعتذاراً لأنفسهم وليس تعصباً للأدب الأجنبي الذي تفوقوا فيه . وما نظن أن الأستاذ ينكر على خصمه سلامة موسى أنه يفهم الأدب العربي كما يفهم الأدب الإنكليزي ، ويستطيع أن يحكم فيهما عن فهم هو الذوق أو ذوق هو الفهم أو فهم ليس ذوقاً أو ذوقاً ليس فهماً . . . وما نظن أن الأستاذ ينكر علينا نحن أنا نستطيع أن نفهم الأدب العربي وأن نفهم الأدب الفرنسي ، وأن نحكم فيهما أحياناً عن ذوق وفهم ، أو عن فهم دون ذوق ، أو عن ذوق دون فهم . . . ثم هب سلامة موسى وغيره من خصوم الأستاذ الرافعي وأنصار المذهب الجديد ضعافاً في اللغة العربية وآدابها ، أقوياء في اللغات الأجنبية وآدابها ، فهناك قوم ينصرون المذهب الجديد وليس لهم من اللغات الأجنبية وآدابها حظ ، وحظهم من اللغة العربية وآدابها موفور تدل عليه آثارهم وما ينشرون ، فما رأى الأستاذ في هؤلاء ؟ وما أصل مذهبهم الجديد وهم يجهلون اللغات الأجنبية ولا يتعصبون لها ؟ ثم مالنا نذهب بالأستاذ بعيداً عن الموضوع الذي أتقنه وبرع فيه ! فلسنا نشك في أن الأستاذ أتقن الأدب العربي وأحسن روايته وفهمه وتقليده وأسرف في هذا التقليد ، وهو يناقض نفسه بعض المناقضة فيصرح بأن العرب عرفوا القديم والجديد ؛ فكان القرآن الكريم جديداً ، وكانت الآداب العباسية جديدة من بعض وجوهها ، وتجددت الآداب العربية غير مرة . يصرح بهذا ، ولكنه في الوقت نفسه يزعم أن أحداً من العرب وأدبائهم لم يذكر مذهباً جديداً ولا قديماً . وإذا فقد تجددت العربية غير مرة دون أن يشعر العرب بهذا التجدد ، أو شعر العرب بهذا التجدد دون أن يذكره . والحق أن الآداب تجددت غير مرة ، وأن العرب شعروا بهذا التجدد ، وأنهم ذكروه

واختصموا فيه كما يختصم فيه الأستاذ الرافعي وأصحابه الآن . وقد كتبنا في هذا المكان من « السياسة » فصولا طويلا في العام الماضي فصلنا فيها بعض ما كان من الخصومة بين أنصار القديم وأنصار الجديد أيام بنى العباس . وإذا كان العرب لم يصطنعوا لفظ « المذهب الجديد » و « المذهب القديم » فليس ذلك دليلا على أنهم لم يعرفوا القديم والجديد ولم يذكروهما ولم يختصموا حولهما . وما معنى لفظ « البديع » ؟ وهل كان البديع جديدا أم كان قديما ؟ وهل اختصم الناس حول البديع أم قبلوه دون مناقشة ولا جدال ؟ وهل امتاز بالبديع من الكتاب والشعراء قوم غلوا فيه فرضى عنهم قوم وأنكرهم آخرون ، أم قبله الناس جميعا وأخذوا منه بحظوظ متساوية ؟ وإذا كان الأستاذ لا ينكر أن العرب اختصموا حول القديم والجديد في الشعر وفي النثر ، فهل يستطيع أن يعلل لنا هذا الاختصام ؟ فليس من شك في أن أنصار الجديد من العباسيين مثلا لم يكونوا ضعافا في اللغة العربية وآدابها ، ولم يعتذروا لأنفسهم عن هذا الضعف بتعلقهم بالجديد وغلوهم فيه . أكان أبو نواس ضعيفا في اللغة العربية وآدابها ؟ أكان أبو تمام ضعيفا في اللغة العربية وآدابها ؟ أكان المتنبي ضعيفا في اللغة العربية وآدابها ؟ ومع ذلك فقد جدد أبو نواس وانتصر للجديد ، وقد جدد أبو تمام وانتصر للجديد ، وقد جدد المتنبي وانتصر للجديد . وقد اختصم الناس حول هؤلاء الشعراء وتجديدهم ، فانتصر لهم قوم وسخط عليهم قوم آخرون . ونستطيع أن نؤكد للأستاذ الرافعي أن الأدباء الفرنسيين الذين كانوا يختصمون حول القديم والجديد كانوا يفهمون اللاتينية واليونانية وآدابها كما يفهمون الفرنسية وآدابها ، وكان منهم مع ذلك من يؤثر اللاتينية واليونانية ، ومنهم من يؤثر الفرنسية ، وكان منهم من يؤثر مذهب القدماء ، ومنهم من يؤثر مذهب المحدثين . فليس المذهب الجديد قائما على جهل أو ضعف أو تعصب ، وإنما هو قائم على شيء آخر غير هذا كله : قائم على الفهم قبل كل شيء ، قائم على أن الذين ينصرون هذا المذهب الجديد يحسون ما لا يحسه أنصار المذهب القديم ، ويرون ما لا يراه أنصار المذهب القديم ، ويشعرون بأنهم يحيون فيريدون أن يأخذوا بحظهم من الحياة ، يريدون أن يفهموا الناس وأن يفهمهم الناس ، يعيشون مع الجيل الذي هم فيه دون أن يقطعوا الصلة بينهم وبين الأجيال الماضية .

ورأى آخر للأستاذ الرافعي يحسن أن تناقشه ولو قليلا . فهو يرى أن من

الخير لأنصار المذهب الجديد أن يولموا من جديد وأن يتعلموا الأدب العربي من جديد ، ليأخذوا منه بالحظ الوفور فيسلوكوا فيه سبيل القدماء ، ذلك خير لهم من أن ينتحلوا مذهبهم الجديد ولغتهم الجديدة فيدخلوا في اللغة والأدب ما ليس من حقهم أن يدخلوه . ذلك لأن اللغة موروثه وهي ملك للملايين من الأعمار ولطائفة طويلة من العصور ، فيجب أن نقبلها كما ورثناها دون أن ندخل فيها شيئاً من عند أنفسنا .

ونحن نعترف بأننا نخالف الأستاذ كل المخالفة في هذا الرأي ، ونسمح لأنفسنا بأن نراه عقياً ، ونسمح لأنفسنا بأن نزعم أن لنا في هذه اللغة التي نتكلمها ونتخذها أداة للفهم والإفهام حظاً يجعلها ملكاً لنا ، ويجعل من الحق علينا أن نضيف إليها ونزيد فيها ، كلما دعت إلى ذلك الحاجة أو قضت ضرورة الفهم والإفهام ، أو كلما دعا إليه الظرف الفني ، لا يقيدنا في ذلك إلا قواعد اللغة العامة التي تفسد اللغة إذا جاوزناها . فليس لأحد أن يمنعك أو يمنعني أن نضيف إلى اللغة لفظاً جديداً ، أو ندخل فيها أسلوباً جديداً ، ما دام هذا اللفظ أو هذا الأسلوب ليس من شأنه أن يفسد أصلاً من أصول اللغة أو يخرج بها عن طريقها المألوفة . ولولا هذا وأن اللغة ملك لأبنائها يضيفون إليها ويدخلون فيها لما نمت اللغة وعاشت ، ولما استطاعت أن تفي بحاجات أهلها التي تتجدد وتتغير بتجدد الأزمنة وتبدل الظروف . والكتّاب والشعراء في كل عصر وفي كل مكان يضيفون إلى لغاتهم ويدخلون فيها ويجددونها ، فمنهم من يسعد الحظ فزوج ألفاظه وأساليبه وبقبلها الناس وبتألفها عليها حتى تشيع وتصبح جزءاً من اللغة المألوفة ، ومنهم من يخطئه هذا الحظ فلا يحفل الناس بما أدخل ولا بما أضاف .

وما يحسن أن ننبه إليه الأستاذ الرافي في رفق ولين أيضاً أنه يسرف في سوء الظن بأوروبا وأمريكا وفي سوء الحكم عليهما . ولعل مصدر ذلك أنه لا يقرأ لغة أوروبا وأمريكا ولا يفهمها ولا يتذوقها ؛ فهو يخطئ في الحكم على أوروبا وأمريكا ، وهو مسرف حين يظن « أن في أوروبا وأمريكا من الغفلة مذهباً ، ومن الرقاعة مذهباً ، ومن تسفل الشهوات مذهباً ، ومن الجنون مذهباً ، ومن كل شذوذ مذهباً ، ومن غير المذهب مذهباً . . . » . وهو مسرف في ذلك ؛ فليست أوروبا وأمريكا من السوء بحيث يظن . ولو قد بلغنا من السوء هذا الحد

لما كان لهما التفوق على غيرهما من بلاد الله .

ثم إن اختلاف المذاهب وتنوعها في أوربا وأمريكا ليس شيئاً جديداً ، وإنما هو شيء عرفه الإنسان منذ تحضر ومنذ فكر . ويسرنا أن نقول إن الإنسان قد عرف الديانات منذ تحضر ومنذ فكر أيضاً . فما استطاعت الديانات أن تقضي على اختلاف المذاهب ، ولا استطاع اختلاف المذاهب أن يقضي على الديانات وإنما الإنسان إنسان فيه الخير وفيه الشر ، وفيه الإيمان وفيه الإلحاد ، فيه الفضيلة وفيه الرذيلة ، فيه الإباحة التي لا حد لها وفيه التحرج الشديد . والأستاذ الرافعي كغيره من أنصار المذهب القديم مشفق كل الإشفاق على القرآن الكريم وعلى الإسلام أن يصيبهما من المذهب الجديد شر أو يئاهما ضيم . ونظن من السخف والإطالة التي لاتجدي أن نهوّن على الأستاذ ونهدئ من روعه ، فليس ما يدعو إلى هذا الإشفاق . ونظن أننا ، ونحن من أنصار المذهب الجديد المتشددين في نصره ، نستطيع أن نفهم القرآن الكريم ونذوقه كما يفهمه الأستاذ وأصحابه ويذوقونه . ذلك أن مذهبنا الجديد لا يقتل اللغة ولا يصرف الناس عنها ولا يغير من أصولها وقواعدها ، وإنما يريد أن تكون اللغة حية نامية . ومن ذكر الحياة والنمو ، فقد ذكر التطور ، ومن ذكر التطور وآمن به فهو من أنصار المذهب الجديد ، سواء أرضى ذلك أم أنكره .

القديم والحديد

نريد أن نفرغ من مسألة القديم والحديد . وهل من سبيل إلى أن نفرغ من مثل هذه المسألة ؟ فقد رأينا في فصل مضى أنها مسألة تلازم الأمم الحية ، وتلازمها لأنها حية ؛ إذ كانت الحياة بطبيعتها تطوراً وكان التطور بطبيعته انتقالاً من حال إلى حال ، وكان هذا الانتقال نفسه موجوداً للخلاف بين جديد طارئ وقديم زائل . فليس للجديد بد من أن يجاهد ليظهر ويستأثر بالحياة ، وليس للقديم بد من أن يجاهد قبل أن يزول ويفقد سلطانه على النفوس . فما دامت هناك حياة فهناك قديم وجديد ، وجهاد بين القديم والحديد ، وأنصار للقديم وأنصار للجديد . وكما أننا مضطرون بحكم الحياة إلى أن نخضع للتطور ، فنحن مضطرون بحكم التطور نفسه إلى أن نحتمل الخلاف بين الذين يبكون مغرب الشمس والذين يتسمون لإشراقها . وكل ما نستطيع أو كل ما نرجو إنما هو ألا ننفق حياتنا في بكاء على الماضي أو ابتسام للمستقبل ؛ فقد يصرف البكاء والابتسام عن أن ننتفع بتراث الماضي أو نحيا بأمال المستقبل .

أكاد أعتقد أن ليس للقديم أنصار ، أي أن أنصار القديم ليسوا مخلصين في نصرهم للقديم ، أو أنهم يخدعون أنفسهم حين يظنون أنهم ينصرونه . ذلك أن هؤلاء القوم يحيون كما يحيا غيرهم من الناس . وثق أنهم ليسوا أقل الناس استمتاعاً بلذات الحياة وليسوا أقل الناس استبشاعاً لما فيها من بشع ، واستعداداً لما فيها من لين . وإذا فهم بين اثنتين : إما أن يكونوا صادقين حين يكون القديم ومحرضون عليه ، فهم يحيون حياتهم كارهين ويأخذون بلذاتها ويحتملون آلامها دون أن يكون لهم في شيء من ذلك رأى . فإن كانوا كذلك فهم خليقون بالرحمة والعطف والإشفاق . وكيف لا ترحم من يحيا راعماً ويلذ راعماً ويألم راعماً ! . وإما ألا يكونوا صادقين في حبهم للقديم وحرصهم عليه ، وإذا فقيم هذا الضجيج والعجيج ، وفيهم إثارة الخلاف وإطالة القول فيما لا يغني ولا يفيد ؛ ذلك أن القديم والحديد ليسا مقصورين على اللغة في ألفاظها ومعانيها أو في أساليبها وتراكيبها ، وإنما هما يتناولان اللغة كما يتناولان

غيرها من مظاهر الحياة المعنوية والمادية . وغريب أنك لا ترى الجهاد عنيفاً ولا تراه يشبه العنيف فيما يمس مظاهر الحياة المادية . فلو أنك طلبت إلى الذين يسرفون في نصر القديم ويمقتون أنصار الحديد ويصفونهم بالكفر، أن يأكلوا ويشربوا ويجلسوا على نحو ما كان يأكل أجدادهم منذ قرون وعلى نحو ما كانوا يشربون ويلبسون ويجلسون لما سمعت منهم إلا إنكاراً، ولما رأيت منهم إلا ازوراراً. ولقد أريد أن أرى بين أنصار القديم أولئك الذين لا يزالون يأكلون ويشربون في الصحاف والأكواب من النحاس والفخار وقد جلسوا على حصير ورفضوا الكراسي رفضاً ، وأبوا أن يستمتعوا بكل ما أتاحت لهم الحضارة الحديثة من أدوات الترف واللذة البريئة . أريد أن أرى هؤلاء ، ولكني يائس من رؤيتهم . ولست أشك في أن من بينهم من يستمتعون في حياتهم الخاصة بأحدث ما اخترعت الحضارة من هذه الأدوات ، على حين لا يظفر من ذلك أنصار الحديد الملحون في الدعوة إليه إلا بالشيء القليل . وسواء علينا أكان أنصار القديم يستمتعون بالحديد راضين أم كارهين فهم يستمتعون به . والأمر على هذا النحو في اللغة وما يشبه اللغة ، فهم مضطرون ، سواء أرادوا أم لم يريدوا ، إلى أن يتحدثوا إلى الناس بلغتهم ليفهمهم الناس . وهم مضطرون إلى أن يسمعو لغة الناس ليفهمهم . وما نحسبهم حين يبيعون أو يشتررون أو يحاورون في عمل من الأعمال يصنعون أساليب رؤبة والعجاج وأشباه رؤبة والعجاج ، إذاً لضحك منهم البائع والشارى والمحاور ، وإذاً لما وقف أمرهم عند ضحك الناس منهم بل لتجاوزه إلى ضياع منافعهم وفساد أغراضهم عليهم . وأنا ضمن لك بعدولهم عن القديم والحديد حين تتعرض منافعهم للخطر وأغراضهم للفساد .

ولسنا في حاجة إلى أن نتكلف في ضرب المثل لشيء من ذلك ؛ فقد قصصت عليك مرة أحادثة « الخرسوس » التي كان يضيفها تلاميذ الأستاذ الشيخ المهدي رحمه الله إلى أستاذهم ، ورأيت أن بائع الشراب لم يفهم « الخرسوس » . ولولا أن الأستاذ فسره له وذكر الخروب وعرق السوس لما شرب ، ولاضطر إلى أن يحتمل آلام الظمأ حتى يجد ساقياً خبيراً بفن النحت وما إليه من ضروب التصريف . نصر القديم إذاً ضرب من التكلف ، وربما كان نوعاً من البدع ، يقصد إليه أصحابه تزيئاً وتجملاً واختلاباً لألباب طائفة من الناس . فأما أولئك الذين ينصرون القديم عن إيمان واعتقاد ، وينصرونه في العمل كما ينصرونه في القول

فيحيون حياة القدماء ويسIRON سيرتهم ، فإني أبحث عنهم دون أن أجد لهم أثراً
ظاهراً . . . !

على أن هناك قوماً مخلصين في إشفاقهم من الحديد وبكائهم على القديم .
ومصدر إخلاصهم أنهم لا يفهمون الحديد ولا القديم ولا الصلة بينهما ، وإنما هي
الألفاظ تخيفهم وتبعث في نفوسهم عواطف متناقضة ، فيحنون إلى تلك وينفرون
من هذه . وهؤلاء لا يناقشون ، وإنما يبين لهم الأمر على وجهه . ولا نحسب إلا
أنهم مطمئنون حين يعلمون أن أنصار الحديد لا يريدون أن تبدل الأرض غير
الأرض أو أن يخلق العالم خلقاً جديداً .

وليكن موضوع تفسيرنا للعلاقة بين القديم والحديد في هذا الفصل اللغة دون
غيرها من موضوعات الخلاف . وأول شيء نحب أن نسائل عنه هو اللغة نفسها ،
لمن هي ؟ ومن واضعها ؟ ومن الذي ينتفع بها ويصرفها في أغراضه ؟ فإن تكن اللغة
ملكاً لقوم دون قوم ووفقاً على جماعة دون جماعة ، فليس من شك في أن هؤلاء
القوم وحدهم هم أصحاب الحق في أن يصرفوا هذه اللغة في أغراضهم ومذاهبهم ،
فأما غيرهم فليس له إلا أن يقلدهم في ذلك تقليداً لا يتسع للخلاف ولا للتجديد .
أتري إلى المصرى حين يصطنع لغة من لغات الغرب ليس له أن يزيد فيها
ولا أن ينقص منها ولا أن يغير أشكالها وأساليبها ، وإنما الحق عليه أن يذهب في
ذلك كله مذهب أهلها . أفتظن أن حظ المصرى من التصرف في اللغة العربية كمحظه
من التصرف في اللغة الفرنسية ؟ ! ماذا نقول !! يخيل إلينا أننا أخطأنا التشبيه ،
ونحن مضطرون إلى أن نخطيء لأننا لا نجد إلى التشبيه سبيلاً . فنحن نعلم أن
كثيراً من الكتاب والشعراء الأجانب اصطنعوا الفرنسية لغة لنثرهم وشعرهم فأتقنوها كما
أتقنها أهلها المحيرون ، واستباحوا لأنفسهم فيها حقوقاً ليست أقل من حقوق أهلها ،
فأضافوا إليها ألفاظاً اخترعوها وأساليب ابتدعوها ، ولم ينكر الفرنسيون ذلك وإنما قبلوه
وانتفعوا به واتخذوه لهم متاعاً شائعاً . أفتظن أن حق المصرى في اللغة العربية أقل من
حق أولئك الكتاب والشعراء في اللغة الفرنسية ؟ نفهم أنه لا يبدل وحى السماء ، ولكننا
نعلم أن اللغة ليست من وحى السماء ، وإنما هي ظاهرة من ظواهر الاجتماع الإنساني ،
لم يضعها فرد بعينه ولا جماعة بعينها ، وإنما اشتركت في وضعها الأمة التي تتكلمها ،
دون أن تعلم متى وضعها ، ودون أن تستطيع أن تعين لكل فرد من أفرادها أو جماعة من

جماعاتها حظاً من ألفاظها وأساليبها . وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من أن تلاحظ في اللغة : ألفاظها ومعانيها وأساليبها شيئين مختلفين ، كلاهما يجعل تجدد اللغة أمراً محتوماً : الأول أن لنفسية الأمة وحاجاتها والظروف التي تحيط بها أثراً قوياً في تكوين اللغة ، وأن اللغة ليست في حقيقة الأمر إلا أثراً لهذه النفسية والحاجات والظروف . فإذا أردت ألا تتجدد اللغة ولا تتطور فابدأ بنفسية الأمم وحاجاتها وظروفها فقصفها عند حد معين لا تعدوه يتم لك ما تريد . الثاني أن الأفراد يتكلمون اللغة ويصرفونها في أغراضهم وحاجاتهم . ومهما يكن سلطان الجماعة على الفرد ومهما يكن خضوع الفرد للجماعة وفناء شخصيته في مجموعها ، فله حظ من الشخصية يمتاز به عن غيره من الناس . ولهذا الحظ من الشخصية الذي يختلف قوة وضعفاً باختلاف الأفراد وحفظهم من الرقي العقلي أثره في اللغة . فليس لك أن تكلف الشاعر أو الكاتب المجيد أن يصف شعوره وعواطفه وحسه كما يصفها رجل من عامة الناس . وليس لك أن تكلف العالم أن يصف علمه بنفس اللغة التي يتكلمها عامة الناس . فإذا أردت أن تحول بين اللغة وبين التجدد فابدأ بشخصية الأفراد فامحها محوياً تاماً حتى يستوى الناس جميعاً في الحس والذوق والفهم والشعور . فإن تمت لك هذه المساواة وتم لك حرمان الجماعة من التطور فسيتم لك وقوف اللغة عند حد من الجمود لا سبيل إلى تجاوزه . ولكنك تعلم أن هذا غير ميسور ، وأنتك لن تستطيع أن تصل إلى بعضه إلا إذا استطعت أن تقف دورة الفلك واختلاف الليل والنهار . وإذا فلسم للغة بحقها في التطور كما سلمت بذلك للجماعات ، وسلم للأفراد بحقهم في أن يصفوا الشيء كما يرونه ويعبروا عن الشعور كما يجدونه . وإذا سلمت لهم بذلك فأنت مكره على أن تؤمن بتجديد اللغة .

ستقول ولكني إن ذهبت معك إلى هذا الحد فقد حرمت اللغة كل ثبات واستقرار ، وقضيت بأنها تجدد متصل ، وقطعت الصلة بين أمسها ويومها وغدها . ولكنك مسرف في هذا الإشفاق . فكما أن الحياة تطور فالحياة اتصال ، وليس بين أجزاء الحياة فراغ ، وإنما هي انتقال من شيء إلى شيء ، ففيها حركة وفيها ثبات . ولولا ذلك لما كانت للأمم شخصيتها الاجتماعية ، ولما كانت للأفراد شخصيتهم الفردية . وإذا ففي كل شيء من هذه الأشياء الاجتماعية عنصران مختلفان لا قوام لأحدهما بدون الآخر : أحدهما عنصر الاستقرار ، والآخر عنصر

التطور . وقوام الحياة الصالحة لأمة من الأمم أو مظهر من مظهرها الاجتماعي إنما هو التوازن الصحيح بين هذين العنصرين . فإذا تغلب عنصر الاستقرار فالأمة منحطة . وإذا تغلب عنصر التطور فالأمة ثائرة والثورة عرض ، والانحطاط عرض ، كلاهما يزول ليقوم مقامه النظام المستقر على اعتدال هذين العنصرين . في اللغة إذاً قديم لا بد منه إذا أردنا أن تبقى اللغة ، وفيها جديد لا بد منه إذا أردنا أن نحيا ، وأنصار الجديد في اللغة والأدب لا يريدون إلا هذا النوع من الحياة . ليس من الجديد في شيء أن تفسد اشتقاق اللغة وتصريفها وأن تعدى الأفعال بالحروف التي لا تلائمها ، وأن تقلب نظام الجاز وضروب التشبيه ، كل ذلك ليس تجديداً وليس إصلاحاً للغة ولا ترقية لها ، وإنما هو مسخ وتشويه ، ليس أنصار الجديد بأقل كرهاً له من أنصار القديم . وليس من القديم الصالح في شيء أن تتغير الحياة أمامك دون أن تشعر بهذا التغير أو تلائم بينه وبين اللغة . وليس من القديم الصالح في شيء أن تكثر الأشياء المستحدثة التي تصطنعها في كل يوم بل في كل ساعة ، فلا تستطيع أن تنطق باسمها إلا إذا وجدت لها اسماً عربياً ورد في المعاجم اللغوية القديمة . ثم ليس من القديم الصالح في شيء أن تشعر الشعور الذي لم يكن يشعره غيرك من القدماء ، فلا تستطيع أن تصفه إلا على نحو ما كان يصفه القدماء ، فيضطرك هذا إلى أن تمسخ شعورك وتفسده وإلى ألا تكون لغتك مرآة لنفسك ، وإلى أن يكون ما تكتب أو تنظم ضرباً من النفاق . ثم ليس من القديم الصالح في شيء أن تأخذ نفسك بسلوك سبل القدماء في وصف الجمال ، فلا تعرف من فنون الشعر والنثر إلا ما عرفوا ، ولا تضيف إلى هذه الفنون شيئاً جديداً .

ولقد أريد أن أعلم ما الذي ينعني أن أضع قصة تمثيلية إذا وجدت السبيل إلى ذلك ! وهل يحكم على أنصار القديم يومئذ بأنى أدخلت في الأدب العربي فناً لا عهد للعرب الأولين به فأسأت إلى العرب وإلى لغتهم وآدابهم ! . ولست أدري ما الذي ينعني أن أنظم قصيدة قصصية أو أسلك في الشعر الغنائي نفسه مسلكاً غير الذي سلكه العرب في عصورهم الأولى ! ! وهل يحكم على أنصار القديم إذا فعلت بأنى قد خالفت مناهج العرب وأضفت إلى آدابهم ما ليس لهم به عهد فأسأت إلى اللغة وأهلها وعرضتها وعرضت الدين معها للخطر الذي ليس فوقه خطر ! . فأنت ترى أن الذين يضعون مسألة القديم والجديد موضع البحث يحصرون هذه

المسألة في موضع ضيق جداً ؛ فهي لا تتناول الألفاظ وحدها وهي لا تتناول الألفاظ والأساليب والمعاني ، وإنما تتناول مع هذه كلها فنون القول على اختلافها . علينا أن نحفظ بقواعد اللغة ونظمها العامة فلا نفسدها ولا نشوهها ، ولكن لنا أن نتخذ هذه اللغة أداة لوصف نفوسنا وما نجد . وإذا فلنا أن نخضع هذه اللغة لما نشعر ولا نجد ، وأن نمنحها من المرونة ما يمكنها من أن تكون أداة صالحة لوصف ما نشعر وما نجد . وعلى هذا النحو وحده نستطيع أن ننصف أنفسنا وأن ننصف اللغة . ننصف أنفسنا فلا نحرمها التعبير عما تجد ، ولا نضطرها إلى النفاق والكذب في هذا التعبير . وننصف اللغة فلا نضطرها إلى الانحطاط والجمود ، ولا نضطرها إلى الاضطراب والاختلاط . ولست أدري كيف يستطيع أنصار القديم في اللغة أن يجدوا في مثل هذا النحو بدعاً من القول ، أو أن يجدوا فيه وسيلة إلى أخذ أصحابه بتعمد الإساءة إلى اللغة والدين !

لغتنا الرسمية منذ نصف قرن

لن نجد في هذا الحديث ظرف أبي نواس ولا دعابته ، ولا أثراً أدبيّاً من هذه الآثار التي تعودت أن أتحدث فيها إليك . ولكنك ستجد فيه شيئاً له قيمته وخطره ، وربما كان أعظم قيمة وأجل خطراً من ظرف أبي نواس ودعابته . ذلك لأنه يمسننا ويمسننا من قريب جداً . ولاتظن أنه يمسننا من حيث اللغة الرسمية وحدها ، فهو يمسننا من ناحية أخرى ، من ناحية الآثار المصرية والعناية بالآثار المصرية . ولقد حدثتلك ذات يوم عن لغة الحجاز ، واتخذت منشور صاحب الجلالة الهاشمية فيما بينه وبين مصر من خلاف نموذجاً لهذه اللغة الحجازية . أما اليوم فأحدثتلك عن لغتنا نحن الرسمية ، وأتخذ نموذجاً لهذه اللغة نصوصاً ثلاثة ، صدر أحدها عن أمير مصر سعيد باشا ، وصدر الثاني عن ناظر خارجيته ، وصدر الثالث عن البطر كخانة القبطية بالقاهرة . ولست أفسر هذه النصوص ، ولا أعلّق عليها ؛ فهي تفسر نفسها وتشهد بالشأو البعيد الذي قطعته لغتنا الرسمية الآن ، على ضعفها وسوئها ، في الرقى والبراءة من الفساد . تشهد بذلك وتدعو كتابنا وأدباءنا إلى ألا يملكهم السأم والغیظ حين يقرءون ما يصدر عن دواوين الحكومة المصرية في هذه الأيام . فإن ما يصدر عن دواوين الحكومة المصرية في هذه الأيام قد يكون من آيات البيان العربي بالقياس إلى ما كان يصدر عنها منذ نصف قرن . ولكنني أحب قبل أن تقرأ هذه النصوص أن تعرف موضوعها .

مرقس بك كابس عالم مصرى قبطى ، ولد في طهطا سنة ١٨٣٠ ونال من روما شهادة الدكتوراه في الفلسفة والعلوم الدينية سنة ١٨٥٧ وعاد إلى مصر ، وكان يريد أن يكون قسيساً كاثوليكياً ، ولكنه عدل عن هذا واشتغل بالحياة المدنية ، فعين سنة ١٨٦٣ أميناً مساعداً بالمتحف المصرى في بولاق ومفتشاً للبحث عن الآثار ، ثم اعتزل هذا العمل سنة ١٨٧٥ وعمل في تصفية بيت المال . ثم توفي سنة ١٩٠٥ ، وكان عضواً بالمجمع العلمى المصرى وترك آثاراً قيمة في الهيروغليافية والقبطية ، قد نعرض لها في غير هذا الحديث .

فلما اختير للعمل في المتحف المصري أراد أن يزور الأديار ويطلع على ما فيها من الكتب والآثار ، وسعى له « مريت » في ذلك عند الأمير ، فصدر الأمر إلى ناظر الخارجية بأن يتكلم في ذلك إلى البطر كخانة . ثم صدر من الأمير منشور إلى مديري الأقاليم ونظار محطات السكك الحديدية والمشرفين على السفن النيلية ، يطلب إليهم أن يعينوا هذا المفتش ويسروا عليه اقيام بما كلف به من البحث عن الآثار . وإليك هذه النصوص ، فاقرا واضحك ، وتدبر وتبين منها أن عناية المصريين بالآثار المصرية وتفوقهم فيها كان لهما منذ جين شأن ليس لهما الآن. ثم تقدم معي بالشكر إلى هذا الصديق الذي لا أسميه والذي تفضل على « السياسة » بهذه النصوص الثلاثة .

طه حسين

إعلان إلى مديرون الأقاليم قبلى وبحرى ونظار محطات السكة الحديد وأمور وابورات بحر النيل .

رافعه مسيو كاييز جرى انتخابه بمعرفة مأور الأتيقة لضرورة الاطلاع على الكتب والآثار الموجودين بالديورة القبطية الكائنة على شاطيء النيل والديورة التي بالصحراء والمأور الموى إليه التمس بواسطة ديوان الخارجية صدور إعلان من لدنا بإعطاء ما يازم من الجمال وما يازم للمشالات والأنفار الكفاية لأجل مساعدته على هذه المأورية المتوجه لها . وحيث وافق إرادتنا تعيينه لما ذكر واعطاه ما يازم من المديرات من جمال أو أنفار أو ركائب لتوصيله من أى جهة إلى الجهة التي يقصدها بالقطر المصرى قبلى وبحرى ثم إذا كان قاصداً جهة من لزوم هذه المأورية ويكون وابور قائم من وابورات السكة الحديد أو البحر فيجرى نزوله وتوصيله فقد أصدرنا هذا الإعلان وعطى له بيده الاعتماد الاجرى بموجبه في الجهات التي يمر بها داخل الحكومة كما اقتضته إرادتنا .

نختم

محمد سعيد

٤ جاسنة ٧٨

نمرة سايرة ٥٧

صورة أمر وارد من سعادة أفندم الباشا ناظر أمور خارجية تاريخه ٢٣ سنة ١٢٧٨ نمرة ٣٠ خطاباً إلى وكيل بطرخانة الأقباط أن مدير الآثار التاريخية المعين منقرف سعادة أفندينا ولئى نعم الخديوى الأعظم أنهى للأعتاب الخديوية أنه بحسب اقتضى المصلحة ينبغى مشاهدة كافة الديورة القبطية الموجودة بالقطر المصرى

التابعة إلى الطائفة رئاسة جنابكم إنكان على شواطئ بحر النيل المبارك أو بالصحراء لأجل الاطلاع على الكتب الموجودة بها والآثار القديمة . وبناء على التماس المولى إليه صدر لنا النطق السامى بمكاتبة محبتكم عن هذه الخصوص لكى أن تحرروا من طرفكم إعلانات عمومية لكافة رويسا الديورة أن يرخصوا إلى مسيو كابيز الذى تعين لهذه المأمورية بالاطلاع على الكتب والآثار القديمة التى توجد بالديورة رياستهم . فلذا اقتضى تحريره لجنابكم نؤمل بوصوله لطرف محبتكم تأمروا من يلزم بتحرير الإعلانات اللازمة وترسلوها لطرفنا بمكاتبة من محبتكم لأجل توصلها إلى المعين فى هذه المأمورية ومأولنا فى جنابكم نجاز ذلك فى أقرب وقته اتباعاً للأمر الكريم .

• • •

من البطرخانة المرقسية بمحروسة مصر إلى جناب المكرم القمص عبد الملك ريس دير العدوى المعروف بالحرق بجبل قسقام بمديرية أسيوط .
الأمر المحرر صورته أعلاه وارد من سعادة أفندم الباشا ناظر أمور خارجية إلى البطرخانتيك عنما تعلقة به الإرادة السنية من جهة البحث عن الآثار التاريخية وأنه صدر النطق السامى بتعيين المسيو أكابيز لمروره على كافة الأديورة القبطية والاطلاع عليها يوجد بهم باطلاعكم عليها حواه الأمر المشار إليه تفهمنون الكيفية . وحيث أنه فرض واجب نفاذ ما تعلقه به الإرادة الداورية فاقضى تحرير هذا من البطرخانة إعلاناً لكم لكى بقدم حضرة المسيو المولى إليه بلجهة طرفكم تقابلوه بمزيد الإكرام وتقديم واجبات التبجيل والاحترام وتمروا معه على محلات الدير بطرفكم وكلما أراد الاطلاع عليه وآثارات أو كتب تطلعوه عليه بحسبما يرغب بدون تمنع . ومن كون الغرض هو الاطلاع والمعاينة فقط كمنطوق الأمر فن بعد مطالعته عليها يصير الاطلاع عليه يصير إعادته وحفظه بمحله كما كان . وإنما الأمل تبدلون فى ذلك غاية جهدكم وتشمروا عن ساعد جدكم فيما يلزم نجازته حتى يعود شاكر لحسن مرآكم والمخدور أن يحصل قصور من طرفكم يوجب للامتكم معاذ الله تعالى .

ختم

من البطرخانة المرقسية بمصر

الشيخ محمد المهدي

يكفي أن تكون على حظ من الوفاء لتشعر بأن في فقد الأساتذة شيئاً من اليم كهذا الذي يجده الناس في فقد الآباء . لأن في الصلة بين الأستاذ وتلميذه شيئاً من الأبوة والبنوة يختلف قوة وضعفاً باختلاف ما للإستاذ من تأثير في نفس التلميذ . ولقد رأينا تلاميذ فتنوا بأساتذتهم وأحبوهم حباً لا حد له . فليس عجباً أن يحزن كثير من شباب مصر وشيوخها هذا الأسبوع لأنهم فقدوا أباً لهم كانوا يحبونه ويميلون إليه ميلاً شديداً ، هو الأستاذ الشيخ محمد المهدي رحمه الله .

لست أعرف تفصيل حياته ، ولكني أعرف أن تلاميذه لا يكادون يحصون ، وأنه من أبعد الأساتذة أثراً في الحياة المصرية الحاضرة . فقد علم في دار العلوم ، وفي الجامعة ، وفي مدرسة القضاء الشرعي أعواماً طويلاً ، وانتشر تلاميذه في أقطار مصر ، وتناولوا فروعاً مختلفة من حياتنا العلمية والعمالية . فكثير جداً من المعلمين — ولا سيما الذين يعلمون اللغة العربية وآدابها — درسوا على الأستاذ ، وكثير جداً من القضاة والمحامين الشرعيين درسوا عليه ، وكثير جداً من الموظفين في الحكومة وغير الموظفين اختلفوا إلى دروسه في الجامعة زمناً طويلاً أو قصيراً . وكل هؤلاء تأثر بالأستاذ ، واستفاد من دروسه ، وكل هؤلاء اجتهد في أن ينتفع ما استطاع وفي أن يستغل ما أخذ عن الأستاذ .

ولست أعرف نوعاً من أنواع الدرس أظهر أثراً في نفس التلميذ من دروس الآداب على اختلافها . فلا يكاد التلميذ يعنى بفن من فنون الأدب أو لون من ألوان النظم والنثر حتى يظهر أثر ذلك في حديثه وتفكيره بل في حياته العملية أيضاً . وربما كان من اللذيد الممتع أن يختص باحث بدرس ما أحدثت في حياتنا العقلية والذوقية آداب العرب الجاهليين والإسلاميين والعباسيين منذ عنيينا بدرسها درساً مفصلاً في هذا العصر الحديث . ومالنا نتكلف البحث عن ذلك ونحن نستطيع أن نجده ظاهراً كل الظهور إذا قارنا بين ما كان يكتبه وينشئه الكتاب والشعراء المصريون منذ ثلاثين أو أربعين سنة ، وما يكتبه وينشئه الكتاب

والشعراء في هذا العصر الذي نعيش فيه بعد أن درست الآداب العربية القديمة درساً لا يزال ناقصاً نقصاً شديداً ، ولكنه جليل الخطر بالقياس إلى ما كان عليه علمنا بهذه الآداب قبل أن تنشأ دار العلوم والجامعة ومدرسة القضاء ، وقبل أن تدخل دراسة الآداب في المدارس الثانوية .

ستقول : ولكن رقى الشعر والنثر كغيره من ضروب الرق التي يمتاز بها هذا العصر ليس مقصوراً على درس الآداب العربية . ولست أجادلك في ذلك لأنني مقتنع به . ولكنك لن تجادلني في أن حظ الآداب العربية في هذا الرق أعظم وأظهر من أن يكون موضعاً للشك أو الجدل . فأستاذ الآداب العربية ، ولا سيما في المدارس العالية كدار العلوم والقضاء والجامعة ، بعيد الأثر كما قلنا في تكوين الشباب المصري . وكان الأستاذ الشيخ المهدي رحمه الله أستاذاً في هذه المعاهد الثلاثة جميعاً . ولولا أن الناس على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم في شغل عن كل شيء هذه الأيام بالأزمة السياسية والانتخابات وما إليها ، لما مر موت الأستاذ رحمه الله كما مر دون أن يشعر به إلا نفر قليل . نعم ! لولا أن هذه الأزمة السياسية أحدثت شيئاً غير قليل من اختلال التوازن في حياتنا العامة وفي حياتنا الفردية لما سكت الكتاب والشعراء من تلاميذ الأستاذ على هذا الخطب العظيم قد نزل بهم حين لم يكونوا ينتظرونه ولا يخشونه . فقد كان الأستاذ الشيخ مهدي من الصحة والقوة بحيث ما كان أحد يخشى عليه هذا الموت الذي عاجله فأراحه من آلام هذه الحياة وأورث تلاميذه وأبناءه ألماً مبرحاً وحزناً شديداً .

لم يكن الأستاذ الشيخ مهدي كاتباً ، ولم يكن شاعراً ، وإنما كان أديباً ، أو قل كان أستاذاً من أساتذة الأدب . ولقد أريد أن أترك منه في هذه الكلمة صورة قريبة من الصدق . أريد أن أكون مؤرخاً لا مداحاً ولا رائيماً وأشعر بأن عمل المؤرخ في مثل هذا المقام ليس بالشيء السهل .

لم يكن الشيخ محمد مهدي من أنصار القديم ، ولكنه لم يكن من أنصار الحديد وإنما كان وسطاً بين هاتين الطائفتين . كان يزدري أنصار القديم ويغلو بعض الشيء في ازدرائهم ، وكان يراهم خطراً على الرق العقلي وعلى الحياة الصالحة . كما أنه لم يكن يحب الغلاة من أنصار الحديد ، بل كان يتبرم بهم كثيراً ويراهم خطراً على الحياة الاجتماعية والدينية بنوع خاص . كان شديد الإعجاب بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وبعض تلاميذه ، بل كان إعجابه هذا لا حد له ،

وكان سبباً من أسباب قصوره عن إدراك الحياة ، فكان ينحيل إليه أن المثل الأعلى من الرقى العقلي ومن الحرية العقلية إنما هو ما وصل إليه الشيخ محمد عبده ، وأن الذين ينحرفون عن طريق الأستاذ الشيخ محمد عبده إلى ناحية الجمود كالذين ينحرفون عن طريقه إلى ناحية التقدم خطرون على الحياة الاجتماعية والدينية والعقلية. أولئك يؤخرونها ، والتأخر شر ، وهؤلاء يشون بها ، واللوثوب خطر . ثم كان الأستاذ الشيخ مهدي يمثل جيلاً خاصاً من الأساتذة والأدباء ، هو أقرب الآن إلى أن ينتهي ويترك مكانه لجيل من الشبان يخالفه المخالفة كلها . كان قد أدرك ذلك العصر الذي لم تكن فيه حياتنا العقلية والأدبية راقية ولا مرضية ، وكان من الذين ظهر فيهم الرقى الجديد ، فكان معجباً بهذا الرقى مفتوناً به . واحتفظ بإعجابِه هذا إلى آخر أيامه ، فكان يرى نفسه خيراً من غيره ، وكان لا يتكلف الاحتياط في إخفاء ذلك أو الاقتصاد فيه ، وكان أصدقاؤه وتلاميذه الذين يحبونه ويميأون إليه يسمعون منه ذلك راضين بل متفككين . كانوا يسمون له ويستعيدونه ، فإذا انصرف عنهم الأستاذ أعادوا ما سمعوا منه وضحكوا لا ضحك سخرية وازدراء بل ضحك عطف وحب .

كان الأستاذ الشيخ مهدي حاو الحديث خلاً به ، وكان يؤثر اللغة العربية الفصحى ويتكلفها ويتخير منها ألفاظاً غريبة وأساليب شاذة أو غير مألوفة في الأحاديث العادية فكانت مضطراً إلى أن تضحك وأنت تتحدث إليه أو تسمع له ، وكانت هذه مزية من مزاياه . وما أعرف أتي تحدثت إلى الأستاذ أو سمعت له راضياً أو ساخطاً جاداً أو هازلاً دون أن أضحك ويضحك ، ودون أن أغرق ويفرق في الضحك . وانتشرت عن الأستاذ أقاصيص في هذا ، منها الصحيح ومنها المتكلف . فكثير من تلاميذه يتحدثون فيما بينهم أن الأستاذ أتى في يوم من أيام الحر رجلاً من الذين يبيعون الشراب في شوارع المدينة وكان ظمناً ، فأراد أن يشرب وأن يشرب مزيجاً من « الخروب » و « عرق السوس » ؛ فطلب إلى الرجل كوباً من « الخرسوس » ، فوجم الرجل لأنه لم يفهم هذا اللفظ . قال الأستاذ : عجيب ! ما تعرف « الخرسوس » إنه منحوت من الخروب وعرق السوس ! وما أظن أن هذه الأسطورة صحيحة . ولكن لا أشك في أنها تمثل ناحية من نواحي الأستاذ ؛ فهو كان يجتهد دائماً في أن يكون فصيح اللسان عذب اللفظ . وما أنس لا أنس قوله لي — وأظنه تكرر مائة مرة ومرة فقد كان يعيده كلما قدم

إلى « سيجارة » وهم بإشعالها - : « انتظر حتى ألها لك » . وكان على ذلك يكره من غيره التشدد واختراع الألفاظ والأساليب ، ويرى ذلك شيئاً ممقوتاً ويسخر منه في دروسه وبجالسه . أذكر أني كنت أكتب قبل الحرب مقالات في « الجريدة » حول الآداب العربية ، وكنت أذكر لفظ مدرسة الآداب أريد به شيوخ الأدب العربي في مصر ومنهم الشيخ مهدي ، وكنت أناقشهم وأنكر عليهم بعض أحكامهم فكان الأستاذ شديد التبرم بمدرسة الآداب هذه ، وكان لا يترك فرصة تعرض في درس من دروسه في الجامعة دون أن يسخر من مدرسة الآداب ، فكان يقول : « يذكرون مدرسة الآداب . ولست أدري ما معناها ولا أين هي ؟ في أي شارع توجد مدرسة الآداب أو أي حارة ! من عرف ذلك منكم فلينبئني » . وكنت أسمع ذلك فأبتسم ، فإذا انتهى الدرس تصافحنا فضحكك وضحكك ، وفهم كل منا لماذا ضحكك .

وكان في أخلاقه - رحمه الله - شيء من الطفولة ؛ فكان سريع الغضب جداً سريع الرضا جداً ، وكان غضبه حلواً وكان رضاه لذيذاً . ولست أغلو في ذلك ولا أتكلف ؛ فقد كان غضبه حلواً إلى حد أن تلاميذه في دار العلوم القضاء والجامعة - وأنا منهم - كانوا يتعمدون إغضابه لأن غضبه كان يلذهم ، ثم كانوا إذا أغضبوه وأرضوا من غضبه لذتهم أرضوه فرضي ، وكان عذب الرضا . ولقد أذكر أني كنت أثقل التلاميذ عليه في الجامعة ، فما كنت أترك له درساً دون أن أغضبه مناقشة وإثقالاً في المناقشة ، حتى إذا بلغ الغضب أقصاه سكت عنه ، وانتهى الدرس فذهبت إليه . فما أكاد أمد يدي حتى يقبلها راضياً ضاحكاً وقد نسي كل شيء . وأذكر أني أغضبته مرات وتجاوزت في إغضابه الحد المألوف واحتجت إلى أن أترضاه بعد ذلك ، فكان هذا الصلح ينتهي دائماً بغرم يقبله الأستاذ مبهتجاً مسروراً لأنه كان يدعونا إلى الغداء عنده يوم الجمعة . كنا نغضبه وكان يرضينا .

ولست أعرف تلميذاً كان أثقل على أستاذه وأقسى مني على الأستاذ الشيخ مهدي . ولكني لا أظن أن بين تلاميذ الأستاذ من أحبه حبي إياه . كنت قاسياً وكان قاسياً أيضاً . وظهرت هذه القسوة المتبادلة - إن صح هذا التعبير - عنيفة مرتين : الأولى عندما كنت أضع كتاب أبي العلاء وأتقدم لامتحان الدكتوراه في الجامعة المصرية ؛ فقد سمعت له درساً في شعر أبي العلاء ووقع بيني

وبينه خلاف في رأى أبي العلاء في البعث ، زعمت شيئاً وأنكره ، وطالبني بالدليل ولم يحضرنى الدليل في الدرس ، فظهرت مظهر المهزوم ، وسره ذلك وظهر سروره ، فحفظتها في نفسي ، ومضيت في تأليف الكتاب ، حتى إذا وصلت إلى رأى أبي العلاء في البعث تناولت هذا الرأى، وكنت قد قرأت اللزوميات كلها ، وظفرت بما كان يطلب إلى من دليل ، فذكرت ما كان بيني وبينه من خلاف ، وذكرته ذلك في لفظ لا يخلو من الفخر القاسى ، ثم انتصرت عليه ولم أنتصر في رفق ، وكنت أعلم وأنا أكتب أنه سيقراً هذا الكتاب ، وسيكون عضواً في لجنة الامتحان ، وكنت أعرف قسوته وغضبه . ولكنى مضيت ، وقلمت الكتاب وجاء يوم الامتحان ، وكان يوماً مشهوداً . ولعل الذين حضروا الامتحان - وكانوا كثيرين جداً - يذكرون أنى أمضيت في هذا الامتحان ثلاث ساعات ذهب أكثرها في جدال عنيف بين الأستاذ الشيخ مهدي وبينى ، حتى أنكر الجمهور ذلك وسماه . ثم عرف منه بعد ذلك أن اللجنة خلت للمداولة ، وكان رأياها حسناً في الطالب ، وكانت تريد أن تمنحه أحسن ألقابها ، ولكنه أبى الإباء كله ، ووفق لأن اكتفت اللجنة بمنح الكتاب لقب « جيد جداً » بدل لقب « فائق » . وكان سرور الأستاذ بهذا الظفر عظيماً حتى تحدث به في مجالسه . ولكن ذلك لم يمنعه من أن يتكلم في كل الحفلات التى أقامها لى إخوانى طلبة الجامعة وغيرهم بعد هذا الامتحان فيثنى على بما شاء له ظرفه وحبه لتلميذه العنيد .

أما المرة الثانية فقد كانت خطيرة بل خطيرة جداً . عدت من أوروبا بعد أن مكثت فيها أشهراً سنة ١٩١٥ فذهبت إلى درس الأستاذ ، وكنت قد اختلفت في فرنسا إلى دروس أساتذة الآداب الفرنسية ، فقارنت بين درس الأستاذ وبين ما رأيت في فرنسا . ولم تكن المقارنة مرضية، ولكنى نشرت هذه المقارنة في صحيفة أسبوعية هي جريدة السفور. فلم يكدهم يقرؤها الأستاذ حتى ملكه سخط لا حد له وحتى أراد أن ينتقم ، فشكأنى إلى مجلس إدارة الجامعة ، وكنا نتأهب للعودة إلى أوروبا ، وكان من الممكن جداً أن يوفق الأستاذ لجرمانى هذه العودة . وأذكر أن المرحوم علوى باشا دعانى ذات صباح إلى الجامعة فذهبت ، فلما دخلت عليه استقبلنى استقبالا سيئاً جداً ، وكان شديد الحب لى والعطف على ، وقال : « ماذا كتبت عن أستاذك الشيخ مهدي ؟ » قلت : « كتبت رأينى في درس من دروسه » . قال في عنف : « ولكنك تجاوزت مع أستاذك حد الأدب ؛

أذهب فاعتذر إليه وإلا فإن الجامعة لن ترضى منك هذا ، وستكون عاقبة هذا الموقف سيئة جداً . أجبت : ما كنت لأعتذر من رأى أراه ؛ وانصرفت مغاضباً . ولولا أن المرحوم علوى باشا وزملاءه أعضاء إدارة الجامعة كانوا يعطفون على عطفاً شديداً لساءت الحال . ولكن علوى باشا طلب إلى الأستاذ « بهجت بك » أن يجمع بينى وبين الشيخ مهدي ويجهد في الإصلاح بيننا . وجمعنا بهجت بك في دار الآثار العربية . وما كان أيسر الصلح حين اجتمعنا ، ثم ائتلف مجلس إدارة الجامعة وأقر ما كان بيننا من صلح ، وانتهى هذا الخصام الذى تناولته الصحف أكثر من أسبوعين ، كما كانت تنتهى الخصومات بين الشيخ مهدي وبينى بدعوة إلى الطعام .

إني لأذكر هذا كله ، والله يشهد أن قد امتلأ قلبي حزناً حين بلغنى موت الأستاذ . نعم ! إني لأذكر هذا كله والله يعلم ما امتلأ قلبي إلا برأ به وحباً له . والله يشهد ما أضمرت في يوم من الأيام موجدة على الأستاذ أو انصرافاً عنه ، وما كنت في هذا كله إلا مداعباً قاسياً ، وما أحسب أنه كان في هذا كله إلا مداعباً قاسياً أيضاً .

قلت : إن شيئاً من الطفولة كان في أخلاق الأستاذ . ولكنى أقول : إن شيئاً كثيراً من الرجولة كان في أخلاقه أيضاً . فما عرفت أوفى منه بعهد ، ولا أحرص منه على مودة . ولقد عجبت من أمره غير مرة ، فكنت أراه يغير الرأى في كثير من الأشياء ، وكنت أخيل إلى نفسى أنه رجل هوى متأثر بالميل الوقتية أكثر من تأثره بالأراء والعقائد ، إلى أن كانت الأزمة السياسية والفتنة التى انقسم لها المصريون . رأيت أثناء هذه الفتنة مرات كثيرة في ظروف مختلفة حين رجحت كفة وهوت كفة وحين رجحت الكفة الهاوية وهوت الكفة الراجحة ، فما رأيت فيه هذه المرة تغييراً في الرأى أو انصرافاً عن المذهب ، وإنما اضطربت الأمور من حوله ، فال من مال وتلون من تلون ، وظل هو في موقفه ثابتاً لم يتقدم ولم يتأخر ، لم تفتنه السلطة ، ولم يخلبه التصفيق ولم تخفه ألوان الأذى ولقد لحقه منها غير قليل .

كان الأستاذ الشيخ مهدي رجلاً ، ولكنه كان رجلاً خلافاً ، حلو المحضر ، حسن الحديث . ولقد انصرف عنا حين لم نكن نكشى انصرافه . انصرف عنا وكان منا من يكلف به ومنا من لا يسرف في الميل له . انصرف عنا ولكنه ترك في

نفوسنا جميعاً على اختلاف آرائنا فيه صورة حلوة مبتسمة داعية إلى الابتسام ،
فسنذكره كثيراً ، وسنأسف عليه أسفاً شديداً ، ولكننا سنذكره وسنأسف عليه
مبتسمين لأنه كان ابتساماً كله .

ولقد أريد أن أقدم إلى أهله وذوى قريبه أصدق العزاء ، ولكنى أشعر بأن
رجال الأدب العربى كافة وأساتذته بنوع خاص ليسوا أقل من أهله وذوى قريبه
احتياجاً إلى العزاء .

فلتشمه رحمة الله الواسعة ، وليسعد ، فقليل جداً من الناس من يترك في
نفوس أصدقائه وخصومه هذه الصورة الحلوة المبتسمة .

« علم الأخلاق » لأرسطاطاليس

ترجمة الأستاذ أحمد لطفى السيد

بين يدي ديوان عمر بن أبي ربيعة وكتب أخرى تذكر عمر بن أبي ربيعة كنت أقرأها لأني كنت أريد أن أحدثك عن هذا الشاعر في هذا الأسبوع . ولكن حادثاً أدبياً ذا خطر صرفني عن ديوان ابن أبي ربيعة وعن الأغاني وغيره من كتب الأدب ، كما صرفني عن أن أتخذ الأدب موضوعاً للحديث هذه المرة. هذا الحادث هو ظهور « كتاب الأخلاق » لأرسطاطاليس مترجماً إلى اللغة العربية بقلم أستاذنا الجليل أحمد لطفى السيد .

أظن أنك تقرني على أن أدع ابن أبي ربيعة وما يتصل به وأنصرف إلى أرسطاطاليس ومترجمه المصرى هذا الأسبوع ؛ فإن ظهور مثل هذا الكتاب بقلم مثل هذا المترجم ليس من الحوادث الأدبية التي ألفناها أو أتاح لنا الدهر أمثالها في مصر من حين إلى حين .

نحن « مفطومون » كما يقول الفرنسيون من هذه الحوادث الأدبية الخطيرة التي تحدث في البلاد الحية فتهتر لها نفوس الأدباء والعلماء والتي يوشك حدوثها أن يكون قواماً طبيعياً للحياة الأدبية في تلك البلاد .

نحن « مفطومون » من هذه الحوادث ؛ فقد تمر الأعوام وتتلوها الأعوام دون أن يتحدث الناس بأن كتاباً قيماً خليقاً بالخلود قد ألف أو ترجم أو لخص ، وإنما حياتنا الأدبية هادئة فاترة ، أو قل إنها راكدة ، لا تعرف الحركة والاضطراب . نفضر على الصحف السياسية ونتغدى على الصحف السياسية ونتعشى بالصحف السياسية ، حتى لقد سممت عقولنا ونفوسنا وقلوبنا بالصحف السياسية وما في الصحف السياسية . وأنا أعتذر من هذا إلى كتابنا السياسيين سواء منهم الأصدقاء والخصوم ، أعتذر إليهم من هذا التعبير العنيف فإني مضطر إليه اضطراراً بعد أن استأثروا بحياتنا الأدبية استئثاراً يوشك أن يكون تاماً ، فصرفونا أو كادوا يصرفوننا عن كل شيء إلا سياستهم وخصوماتهم ، وإلا ما يتورطون ويورطون

الناس معهم فيه من ألوان الجدل التي ليس لها حد ولا قرار .

إن للبلاد الأخرى حياتها السياسية وما تستتبعه من اضطراب ، قد يشتد حتى يصل إلى العنف بل إلى الثورة . وإن في البلاد الأخرى خصوصياتها الحزبية حول الحكم وما يتصل بالحكم . وإن للبلاد الأخرى ساعات وأياماً من حياتها السياسية ملؤها الفزع الذي يستأثر بالنفوس أو الفرح الذي يستهوي الألباب . ولكن هذا كله لا يصرف الناس في تلك البلاد عن حياة العقل والشعور ولذة العقل والشعور إلى الشهوات السياسية والأهواء السياسية كما يصرفنا نحن في مصر . لقد اضطرب العالم اضطراباً لم يعرف التاريخ مثله ، واستمر هذا الاضطراب أعواماً أزهدت فيها نفوس لا يكاد يبلغها الإحصاء ، وجرت فيها الدماء أنهاراً دون أن تكون في هذا التعبير مبالغة أو غلو ، وآمت فيها نساء ويتمت فيها أطفال واختل فيها التوازن الاقتصادي والخلقي والأدبي اختلالاً لا مثيل له . ولكن هذا كله لم يصرف أوربا ولا أمريكا عن حياة العقل والشعور أو لذة العقل والشعور . ماذا أقول ؛ بل إن هذا كله قد رغب أوربا وأمريكا في حياة العقل والشعور ، ولذة العقل والشعور ، فكثرت التأليف وكثرت الترجمة ، واشتد ما بين الأمم من صلوات ، فحرصت الحرص كله على أن يعرف بعضها بعضاً ويفهم بعضها نفسيات بعضها الآخر . وما أحسب أن الأمم تعاونت على الحياة العقلية والشعورية في عصر من العصور كما تعاونت عليها أثناء الحرب الكبرى .

أما نحن فسل عن حيننا للحياة العقلية وعن عنايتنا بها قبل الحرب وأثناء الحرب قبل الثورة وأثناء الثورة ، ونبتنى عن نتيجة هذا الحب وهذه العناية ، فلن نجد شيئاً تنبئني به إلا أنك خجل مثل هذه الجهود المضنية في غير نفع ولا غناء . أليس غريباً أن تضطرب مصر اضطرابها هذا دون أن يكون لهذا الاضطراب أثر علمي أو أدبي يخلده التاريخ ؟ أليس غريباً أن يكون وقت الثورة الفرنسية هو أشد عصور فرنسا خصباً وأعظمها ثروة من الوجهة العلمية والأدبية والفنية والسياسية على ما امتلأ به هذا الوقت من هول ، وأن تكون ثورتنا أشد الثورات جذباً وفقراً وضيقة ؟ نعم ! هذا غريب ! ولكنه مع ذلك شيء واقع لا سبيل إلى الشك فيه ، ولا خير الآن في البحث عن أسبابه ونتائجه .

تستطيع أن تلقى من شئت أين شئت ومتى شئت ، فلن يكون الحديث بينكما إلا في السياسة وما نشرت الصحف السياسية من أنباء وما امتلأت به من جدال

وخصوصة . فأما العلم ، فأما الأدب ، فأما الفن ؛ فكل ذلك شئ لن تعرضا له في حديثكما إلا إذا اضطررتما إليه اضطراراً ، وما أحسب أنكما تضطران إليه .

فإذا كانت هذه حالتنا ، وإذا كنا قد بلغنا هذا الحد من الإفلاس الأدبي والعلمي والفني ، فليس غريباً أن ننظر إلى هذه الحادثة الأدبية التي أتحدث عنها اليوم كما ننظر إلى شئء استثنائي عظيم الخطر . ولم لا يكون استثنائياً ونحن بإزاء مؤلف ليس كغيره من المؤلفين ، ومترجم ليس كغيره من المترجمين ؟ أريد أن أعلم إلى أي مؤلف أو إلى أي عالم أو إلى أي فيلسوف نستطيع أن نقرن أرسطاطاليس ! أما أنا فلست أعرف له نظيراً منذ ظهرت الفلسفة الإنسانية ، وما أعتقد أن أحداً غيري يستطيع أن يجد له نظيراً . ومهما يكن من شئء فأرسطاطاليس هو المعلم الأول حقاً كما سماه العرب ، وهو أبو الفلاسفة حقاً ، وهو زعيم الفلاسفة حقاً وأبناهم سلطاناً وأرفعهم مكاناً وأشدهم ثباتاً للدهر وقوة على الأيام .

وأريد أن أعلم إلى أي كاتب أو إلى أي مفكر أو إلى أي مترجم في مصر أو في الشرق العربي كله نستطيع أن نقرن الأستاذ أحمد لطفى السيد . أما أنا فلست أعرف له نظيراً في الكتابة ولا في التفكير ولا في الترجمة ، وأزعم أن ليس بين المصريين وغير المصريين من يستطيع أن يجد له نظيراً في هذه الوجوه الثلاثة من وجوه الحياة الأدبية : التفكير والكتابة والترجمة .

سمى العرب زعيم الفلاسفة اليونانية المعلم الأول ، وكانوا في ذلك منصفين . وأنا أزعم أن الأستاذ أحمد لطفى السيد معلمنا الأول في هذا العصر ، وأزعم أنى في ذلك صادق منصف ، ومتواضع أيضاً .

لست من الغلو بحيث أقرن الأستاذ لطفى السيد إلى أرسطاطاليس . فأرسطاطاليس هو المعلم الأول للإنسانية الخالدة ، ولطفى السيد هو المعلم الأول لعصرنا هذا الذى نحن فيه . وأين يقع هذا العصر المصرى الضئيل ومكان الأستاذ لطفى السيد فيه ، من حياة الإنسانية الخالدة ومكان أرسطاطاليس فيها ! لست إذاً غالباً ولا مسرفاً ولا مؤثراً لصديقي ؛ فأنت تعلم أن الأستاذ لطفى السيد صديق لى كما أنه صديق للشباب الناهض المفكر كله . وأنت تعلم أن الأستاذ لطفى السيد أستاذ لى كما أنه أستاذ للشباب الناهض المفكر كله . وأنت تعلم أن الأستاذ لطفى السيد قد يحبه قوم وقد لا يحبه آخرون ، ولكن الناس جميعاً يكبرونه ويقدرونه لأنه مفكر قبل كل شئء ، وكاتب قبل كل شئء . وأى الناس يستطيع ألا يكبر الكاتب والمفكر إذا

كان كاتباً حقاً ومفكراً حقاً!

أشهد أن للصدقة حقوقاً ، وأن هذه الحقوق قد تجل في كثير من الأحيان على الإيثار والمحابة وتجاوز الحق ، ولهذا أخرج لأنى أخشى أن يربو الحب والصدقة على الإنصاف في التمدد . ولكنى أكتب عن الأستاذ لطفى السيد في غير تخرج ولا إشفاق ولا خوف من محاباة ، وإنما أخاف شيئاً آخر ، أخاف ألا أفيه حقه من الإنصاف ، ولا أبلغ به ما هو أهل له من الثناء . ولقد أشعر وأنا أملى هذا الفصل أنى لا أكتب عن نفسى ولا عن طائفة قليلة عن أمثالى ، وإنما أصف شعوراً عاماً وعاطفة شائعة في هذا الجيل الذى كان يقرأ « الجريدة » ومقالات الأستاذ لطفى السيد فيها ، والذى كان لا يكاد يقرأ فصلاً من فصول الأستاذ حتى يشعر بأن فى الأدب العربى شيئاً جديداً فيصبو إلى أن يتعرف هذا الجديد ، فإذا هو أمام شخصية قوية خلاصة خصبة محببة إلى النفس قد ملكت عليه عقله واستأثرت بهواه ، وإذا هو يجد فى هذه الفصول لذة لا يستطيع أن يتصرف عنها ولا أن يسلوها ، لذة كلذة الكيف ، إن صح هذا التعبير ، ولكنها لذة تغدو وتفيد ، وإذا هو يقرأ هذه الفصول ويقرأها ، ويحاول أن يتخذ لفظها نموذجاً للكتابة ومعناها نموذجاً للتفكير ، وإذا هو يتجاوز الأستاذ وفصوله إلى الحياة الأوربية الحديثة والتفكير الأوربى الحديث ، وإذا هو من أنصار الجديد فى قصد واعتدال ، وإذا هو من الذين يدعون إلى الإصلاح العقلى ويحرصون عليه ومن الذين يدعون إلى حرية الرأى ويذودون عنها، وإذا هو من الذين يريدون أن يزيولوا هذه الفروق التى كانت تقوم بين العقل الشرقى والعقل الغربى وإذا هو يريد أن تكون مصر العقلية جزءاً من أوروبا العقلية ، ولكن على أن تحتفظ مع ذلك بشخصيتها القومية واضحة قوية .

لقد نستطيع أن نشخص فلسفة الأستاذ لطفى السيد بهذه الخصال :

الأولى أنها فلسفة تجديد وإصلاح ، لا يقومان على هدم القديم ، بل يقومان على تنقيته وتصفيته وتقويته وإزالة ما فيه من أسباب الانحلال والضعف . الثانية أنها فلسفة حرية وصرحة ، ولكن بأوسع معانى الحرية والصرحة العقلية . الثالثة أنها فلسفة ذوق وقصد فى اللفظ والمعنى والسيرة معاً . الرابعة أنها فلسفة كرامة وعزة واعتراف بالشخصية الإنسانية وحمل الناس على أن يعترفوا بهذه الشخصية .

عد إلى آثار الأستاذ لطفى السيد فى الجريدة فاقراها وتدبرها استقصاء ،

ثم انظر إلى الأستاذ وإلى تلاميذه وأصفيائه تجدهم قد أخذوا بحظهم من هذه الخصال ؛ فهم مصلحون ودعاة إلى التجديد ، وهم أحرار ودعاة إلى الحرية ، وهم محبون للذوق حين يفكرون وحين يعملون ، وهم أباء حريصون على الكرامة الفردية والاجتماعية ، لهم لون خاص يمتازون به ويعرفون بين الطبقات المختلفة والأصناف المتباينة من الناس . يتخذهم خصومهم أحياناً هزواً وسخرية ، ولكنهم على ذلك كله يقدرونهم ويتأثرون بخطاهم ويحسدونهم على ما يسخرون منهم من أجله .

إن التاريخ منصف بطبعه ، ولكنه يحتاج إلى وقت طويل ليستطيع أن يصدر حكمه العدل . وليصدرن التاريخ حكمه قريباً . وليشهدن التاريخ بأن مصر مدينة بالشيء الكثير جداً للأستاذ لطفى السيد في نهضتها العقلية والسياسية والاجتماعية ، وليتضمنن التاريخ لطفى السيد إلى صديقيه المصلحين محمد عبده وقاسم أمين .

ولقد أبتسم ابتساماً فيه شيء من الحزن ، وفيه شيء من الأمل أيضاً حين أسمع الاستقلال التام ، وحين أسمع الحرية الدستورية ، وحين أسمع سلطة الأمة ، وحين أسمع أشياء كثيرة أصبحت قوام حياتنا الحاضرة . أبتسم ابتساماً فيه حزن وأمل ؛ لأن هذه الألفاظ وهذه المعاني هي ألفاظ لطفى السيد ومعاني لطفى السيد ، ليس في ذلك نزاع ولا جدال إذا هدأت الأهواء والشهوات واستطعنا أن نكون منصفين .

أبتسم ابتساماً حزن وأمل : حزن لظلم الجيل الذى نحن فيه ، وأمل في إنصاف الأجيال المقبلة . ولكنى لا أذكر الأستاذ لطفى - وأنا أذكره كثيراً جداً - إلا ابتسمت ابتساماً ملؤه الإعجاب والإكبار ؛ لأنى أذكر هذا الذى اندفع في الجهاد السياسى ما كان الجهاد السياسى نافعاً ، حتى إذا عصفت عواصف الحرب وأصبح الجهاد السياسى العلنى مستحيلاً أو كالمستحيل لجأ هذا الرجل إلى زاوية من الزوايا فى غرفة من الغرف ، وأخذ يقرأ المعلم الأول ، ويتحدث إلى المعلم الأول ، ويتبرجم المعلم الأول ، حتى وضعت الحرب أوزارها وهو على اشتغاله بالمعلم الأول يرقب الحوادث من كتب . فلما ظهر أن استئناف الجهاد السياسى ميسور مفيد قال للمعلم الأول : « إلى اللقاء » واندفع فى الميدان السياسى ، فجادده أصدق جهاد وأبلى أعظم بلاء ، حتى إذا عصفت الشهوات الساسية وأحس العقل أن الخير له فى أن يتزوى ويترك الميدان للعاطفة والشهوة ،

انزوى صاحبنا وعاد إلى المعلم الأول يقرؤه ويترجمه ، وإذا نحن أمام كتب أربعة أو خمسة من كتب أرسطاطاليس قد تمت ترجمتها وهي بعضها للنشر ونشر بعضها الآخر ، وإذا أنا الآن مضطر إلى أن أحدثك عن كتاب « الأخلاق » لأرسطاطاليس الذي نقله إلى اللغة العربية الأستاذ لطفى السيد ، وعنى بنشره حين كانت العواصف السياسية تعصف بالمصريين وتبعث بمنافعهم وعقولهم وأخلاقهم عبثاً منكراً .

هذا العمل نفسه ، هذا الانقطاع إلى الفلسفة حين لا تجدى الحياة العملية نفعاً ، وهذا الانصراف عن الفلسفة إلى الحياة العملية حين ينتظر منها النفع العام ، هو الذى يشخص لطفى السيد ويدلنا على أنه رجل خليق بأمثاله المفكرين فى أوربا ، أولئك الذين يتقطعون إلى الحياة العقلية فينفعون وينتفعون ، حتى إذا أحسوا حاجة أوطانهم إليهم قدموا أنفسهم إلى أوطانهم وأدوا واجبهم هادئين باسمين لا ينتظرون على هذا أجراً إلا الشعور بأن حياتهم ليست هزواً ولا حملاً على الجماعة ثقيلًا .

وهل تعرف كتاب « الأخلاق » هذا الذى نقله الأستاذ إلى اللغة العربية والذى أردت أن أحدثك عنه فحدثتك عن مترجمه ؟ هل تعرف خطر هذا الكتاب وقيمه وأثره الخالد فى تاريخ الفلسفة ؟ لو أنى أردت التقرير لقلت إن الكتاب الذى يضعه أرسطاطاليس وينقله لطفى السيد إلى العربية خليق أن يقرأ وينتشر ؛ لأن هذين الإسمين وحدهما يكفيان لإذاعته ونشره ، ولكنى — شهد الله — ما أردت تقريراً ، ولكنى أردت النقد من جهة ، وأردت الحث على العناية بالحياة العقلية من جهة أخرى . يجب أن تعلم أن أرسطاطاليس هو الذى وضع علم الأخلاق ، كما أن أرسطاطاليس هو الذى وضع علم المنطق وعلوم أخرى مختلفة ، وليس معنى هذا أن الناس لم تكن لهم أخلاق ولا منطق قبل أرسطاطاليس ، وليس معنى هذا أن الفلاسفة لم تكن لهم مذاهب فى المنطق ولا فى الأخلاق قبل أرسطاطاليس ؛ فقد أحب الناس الخير وكرهوا الشر منذ فكروا ، وقد كان للفلاسفة مذاهبهم فى العلم والمعلوم وفى الفهم والحكم ، وفى الحياة وغايتها وسيرة الأحياء فيها قبل أرسطاطاليس ، ولكن الذى أريده هو أن أحداً من الفلاسفة لم يسبق أرسطاطاليس إلى تدوين المنطق على أنه علم يدرس ، وإلى تدوين الأخلاق على أنه علم يدرس . كان هناك منطق السوفسطائية ومنطق سقراط

ومنطق أفلاطون، وكان هناك مذهب السوفسطائية ومذهب سقراط ومذهب أفلاطون في الأخلاق . فلما جاء أرسطاطاليس وجد شيء يقال له علم المنطق ، وشيء يقال له علم الأخلاق، وشيء يقال له علم السياسة ، وشيء يقال له علم البيان . كانت تلك المذاهب في المنطق والأخلاق والسياسة والبيان مذاهب شخصية تضاف إلى أصحابها وتطبع بطابعهم . فلما جاء أرسطاطاليس أصبحت هذه العلوم علوماً إنسانية لا فردية ولا مذهبية ، وأصبحت تمتاز بشيئين متناقضين ، فهي شخصية من جهة ، ولا شخصية من جهة أخرى : شخصية لأن شخص أرسطاطاليس أقوى وأظهر من أن يخفى . وأرسطاطاليس له آراؤه ومناهجه ومذاهبه الخاصة . ففلسفته شخصية إذاً تضاف إليه بحق كما تضاف إلى أفلاطون فلسفة أفلاطون ، وهي في الوقت نفسه لاشخصية ، لأن أرسطاطاليس لم يكن يريد أن يسلك في الفلسفة مسلك الذين تقدموه ، وإنما كان يريد أن ينظم جهود العقل الإنساني ونتائج هذه الجهود ، وأن يرسم لهذا العقل سبيله إلى الرقي العلمي والأدبي . وقد وفق أرسطاطاليس فأصبحت فلسفته فلسفة الإنسانية ، وأصبح منطقته بالقياس إلى العقل الإنساني كعلم منافع الأعضاء والتاريخ الطبيعي بالقياس إلى الأجسام ، وأصبحت « أخلاق » أرسطاطاليس و « سياسة » أرسطاطاليس أساساً لهذا العلم الفنى الخصب الذى لم يثر بعد ثمراته الناضجة والذى سيكون له فى الحياة الإنسانية الحديثة أثر قوى بعيد وهو علم الاجتماع .

كل شيء من آثار أرسطاطاليس غريب ؛ فإنك لا تسلك مذاهباً من مذاهبه الفلسفية إلا أحسست فيه شيئين : الأول أن هذا المذهب ملائم للعصر الذى نشأ فيه . والثانى أنه ملائم للعصور الإنسانية على اختلافها . وليس بعض الفرنسيين مبالغاً حين يقول : « لو أن هذه الحضارة الحديثة أزيلت وأريد تأسيس حضارة جديدة لكانت فلسفة أرسطاطاليس أساساً لهذه الحضارة الجديدة » . وفى الحق أن اليونان والرومان عاشوا فى العصر القديم على فلسفة أرسطاطاليس ، وأن الشرق والغرب عاشا فى القرون الوسطى على فلسفة أرسطاطاليس ، وأن أوروبا الحديثة تعيش الآن وستعيش غداً على فلسفة أرسطاطاليس . وأنت تعلم مقدار الاختلاف بين كل هذه الأمم والشعوب الشرقية ، والغربية ، واللاتينية ، والجرمانية ، والسامية ، فى الأمزجة والعادات والنظم والديانات . وهى على هذا الاختلاف كله مشتركة فى أنها عاشت وستعيش على فلسفة أرسطاطاليس .

لا تقل إن أوربا الحديثة قد جددت الفلسفة في جميع فروعها واستحدثت من العلم ألواناً لم يعرفها أرسطاطاليس ، فليس أحد ينكر هذا ، ولكن هناك شيئاً آخر لا شك فيه ، وهو أن تجديد الفلسفة واستحداث العلم لم يبلغ من فلسفة أرسطاطاليس إلا قليلاً وقليلاً جداً ، فما زال علم الاجتماع محتاجاً أشد الاحتياج إلى أخلاق أرسطاطاليس وسياسته . وما زال الذين يدرسون ما بعد الطبيعة محتاجين إلى فلسفة أرسطاطاليس فيما بعد الطبيعة . بل إن المنطق ما زال الآن كما تركه أرسطاطاليس إلا أبواباً أجملها أرسطاطاليس وفصلها المحدثون . العرب إذاً منصفون حين يسمون أرسطاطاليس المعلم الأول ، فهو أول من علم الفلسفة والعلم ، أى هو أول من اتخذها علوماً مستقلة تدرس لنفسها دون الأشخاص وما زال أرسطاطاليس المعلم الأول ما دمنا لا نعرف فيلسوفاً مهما يكن الفرع الذى يختص به من فروع الفلسفة لا يرجع إليه ولا يعتمد عليه . قل إذا هؤلاء الذين يتشددون بالجديد ويتغنونه لأنه جديد ، ويزدرون القديم لأنه قديم ، قل هؤلاء إنهم في حاجة إلى شيء من القصد والتدبر . فليس يفهم الجديد إلا بالقديم ، ولا قيمة للجديد بدون القديم . ثم قل لم إن فلسفة اليونان وآدابهم وفنونهم ليست قديمة ولا يمكن أن تكون قديمة ، وإنما هي أشياء أراد الله لها أن تحتفظ بقوتها ونصرتها وشبابها ما بقى من الدهر وما كان للإنسان عقل وشعور .

على أنى لم أحدثك بعد عن كتاب « الأخلاق » لأرسطاطاليس ، وإنما حدثتك عن المترجم والمؤلف . وماذا تريد أن أصنع ، وأنا رجل يظهر أنى ثرثار بطبعى ! فأنت تعرف المترجم وتعرف المؤلف . وكنت أستطيع ألا أحدثك عنهما ، وأن أحدثك عن الكتاب نفسه ، ولكنى مع ذلك حدثتك عن الرجلين ، فيجب أن تقرأ هذا الحديث وتقبلنى على علائقى . وماذا تريد أن أقول لك عن كتاب « الأخلاق » ؟ يجب أن نلاحظ قبل كل شيء أنى لست بإزاء كتاب واحد ، وإنما أنا بإزاء كتب ثلاثة . نعم ! كتب ثلاثة : كتاب الأخلاق لأرسطاطاليس ، وكتاب آخر هو مقدمة المترجم الفرنسى لهذا الكتاب . وأقول إن هذه المقدمة كتاب لأنه من اليسير جداً أن تطبع مستقلة فإذاً هي كتاب قيم في تاريخ علم الأخلاق والمذاهب الخلقية منذ سقراط إلى القرن التاسع عشر ، وهي تقع في ١٦٦ ص من القطع الكبير . ورسالة للأستاذ لطفى السيد سماها « تصديراً » تناول فيها حياة أرسطاطاليس وكتب أرسطاطاليس ونفوذ فلسفة أرسطاطاليس في

القرون . وأقول إنها رسالة ، وكنت أود أن تكون كتاباً ، فهي تقع في ٥٦ ص من القطع الكبير . وكنت أود أن يتضاعف عدد هذه الصفحات ؛ لأنك تجد حقاً في قراءتها لذة ونفعاً لا تكاد تعلهما لذة ولا نفع .

فأنت ترى أني يلزأ كتب ثلاثة، وهذه الكتب الثلاثة في مجلدين ضخمين ، يبلغ أولهما ٣٢٦ ص ويبلغ الثاني ٣٧٦ ص من القطع الكبير ، دون أن أحسب تصدير المترجم . فكيف تريد أن أحدثك عن هذه المجموعة الضخمة ! ولا سيما إذا كان موضوعها : أرسطاطاليس وفلسفته ومذاهبه الخلقية وتاريخ علم الأخلاق ! وأين أجد المكان في « السياسة » لأحدثك عن هذا كله كما أحب وكما تحب أنت أيضاً ! ولم أحدثك عن هذا الكتاب؟ وهل تظن أني أكتب هذه الأحاديث لتستغنى بها عن قراءة الكتاب والشعراء الذين أتخذهم لها موضوعاً ؟ كلا ! إنما أكتب هذه الأحاديث لأشوقك إلى أن تقرأ هؤلاء الكتاب والشعراء . ولست أعرف شيئاً أدعى إلى عناية الأساتذة وإلى عناية الطلاب وإلى عناية المستنيرين عامة ، من كتاب « الأخلاق » لأرسطاطاليس . وأنا ذاكر لك عنوانات الكتب العشرة التي يتألف منها كتاب « الأخلاق » :

- الكتاب الأول : نظرية الخير والسعادة وفيه أحد عشر باباً .
- الكتاب الثاني : نظرية الفضيلة وفيه تسعة أبواب .
- الكتاب الثالث : بقية نظرية الفضيلة وفيه ثلاثة عشر باباً .
- الكتاب الرابع : تحليل الفضائل المختلفة وفيه تسعة أبواب .
- الكتاب الخامس : نظرية العدل وفيه أحد عشر باباً .
- الكتاب السادس : نظرية الفضائل العقلية وفيه أحد عشر باباً .
- الكتاب السابع : نظرية عدم الاعتدال واللذة وفيه ثلاثة عشر باباً .
- الكتاب الثامن : نظرية الصداقة وفيه أربعة عشر باباً .
- الكتاب التاسع : تابع نظرية الصداقة وفيه اثنا عشر باباً .
- الكتاب العاشر : في اللذة وفي السعادة الحققة وفيه عشرة أبواب .

عدد الصحف وعدد الكتب وعدد الأبواب ، كل ذلك يدل على أننا يلزأ عمل ضخم إذا احتاجت قراءته المتقنة إلى أشهر فقد احتاجت ترجمته إلى أعوام ، وإذا احتاج درسه وتفهمه إلى جهد فقد احتاج نقله وتحقيقه إلى عناء شديد . نعم ! نحن يلزأ عمل ضخم يستطيع صاحبه أن يقول مفاخر إن كان يجب الفخر

أو مطمئناً إلى نفسه إن كان يريد أن يرضى ضميره: إنه لم يضع وقته ولم ينفق حياته في عبث ولا في هـو .

وبعد فلست أعرض لنقد الكتاب نقداً مفصلاً؛ لأن « السياسة » لا تصلح مكاناً لنقد أرسطاطليس ولا لمناقشة آرائه الفلسفية ، وإنما المدارس العليا وحدها هي التي تصلح لهذا النقد . ومع ذلك فقد كنت أريد أن آخذ الأستاذ المترجم بشيئين : الأول أنه نقل الكتاب عن ترجمة فرنسية ، وكنت أود لو نقل عن أصله اليوناني ولكن الأستاذ نفسه يجيب في التصدير بأنه كان يود ذلك أيضاً ، ولكنه لم يدرس اليونانية ، وقد فعل ما استطاع أن يفعل ، وبذل ما استطاع أن يبذل من الجهد لتحري الصواب في ترجمته العربية ، فلم يقتصر على ترجمة فرنسية واحدة بل اعتمد على غير ترجمة . وإذا كان المترجم نفسه يبدأ تصديره بهذا الاعتذار الذي يمثل ما قدّمت في أول هذا الحديث من ذوقه وتواضعه فقد لا يكون من الذوق ولا من التواضع أن نأخذه بما يأخذ نفسه به .

الثاني أن ترجمته العربية كالأصل اليوناني لا تخلو من صعوبة ، ولا يستطيع القارئ أن يمضى فيها مضياً سهلاً ، وإنما هو محتاج إلى شيء من الأناة والتدبر ليفهم . ومصدر هذا هو أن الأستاذ أراد أن يكون أميناً في النقل فبالغ في هذه الأمانة ، وترجم الكتاب ترجمة توشك أن تكون حرفية . وفي هذا النحو من الترجمة مزيتان : الأولى الأمانة التي حرص عليها المترجم بحق والتي ينبغي أن نشكر له حرصه عليها . والثانية أقولها ممازحاً للأستاذ وهي براءته من التبعة ؛ فهو مترجم قد نقل الأصل الفرنسي نقلاً يوشك أن يكون فتوغرافياً . فإذا كان هناك شيء يمكن أن يلاحظ على الكتاب فلا تأخذ به المترجم العربي بل خذ به المترجم الفرنسي . أما المترجم العربي فزعم لك بأن ترجمته عن الفرنسية صحيحة لا تقبل نقداً ولا طعناً . وأنا أيضاً زعيم بصحة هذه الترجمة عن الفرنسية ، وأكاد أثق بأن الترجمة عن اليونانية دقيقة أيضاً وإن كان بعض الذين يدرسون فلسفة أرسطاطليس لا يطمثون الاطمثان كله إلى « برتلمي سانت هيلار » . على أني قدمت لك أن الأستاذ لم يعتمد على هذا المترجم وحده ، وإنما اعتمد على تراجم أخرى ، فقارن وتحري الصواب ما استطاع . ومهما يكن من شيء فإن هذه الترجمة العربية الجديدة لكتاب أرسطاطليس أصح وأدق من أكثر التراجم العربية القديمة التي نقلت أيام العباسيين لا عن اليونانية مباشرة بل عن السريانية التي اشتملت

على أغلاط فألوان من المسخ والتحريف ، ولو رآها أرسطاطاليس لاضطرب لها اضطراباً عنيفاً . أنا زعيم بأن هذه الترجمة العربية الجديدة إن لم ترض علماء اللغة اليونانية من كل وجه فهي مرضية علماء الأخلاق وطلاب الفلسفة كل الرضا . لقد كانت فلسفة أرسطاطاليس أساس النهضة العربية الأولى ، وأساس النهضة الأوربية في العصر الحديث ، ويجب أن تكون أساس النهضة العلمية في مصر الحديثة . ولو أن لي أن أقترح لرفعت هذا الاقتراح إلى رجلين : أحدهما وزير المعارف ، والآخر شيخ الجامع الأزهر ، وهو أن يكون كتاب « الأخلاق لأرسطاطاليس » موضوع درس مفصل دقيق في الأزهر الشريف والمدارس العليا غير الفنية ، فهل يسمع لهذا الاقتراح ؟

- ١ - رد على كتاب
- ٢ - مهلب الأغانى للأستاذ محمد الحضرى
- ٣ - تهذيب الكامل للأستاذ السباعى بيوى
- ٤ - مدافع العشاق للدكتور زكى مبارك

يصح أن نقف بين موضوعين وقفة للراحة ينتفع بها القارئ كما ينتفع بها الكاتب أيضاً ؛ فقد فرغنا من الغزلين أو من أمتهم ، وقد نتقل منهم إلى غيرهم ولكن بعد أن نستريح وتستريح من هذا البحث الشاق الذى يعنى قارئه وكاتبه معاً . وربما كان من الخير أن ندع العصور القديمة من حين إلى حين ، لننظر فى هذا العصر الذى نعيش فيه ؛ فإن لهذا العصر حياة أدبية وعقلية مهما تكن ضئيلة فاترة فهى خليقة بالعناية ، حرية بأن نقف عندها وقفات مهما تقصر فلن تخلو من فائدة. على أنى أريد قبل كل شىء أن أشكر لهذا الكاتب الأديب - الذى صنّ على باسمه ولقب نفسه جندياً مجهولاً من جنود الأدب- كتابه القيم الذى نشرته له «السياسة» صباح الاثنين ، وأن أعلن إليه وإلى الذين كتبوا إلى يطلبون أن تجمع أحاديث الأربعاء فى كتاب أن هذا الكتاب يطبع الآن ، وأنه سيداع بعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع .

١ - أما بعد فإن الجندى المجهول من جنود الأدب يريد أن يناقشنى فيما أشرت إليه من وجوه الشبه القوية بين شاعرنا العربى الغزل عمر بن أبى ربيعة ، والكاتب الفرنسى المعروف بيير لوتى . وربما كان محققاً فى بعض ما كتب ؛ لأنى لم أرف هذه المقارنة حقها ، بل قلت إنى أشير إليها إشارة موجزة ، وأطلب إلى الأدباء أن يفرغوا لدرسها درساً مفصلاً . فن المعقول إذاً ألا يكون رأيى فى المقارنة بين الرجلين واضحاً كل الوضوح . وأنا أريد أن أبين « للجندى المجهول من جنود الأدب » أن ليس بينى وبينه خلاف فى جوهر هذه القضية ؛ فهو يرى أن الكاتب الفرنسى كان سبيء الخلق والسيره ، وهو يشير إلى ذلك إشارة كنت أود لو كانت أشد خفاء مما ورد فى كتابه . ولست أعرف إلى أى حد ينبغى أن

نقيل ما يقال عن بيير لوتى وغيره من الكتاب والشعراء وما يوصفون به من سوء الخلق والسيرة ؛ لا لأنى أبرئهم من السوء أو أعصمهم من الزلل ؛ فما كان شيء من ذلك ليخطر لى ، بل لأن هؤلاء الكتاب والشعراء معرضون لألوان من الحسد وضروب من سوء القالة يكثر فيها الإسراف عادة . ولست أشك فى أن حياة بيير لوتى لم تخل من عبث وفساد ، وربما كان هذا العبث كثيراً ، وربما كان هذا الفساد شديداً ، ولكنهما من غير شك أقل مما يذيع خصوم هذا الكاتب . وكل الكتاب والشعراء الذين اتخذوا الحب لهم فناً - ولا سيما هذا النوع من الحب الحسى - كان لهم حظ قليل من سوء السمعة وقبح الصوت . ولعل « الجندى المجهول من جنود الأدب » يعلم أن زعيمة هذا الفن من الشعر الغزلى عند اليونان ، وهى « سافو » التى عاشت فى القرن التاسع قبل المسيح ، قد أهتمت أشنع التهم فى غير حق ولا إنصاف ، واتخذت مثلاً للمرأة المملوك على اختلاف العصور والأجيال ، مع أنها كانت فى حقيقة الأمر أقرب إلى القصد والاعتدال فى سيرتها منها إلى شيء آخر ، وكنت أظن أن « الجندى المجهول من جنود الأدب » يقدر هذه الإشارة الخفية التى ذكرت فيها أمر عمر بن أبى ربيعة مع محمد بن عروة ابن الزبير ومع غيره من الفتيان الحسان ، وإذا لم يكن بدءاً من التصريح فأنا ألفت الكاتب الأديب إلى أحد الغزلين الذى تناولتهم بالبحث وهو الأحوص بن محمد ؛ فقد كان يقال عنه بالضبط - إذا صح هذا التعبير - ما يقوله الكاتب الأديب عن بيير لوتى ، وكانت تضاف إليه هذه الجملة المشهورة المنكرة التى لا أستطيع روايتها فى هذا الحديث التى زعم خصومه أنهم ضربوه ونفوه من أجلها . ذلك لأن هؤلاء الشعراء الذين يتغنون الحب الحسى معرضون بحكم فهم نفسه إلى أن يتورطوا فى الإثم من جهة وإلى أن تشيع عنهم الفاحشة من جهة أخرى . فليس « بيير لوتى » بدءاً من الغزلين إذاً ؛ فقد تورط فيما تورطوا فيه ، ووُصف بما وصفوا به . وقد أشرت فى الحديث الماضى إلى أن المقارنة بين الشاعر العربى والكاتب الفرنسى يجب أن تلاحظ فيها الفروق بين العصرين والجنسين والبيئتين . ولئن كانت حياة البحر قد أفسدت من حياة بيير لوتى وسيرته ، فليس من شك فى أن هذه الحياة الفارغة التى كان يجيهاها شباب الحجاز التى فصلتها غير مرة ، قد أفسدت من أخلاق ابن أبى ربيعة وغيره من هذا الشباب .

ويرى الكاتب أن « بيير لوتى » قد أسرف فى الكذب ، وضلل الغريبين فى أمر

المسلمين . فهل يعتقد الكاتب أن ابن أبي ربيعة لم يكذب في قصصه الغرامية ولم يضلل المحدثين والقدماء في أمر نساء قريس ؟ ! وهل يظن الكاتب أن عمر قد فعل كل ما قاله ؟ وإذا فقد كانت جماعة المكيين والمدنيين أقبح الجماعات وأشدّها إغراقاً في الفساد . أو هل يظن أن ابن أبي ربيعة لم يفعل مما قال شيئاً ، وإذا فقد كان أكذب الناس ، وكان الذين يُعجبون به مغفّلين أو شرّاً من المغفلين .

وابن أبي ربيعة نفسه يثبتنا مرة بأنه فعل كل ما قاله ويستغفر الله ، ويثبتنا مرة أخرى بأنه لم يفعل مما قال شيئاً . والحق أنه فعل بعض ما قال ، وقال كثيراً مما لم يفعل . وما زلت ألح على الأدباء في أن ينعموا النظر في ديوان ابن أبي ربيعة وقصص بيير لوتي ، فسينهون إلى ما انتهت إليه من قوة الشبه بين هذين الرجلين ، ولا سيما من الوجهة الفنية الخالصة . وقد وعدت وما زلت أعد ببحث مفصل عن حب بيير لوتي ، ولكنني أنتظر إلى بقية المذكرات الخاصة التي تنشر الآن في باريس ، وسيرى الكاتب الأديب أن طبيعة حب بيير لوتي هي طبيعة حب عمر ، وأن منهج بيير لوتي في الاستمتاع بهذا الحب هو منهج ابن أبي ربيعة ، وأن أسلوب بيير لوتي في وصف هذا الحب وإعلانه هو أسلوب عمر . وأريد أن يلتفت الكاتب الأديب وغيره إلى أن عمر قد نسك بعد طمو ، وإلى أن بيير لوتي حاول النسك غير مرة . وأريد أن يلتفت أيضاً إلى أن هناك شهماً قوياً بين الصلة التي كانت تصل بيير لوتي بصديقه « بلومكت » وتلك التي كانت تصل بين عمر وابن أبي عتيق ، وهي صلة مشهورة أدبية وتعزية غرامية قبل كل شيء . ولأدع الآن عمر وبيير لوتي لأنقل إلى شيء آخر .

* * *

٢ - أنا أريد أن أقدم إلى أستاذنا الجليل محمد الحضري بك ثناء طيباً وشكراً جميلاً ، بعد أن نظرت نظرة قصيرة جداً في الجزء الأول من كتابه الحديد : « مهذب الأغاني » .

ولو لم يكن للأستاذ إلا أنه قد عكف على هذا العمل خمسة عشر عاماً حتى أمته في غير تمدح به ولا إعلان له لكان خليقاً بأطيب الثناء وأجمل الشكر . فالذين يعملون ولا يقولون في هذا البلد وفي هذا العصر خاصة قليلون ، وأقل منهم هؤلاء الذين يبتدئون العمل الطويل الشاق فلا تصرفهم عنه مشقته ولا طوله ، ولا تلهيهم عنه أحداث الزمان وعواصف الحياة حتى يتموه . وأقل من هؤلاء وأولئك قوم

يقدمون على العمل الطويل الشاق فينفقون فيه ما ينفقون من قوة ومال وهم يعلمون أنهم لن يستردوا مما أنفقوا إلا شيئاً قليلاً ، وربما لم يستردوا منه شيئاً ، وهم مع ذلك يعملون ، وربما شجعتهم هذا اليأس على العمل ؛ وكثيراً ما تكون التضحية لذيدة . فالأستاذ الحضري خليق بالشكر والثناء لهذا كله .

أما العمل نفسه فساكون حرراً في الحكم له أو الحكم عليه ، وسأصطنع هذه الحرية وإن كانت للأستاذ على حقوق تجعل من العسير أن أناله بالنقد، ولكنني مع ذلك ساكون حرراً . ولم لا أكون حرراً وقد كتب إلى الأستاذ نفسه يطلب إلى أن أكون حرراً !! فلتشكر له مرة أخرى حرّيته وحسن رأيه في النقد، ولأقل إلى أحد عمله وأعيبه : أحده لأن فيه نفعاً لا يكاد يحصى لعامة المستنيرين وجمهور الطلبة الذين لا يستطيعون أن يقرءوا « كتاب الأغاني » كما هو ، والذين يجب مع ذلك أن يدرسوا الأدب العربي ويلموا بحياته . أقول إنهم لا يستطيعون أن يقرءوا « الأغاني » ، وأقول ذلك بعد تجربة وبلاء . فأنا أعيش مع الأغاني منذ حين ، ولست أخفي على القارئ أن كتاب الأغاني كثيراً ما يغيظني ، وذلك حين أشعر أن « السياسة » عجلة تريد «حديث الأربعاء» ، وأن الوقت قصير ، وأن أسانيد الكتاب لا تنهي ، وأني مضطر إلى أن أقرأ ما فيه من تكرار ، وأصلح ما في نسخته المطبوعة من خطأ ، وأرجع إلى المصادر والأصول . وإذا كان كتاب الأغاني يغيظني أحياناً فهو يغيظ كاتبني في كل وقت وأنا أتخذ هذا مقياساً لهؤلاء الطلاب الذين يجب أن يعرفوا الأدب العربي ويعسر عليهم أن يلتمسوه في كتاب الأغاني . وإذا فليس من شك في أن الأستاذ الحضري قد أحسن إلى هؤلاء الطلاب إحساناً لن يقدروه حتى قدره مهما يكن حرصهم شديداً على الوفاء ، ولكنني أعترف بأنني لن أنتفع كثيراً بكتاب الأستاذ الحضري ؛ فقد يغيظني كتاب الأغاني وقد يغيظ كاتبني ، ولكنني مع ذلك لا أستطيع أن أنصرف عنه إلى كتاب مختصر مهما تكن قيمته ومهما يكن حظّه من الإتقان ، ومهما يكن صاحبه ؛ لأن الباحثين حقاً لا يستطيعون أن ينصرفوا عن الأصول . وإذا فكتاب الأستاذ الحضري نافع كل النفع للذين لا يريدون أن يتخذوا الأدب موضوعاً لبحث علمي دقيق .

ولي بعد هذا كله على الأستاذ ملاحظات . فقد كنت أحب قبل أن يبدأ هذا العمل أن يبحث لعله قد سبق إليه ، ولعل من سبقه قد أحسن اختصار الأغاني . وإذا فالخير إنما هو في نشر هذا المختصر القديم لا في إعادة هذا الجهد .

ويخيل إلى أن ابن المكرم صاحب لسان العرب قد اختصر كتاب الأغاني ، وأن نسخة من مختصره موجودة بمكتبة الأزهر الشريف ، وأن تنقيح هذا المختصر على الوجه الذي أراده الأستاذ ونشره كان أيسر وأنفع من هذا الجهد الطويل الشاق الذي تكلفه الأستاذ . ويخيل إلى أن المختصر جيد ومتقن سهل التناول ، وقد قرأت منه قطعة عن أبي نواس مخطوطة بدار الكتب تذاع على الناس في هذه الأيام . ولهذا قلت إن هذا المختصر في حاجة إلى التنقيح لأن فيه ما لا يلائم الذوق الحديث . ويظهر أن ملاءمة الذوق الحديث قد أصبحت شرطاً لنشر الكتب القديمة في هذه الأيام التي نعيش فيها ، والتي هي أيام تكلف وابتداع . ألسنت تعلم أن دار الكتب المصرية قد تكلفت ضروياً من الجهد للتوفيق بين الكتب القديمة التي تنشرها وبين الذوق الحديث ، فهي تنشر من هذه الكتب نسختين : نسخة مطهرة تلائم الذوق الحديث ، ونسخة دنسة تلائم أذواق العلماء . ولهذا يجب إذا أردت أن تشتري أحد هذه الكتب أن تقول إنك من أنصار النسخ المطهرة أو النسخ الدنسة . ولست أدري كيف تستطيع دار الكتب أن تفرق بين العالم وغير العالم في توزيع نسخها المطهرة ونسخها الدنسة . وأجمل من هذا كله أسلوب الأستاذ زكي باشا في التوفيق بين الكتب القديمة والذوق الحديث ؛ فهو يكره الحذف والتطهير ، ويؤثر عليهما التحريف والتغيير ، بحيث يجب عليك أن تكون ماهراً في حل الألغاز لتفهم الكتب التي ينشرها زكي باشا على وجهها . ومن يدرى ! فيكلفنا إرضاء الذوق الحديث أشياء كثيرة ترضاهم أساليب البحث العلمي أو تمققها . فالبحث العلمي شيء لا قيمة له أمام الذوق الحديث ؛ لأن الذوق الحديث شيء يحرص عليه الرأي العام ، والرأي العام هو صاحب الأمر والنهي في هذه الأيام ، لا في المسائل السياسية وحدها ، بل في العلم أيضاً . وماذا تريد؟ ألم تبلغ الديمقراطية عندنا من الرقي أقصاه !!

ليس الغريب في هذا أن يريد الرأي العام أن تكون الكتب التي تذاع بين الشباب نقية مطهرة ، فذلك من حق الرأي العام ، ومن حق الشباب علينا ألا نذيع فيه ما يفسد ذوقه أو سيرته . وإنما الغريب أن يضطرنا هذا إلى مسخ الكتب وتشويهها والإساءة إلى المتقدمين فيما كتبوا . فقد كان المتقدمون يكرهون أن تختصر كتبهم أو تتغير ، كما كان أهل العصور الأولى يكرهون أن تنبش قبورهم . ولست أنسى نقشاً فينيقياً استكشفه وأذاعه «ريتان» وفيه لعن منكر لمن ينبش

هذا القبر أو يغير شيئاً فيه . ولست أنسى خطبة ياقوت الحموي لكتابه الجغرافيا المشهور ، فهو يحظر على الناس اختصار كتابه ، ويستزل ألوان السخط وضروب الآفات على من ينالون كتابه بالاختصار . وهو يقلد الجاحظ في هذا . ولعل صاحب الأغاني كان كغيره من القدماء يكره أن يشوه كتابه بالاختصار . ولكن ابن المكرم قد اختصره ، فما الذي يمنع الأستاذ الحضري من أن يختصره مرة أخرى ؟

هنا نصل إلى المسألة الأساسية وهي : ما الذي يجب إلى العلماء المحدثين أن يختصروا كتب العلماء المتقدمين ؟ الجواب سهل ، وهو أن هذه الكتب القديمة مخالفة في وضعها وترتيبها للذوق الحديث ، لا من حيث إنها تشتمل على أشياء تنكرها آدابنا العامة فحسب ، بل من حيث إن طريقة التأليف نفسها تخالف نظامنا العقلي الجديد ، وإذاً فنحن بين اثنتين : إحداهما سهلة ، وهي أن نمسخ الكتب القديمة لتلائم عقولنا . والأخرى عسيرة ، وهي أن نأخذ عقولنا بمنهج البحث العلمي لتلائم الكتب القديمة . وهذا عسير ، وغير ميسور للناس جميعاً ، ومن الخير ألا يتورط فيه الناس جميعاً . فإذا تكون الحال لو أن الناس جميعاً هيثوا عقولهم لملاءمة الكتب القديمة كما فعل الأستاذ الحضري وزكى باشا وطه حسين ؟ ! الأمر إذاً عسير ، فلا بد من اصطناع الخصلة الأولى ، أى لا بد من مسخ كتب القدماء رضى القدماء أو لم يرضوا . غير أني كنت أظن أن هناك خصلة ثالثة ترضى القدماء والمحدثين معاً ؛ لأنها تعصم كتب القدماء من المسخ والاختصار ، وتتيح للمحدثين ما يحتاجون إليه من علم ، وهي طريقة التأليف . ذلك لأن قدماء اليونان والرومان قد تركوا كتباً قيمة جداً باليونانية واللاتينية ، وهي لا تلائم الذوق الحديث في أوروبا ، وكذلك ترك قدماء الفرنسيين والإنجليز والألمان كتباً لا تلائم المحدثين من أبناء هذه الشعوب . ومع هذا فلسنا نرى أهل أوروبا الحديثة يضيعون وقتهم وجهودهم في اختصار هذه الكتب ومسختها لتلائم الذوق الحديث والعقل الحديث ، وإنما نراهم يتركون هذه الكتب كما هي ، ويضعون للمحدثين كتباً عادية تلائم ميولهم وعقولهم وأذواقهم . وماذا تكون الحال لو أن الأوربيين انصرفوا إلى اختصار «توسيديد» و«هيرودت» و«أفلاطون» و«أرسطاطاليس» و«تاسيت» و«تيت ليف» ؟ !

تريد أن يلمّ المحدثون بما ترك هؤلاء القدماء ؟ فضع لهم كتباً في التاريخ القديم والفلسفة القديمة والأدب القديم تلائم ميولهم وعقولهم ، وترجم لهم هذه الكتب القديمة .

فن كان منهم مهياً لفهم القدماء قرأ هذه الكتب المترجمة، ومن لم يكن مهياً لفهمها قرأ هذه الكتب المؤلفة . وهل تظن أن الأستاذ الحضري كان عاجزاً عن وضع كتاب في الأدب يتيح للمحدثين فهم ما يحتاجون إليه من أطوار الأدب العربي دون أن يرجعوا إلى كتاب الأغاني فيتكلفوا المشقة دون أن يختصر هو كتاب الأغاني فيتكلف الجهد في شيء مهما يكن قيماً فشخصيته فيه ضئيلة ضعيفة ؟ أما أنا فأعتقد أنه كان يستطيع أن ينفق هذه الأعوام الطوال في وضع كتاب مفيد تظهر فيه شخصيته، ويكون أشد ملاءمة للعصر الحديث من هذا المختصر الذي ليس هو بالقديم الخالص ولا بالجديد الخالص ، وليس هو لأبي الفرج ولا هو للأستاذ الحضري ، وإنما هو شيء يبين بين وحظ شائع بين رجلين . لست أستطيع إلا أن أثنى على هذا الجهد القيم الذي بذله الأستاذ في إصلاح الخطأ وإكمال الرواية وما إلى ذلك . ولكني أعتقد أنه كان يستطيع أن يصلح خطأ الأغاني ويكمل روايات الأغاني في كتاب علمي قيم مستقل ، يعتبر خدمة لكتاب الأغاني ، كما يقول الأزهريون .

وإذا كنت لا أستطيع أن أضن بالثناء على الأستاذ من هذه الناحية ، فأنا لا أستطيع أن أخنى عليه وجهاً من وجوه النقد ، وهو أنه قد حذف المكرر وألغى أشياء رأى أنها لا تفيد . وقد أفهم حذف المكرر ، ولكني لا أفهم إلغاء ما يعتقد الأستاذ أنه لا يفيد . فقد تحكمت أنت بأن هذا الشيء لا يفيد ، وأحكم أنا بأنه قيم نافع . ولك أن تمحو ما تشاء وتثبت ما تشاء إذا كنت مؤلفاً ، فشخصيتك ظاهرة في كتابك ، وهي تستطيع أن تحتل تبعه هذا الكتاب ، ولكنك لا تملك هذا في مختصر لأن شخصيتك ليست ظاهرة ؛ لأنها تتوارى خلف شخصية المؤلف ، ولأن القارئ يضطرب بينكما فلا يدري على أيكما يلقى التبعة . فأنت ترى أنني قد تناولت عمل الأستاذ الحضري مع ما أنا أهل له من حرية النقد ، ولكني مع هذا كله أثنى على هذا العمل ثناء طيباً ، وآسف لهذا الجهد أسفاً شديداً .

٣ - كل هذه الأشياء التي قدمتها وأشياء أخرى لم أذكرها ولم أشر إليها تجنباً للإطالة منعني في الصيف الماضي من أن أعرض لكتاب يشبه كتاب الأستاذ الشيخ الحضري في موضوعه وغايته وأسلوبه ، وهو كتاب « تهذيب الكامل » للأستاذ السباعي بيوي . أظنك تعفيني من أن أتناول كتاب كامل المبرد بالشرح

أو التعريف ؛ فليس هذا الكتاب أقل شهرة ولا نفعاً من كتاب الأغاني . وقد رأى الأستاذ السباعي بيومي ، كما رأى الأستاذ الحضري ، أن هذا الكتاب مضطرب في ترتيبه مخالف لنظامنا العقلي ، فسحفة ليلاً ثم عقلنا الحديد ، كما فعل الأستاذ الحضري بكتاب الأغاني . ويجب أن نكون منصفين ؛ فالأستاذ السباعي بيومي لم يتناول كتاب الكامل بالحذف والبتر كما فعل الأستاذ الحضري بكتاب الأغاني وإنما رتب الكتاب ترتيباً جديداً ، فجمع الأشياء إلى نظائرها ، ثم ظهر له أن هناك أشياء لا يمكن أن ينالها الترتيب لأن المؤلف أراد أن تكون كذلك . مثال هذا : باب وضعه المبرد وعنوانه بهذا العنوان : « باب نذكر فيه من كل شيء شيئاً » . فلم يستطع إلا أن يجمع كل هذه الأشياء التي لا تقبل الترتيب في قسم واحد سماه ذيلًا . ولكن أبا العباس المبرد لم يضع هذه الأبواب لتكون ذيلًا لكتابه . فبأى حق تستبيح لنفسك يا سيدي الأستاذ أن تُفسد على الرجل نظام كتابه ؟ إني لأسمع الجواب وهو جواب معروف ، فما أراد الأستاذ المهذب إلا أن يكون كتاب الكامل للمبرد ملائماً للذوق الحديث . ويل للقدماء وعلم القدماء وكتب القدماء منا ومن ذوقنا الحديث ؛ بل ويل للمحدثين من هذه الجهود الضائعة التي لو أنفقت في التأليف لأفادت ونفعت أكثر من نفعها وفائدتها حين تُتفق في المسخ والتشويه . أنا مضطر إلى أن أثنى على هذه الجهود ، ومضطر إلى أن أسف عليها أيضاً .

• • •

٤ - هناك جهد آخر لم يضع ، ولكنه شديد الخطر أسمح لنفسى بإنكاره بعض الإنكار ، وهو هذا الجهد الذي أنفقه الدكتور زكي مبارك في فصول جمعها في كتاب وسمّاها « مدامع العشاق » . عنوانها يدل على موضوعها ، ولكني لا أدري أيدل على غايتها أيضاً ؟ فليس من شك في أن لهذه الفصول قيمة أدبية لا تخلو من خطر . ولكني لا أشك مع الأسف في أن كاتبها لم يستطع أن ينسى نفسه وأهواءها في هذه الفصول . فليست غايته فيما يظهر علمية خالصة ولا أدبية خالصة ، وإنما تملق الكاتب عواطفه وعواطف قرائه وأسرف في هذا التملق ، فخرجت فصوله على أن تكون مباحث علم وأدب ، وأصبحت مباحث استثارة للعواطف وتحريض للأهواء . ولذلك وجهه في الحياة الأدبية ؛ فلعل كاتب أن يعلن عواطفه وأهواءه ، وأن يدافع عنهما كما يجب ، ولكن لذلك طوراً لا ينبغي أن يعدهو الكاتب . وأظن

أن الدكتور زكى مبارك يعرف هذا الطور ولا يحتاج إلى أن ألفتة إليه . وأنا ألاحظ أن فكرتين اثنتين تعبتان بالحياة الأدبية لهذا الكاتب وتفسدان عليه جهوده ، أو قل فكرة واحدة ذات وجهين : فهو يريد أن يكون حرّاً في الدين ، وحرّاً في الأدب . وقد لامة قوم في حرّيته هذه ، فخيّل إليه أنه مضطهد يتبعه رجال الدين بإنكارهم إذا عرض للدين ، ويتبعه رجال الأخلاق بإنكارهم إذا عرض للآداب . وكأنّ الحصومة قد اشتدت بينه وبين مضطهديه ، فهو يتكاف غيظهم وإحراجهم . ولكن الغيظ والإحراج قد يكونان من أسباب الشهرة أحياناً ، ولن يكونا من مناهج العلم في يوم من الأيام . وأظن أن صديقنا الأستاذ منصور قد نصح لتلميذه الدكتور زكى مبارك بالقصد والاعتدال ، فلأنصح له بهما أيضاً . وليس يمنعني هذا التحفظ من أن أقدر كتابه وأثنى عليه .

١ - عود إلى « مذهب الأغاني » للأستاذ محمد الحضري

٢ - « بلاغة العرب في الأندلس » للأستاذ الدكتور أحمد ضيف

أرسل إلى الأستاذ الحضري هذا الكتاب . وما أحسب أنه أراد أن يكون هذا الكتاب وقفاً علىّ ، وإنما أراد أن يقرأ الناس رأيه فيها وجهت إليه من نقد ، ودفاعه عما بذل في تهذيب الأغاني من جهد . وأنا سعيد بأن أذيع في الناس هذا الكتاب القيم ، وأبدأ به هذه الصحيفة . قال الأستاذ :

« إلى الدكتور طه حسين من محمد الحضري . السلام عليك ورحمة الله . وبعد ، فقد قرأت نقدك لما اتجهت إليه المهمة من « مذهب الأغاني » . وإني شاكر لك كلماتك التي صدرت بها نقدك ، فأنت أبر الأبناء وأفضلهم . وإذا سرفني أن تكون لك الحرية فيما تنقد به كتابي ، فأظنك لا تبخل علىّ بقسط منها حتى أساجلك الحديث دفاعاً عن نفسي . وعهدي بك والحق غايتك .

عبت علىّ أن بذلت تلك السنين الطوال في تهذيب كتاب أحق الناس به صاحبه ، وتمنيت أن لو بذل هذا المجهود في كتاب جديد في الأدب العربي رأيتني قادراً على القيام به . وإني لمحبيك عما حدا بي إلى خلافك .

إن ما ضمنه أبو الفرج رحمه الله كتابه « الأغاني » ثروة الأدب العربي ، لمؤلفه فضل جمعها ، ونقلها بأسانيدھا عن فحول الكتاب وحفاظ الرواة ، فيها الشعر الرائع والنثر الفاخر ، وكلاهما لساف أبي الفرج من الشعراء المجيدين والكتّاب البارعين وإني أصارحك الحديث وأنت جدّ عليم بأن أبا الفرج ومن شئت أن تسمى من كتّاب العرب عاجزون عن أبداع ما تضمنه كتاب الأغاني . صارت هذه الثروة إلى قومنا من أهل الجليل الحاضر يتأدّبون بها وينتهجون طرق الكتابة بقرائنها .

نظرت فرأيت هذه الثروة قد ألمّ بها ما كاد يضيع الانتفاع منها ، ذخائرها مبددة الشمّل ، وفرائدها قد وهى سلكها ، وتبرها قد أخفاه غبار التحريف ،

وأضله دخان التشويش . شعرت بهذا وأحس به من تحدثت إليه من المتأدين وشعرت به أنت . فكان من الواجب أن نتقدم إلى الجمهور من قومنا بتنظيم هذه الثروة حتى يمكنهم أن يستفيدوا منها . لو كان الطراز الذي نريد أن نتقدم به إليهم من طراز ما تتحفظهم به في صحيفة الأدب من نقد الشعراء واستنباط الحقائق التاريخية ولذيذ الفكاهات ، لو كان الأمر كذلك لألقيت إليك بالمقاليدي معترفاً بالعجز عن بلوغ مذاك ، أما وغرضنا هو أن نسهل للمتأدين الانتفاع بالثروة التي جمعها لنا أبو الفرج فلم يكن هناك بدءاً من أن نحفظ له تلك اليد التي أسداها إلينا ، ونبي اسمه خالداً وننتفع بتلك الثروة على أيسر الوجوه وأسهلها فإذا صنعت ؟ ألفت الأدب العربي مبدد الشمل فرتبته ، وضعت كل درة بجانب أختها ، وكل إلف بجانب أليفه . فإذا أراد القارئ أن يقرأ ما تقرّ به نفسه من شعر عصر أو شعر قبيلة بعينها كان ذلك ميسوراً ، وهذه ضالة تشدها أنت بما تتحف الجمهور به في صحيفتك الأدبية .

وجدت تحريفاً كثيراً يضل الشادى ويُتعب العالم ، وقد أحسست أنت بأثره فبذلت من الجهد ما الله به عليم في إصلاح ذلك الفساد .

وجدت نقصاً في فاخر الشعر وجيده كما يصفه أبو الفرج ، فأتممت ذلك النقص لما توقعت من جدوى ذلك على طلاب الآداب .

وجدت نقصاً في ضبط الغريب وتفسيره ، فاحتملت عبء ذلك كله ، وأزلت عناء كان يشعر به أمثالي من قراء الأغاني . وقد تلقيت كتباً كثيرة تستزيد من هذا الضبط وهذا التفسير . وسأكون عند هذه الرغبة فيما أستقبل من الأجزاء إن شاء الله .

أما ما نقصته منه فلم يعد لإحدى اثنتين ، إما فحش صدع عن الأغاني وجوه كثير من أهل الأدب ، كانوا يشكون ذلك منه ومن أكثر كتب الأدب العربي ، وإني معهم في ذلك . وكثيراً ما رأيت ابن هشام راوى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ابن إسحاق ، إذا روى شعراً يقول : ” تركنا هنا بيتاً أو بيتين وأكثر أقذع فيها “ . فليس الامتعاظ من الفحش والإقذاع مقصوراً على أهل جيلنا ، بل كان لنا فيه سلف صالح نريد أن نستنّ بسنتهم . وإما أشياء قلت عنها لا تفيد أدباً ولا ترقى فكراً . لست يا سيدي من طغاة الأدب حتى توجه سهمك إليّ ، وإنما أنا رجل خبرت الناس وعرفت ما يفيد وما لا يفيد ، فاستضأت بهذه الخبرة

في حذف ما حذف . ولعلك تكون لى لا على متى حان وقت تقدمك المفصل بعد أن تقارن بين ما ضمته "مهذب الأغاني" لشاعر معين ، وبين ما تراه في الأغاني . وإني أؤكد لك من الآن أن المتروك من ذلك قليل لا تكاد فائدته تساوى قراءته .

أما ما ذكرت من كتاب ابن منظور ، فإني قد اطلعت عليه ، ولم أره كفيلاً بحاجة المتأدبين من قومي ؛ لأنه رتب الشعراء والمغنين فيه على حروف المعجم ، وهذا غير ما قصدت إليه من التأليف بين من جمعهم عصر واحد أو قبيلة واحدة . وعمله تغنى عنه الفهارس . على أنه لم يحمل العبء الذي حملته من الإصلاح والنضبط والتفسير وحذف ما لا يجوز في كتاب إنباته .

لعلك تتفضل بالتفصيل بعد الإجمال : وإذ ذاك أرجو أن ترى أن ما بذلته من المجهود قد وقع موقعه ، وأن تهذيب الأغاني كان يجب أن يظهر في عالم الأدب منذ أزمان ليكون لكتاب الأغاني أثره في نفس قرائه ، وليقتسم الفضل فيه أبو الفرج رحمه الله فإنه جمعه ، ومحمد الحضري فإنه هذبه .

وبعد ، فالسلام عليك من شيخ يحبك ، ويتمنى أن يعلو في عالم الأدب صوتك » .

محمد الحضري

• • •

نعم ! إذا كنت أحرص على أن تكون حرّاً في النقد عامة وفي نقد أساتذتي خاصة ، فأنا شديد الحرص على أن يكون الناس أحراراً في ردّ ما أوجهه إليهم من نقد ، وفي إظهار ما قد أتورط فيه من خطأ . وأنا لا أعترف لهم بهذه الحرية فحسب ، وإنما أقدم لهم عليها أجمل الشكر وأحسن الثناء ، وأتجاوز هذا إلى الاعتراف بالخطأ في الرأي والحوار في الحكم إن دلوني على خطأ أو جور . ولتعلم الكتاب والمؤلفون أن صناعة النقد في نفسها ليست لذيدة ولا محببة إلى النفس ، وأن الناقد حقاً لا يبتغى النقد للنقد ، وإنما هو يضطر إليه اضطراراً ، يضطره إليه حبه للحق وميله إلى الإصلاح ورغبته في الخير . وليس محبباً إلى النفس أن يبحث الناقد عن سيئات الناس وأغلاطهم وما يعرض لهم من ضعف وما يصيبهم من زلل . ليس ذلك محبباً إلى النفس إلا أن يكون الإنسان شريراً بطبعه ، ميالاً إلى الإساءة والأذى . وأرجو ألا أكون من هذا كله في شيء . لهذا يسرني أن

يدلني مؤلف أو كاتب على أنني أخطأت حين نقدته أو بجرأت حين حكمت عليه ، لأعدل عن هذا الخطأ وأصلح هذا الجور . وأنا أؤكد للكتاب والمؤلفين أني أشد سروراً بالعودة عن رأي خاطيء مني بإذاعة هذا الرأي قبل أن أعرف خطأه . ولقد كنت أريد حين وصل إلى كتاب الأستاذ الحضري أن أجد فيه ما يحملني على أن أغير من رأيي قليلاً أو كثيراً ، فقرأت الكتاب وقرأته وتدبرت الكتاب وتدبرته دون أن أظفر بما كنت أريد . فالأستاذ والقراء يعلمون أنني حمدت للأستاذ هذا الجهد ، وما زلت أحمده وأعلن أنه شاق عسير لا ينهض به إلا من أتاحت لهم قوة الإرادة والصبر على المكروه والاستعداد للتضحية بالوقت والراحة والمال . أعلن هذا كله ولا أغير رأيي فيه، ولكني مع ذلك أحتفظ برأيي كاملاً في تهذيب كتب القدماء واختصارها وتغيير نظامها ، وأعد هذا مسخاً وتشويهاً ، وأرى أنه مهما يكن نافعا مفيداً فهو لا يخلو من الشر ولا يعني صاحبه من اللوم . ذلك لأنني أرى أن لصاحب الكتاب حقاً مطلقاً في أن يبتى كتابه كما وضعه دون أن يناله تغيير أو تبديل ؛ لأن كتاب الرجل جزء من نفسه ، وما كان لك مهما ترد من الخير أن تعبت بنفوس الناس .

تريد أن تقرب الأدب العريق إلى هذا الجيل ، وأن تبيح للناس الانتفاع بهذا الأدب في غير مشقة ولا عناء ؟ ذلك لك . فخذ من كتاب الأغاني ما أحببت ، ورتبه كما تريد ، وأعرضه على الناس في الصورة التي تهواها ولكن دع كتاب الأغاني كما وضعه صاحبه ؛ فهو لم يضعه لتأتي أنت فتغيره أو تبدله . وهب كتابك قد راج حتى استأثر بما كان للأغاني من شهرة فانصرف الناس عن الأغاني إلى مهذبه ، وضاعت نسخ الأغاني من بين أيديهم ، فليس من شك في أن الصورة التي سيتخذونها من علم أبي الفرج ومذهبه في التأليف لن تكون صحيحة ولا صادقة ، وأنت بذلك تسيء إلى أبي الفرج . ستقول إنك أردت أن تنفع الناس . ولكنك كنت تستطيع أن تنفعهم دون أن تسيء إلى هذا المؤلف المسكين . تريد أن تشاطر أبا الفرج مجده واستحقاقه للخلود ؛ ولم تقاسمه مجده ؟ ! ولم لا تبني لنفسك مجداً مستقلاً وأنت قادر على ذلك ؟ ! تريد أن تضمن الخلود لأبي الفرج ! معذرة يا سيدي الأستاذ ؛ فقد عاش كتاب أبي الفرج ألف سنة قبل أن يظهر كتابك ، وعاش رغم مختصر ابن منظور . وما نحن أولاء نرى كتاب أبي الفرج دائماً منشوراً ، ومختصر ابن منظور مقبوراً مجهولاً . وأنا شديد الإشفاق على كتابك

أن يكون حظه كحظ مختصر ابن منظور ، وشديد الثقة بأن المهديين والمختصرين مهما يلحوا على كتاب الأغاني بالتهذيب والاختصار ، فسيبقى هذا الكتاب كما تركه صاحبه وكما أراد أن يكون .

بقيت مسألة عظيمة الخطر جداً أريد أن ألفت إليها الأستاذ خاصة ورجال الأدب والتأليف عامة ، وهي أنهم يجدون في كتب القدماء ألواناً من الضعف والنقص والاختلاط وسوء الترتيب ، فيخيل إليهم أنهم يحسنون إلى هؤلاء القدماء بإصلاح ما في كتبهم من عيب ، وهذا حق ؛ فهم يحسنون إلى القدماء وإلى المحدثين أيضاً . ولكنهم يسيئون إلى القدماء حين يضطرون هذا التهذيب والإصلاح إلى التغيير والتبديل وإلى المسخ والتشويه .

تريد أن تُصلح ما في الأغاني من نقص وفساد ؟ ! ذلك لك . ولكن لا على النحو الذي سلكت ، وإنما على نحو آخر هو الذي ساكبه العلماء الأوربيون وكثير من علمائنا نحن قبل هذا العصر ، وهو أن تضع كتاباً مستقلاً فيه إصلاح ما في الأغاني من نقص وفساد ، ومن ضعف واضطراب . وما الذي كان يمنعك من أن تكمل نقص الأغاني وتضبط غريبه وتيسر على الناس البحث فيه بكتاب يؤلف من جزء أو جزئين على نحو ما فعل المستشرقون الأوربيون الذين وضعوا فهرس كتاب الأغاني ! فرق عظيم بين من يريد أن يصلح كتاباً ليسهل على الناس الانتفاع به ، ومن يريد أن يغير كتاباً ليقاسم المؤلف حقه في المجد والخلود .

ومسألة أخرى ، هي مسألة ما حذف الأستاذ من الكتاب . وأنا أعلم حق العلم أن من المتقدمين من كان يعدل عن رواية الفاحش من الشعر ، سواء أكان فحشه مؤذياً للعاطفة الدينية أو للأخلاق والآداب . أعرف أن ابن هشام عدل في السيرة عن شعر فاحش ، وأعرف أن المبرد أبي أن يروي كل ما قال كعب بن جعيل في علي . وأعرف أن أبا الفرج نفسه أبي أن يروي كثيراً من شعر السيد الحميري لأن فيه سباً لأبي بكر وعمر . أعرف هذا كله ، وأعرف أن ابن قتيبة كان ينكر مثل هذا التخرج وهو يعيبه عيباً شديداً في مقدمة كتابه المعروف : « عيون الأخبار » . أعرف إذاً أن القدماء كانوا في هذا الأمر كما نحن الآن ، منهم من يتحرج من رواية الفحش ومنهم من لا يتحرج . أعرف هذا كله ، ولا أغير مع ذلك رأبي في عمل الأستاذ تغييراً قليلاً ولا كثيراً ، لك

أن تتحرج من رواية الفحش أو لا تتحرج ، ولكن في كتاب تضعه أنت لا في كتاب يضعه غيرك .

تقول إنك لست من طغاة الأدب . وأنا أعتقد أنك لست من طغاة الأدب ، ولكني أعتقد مع ذلك أن من الطغيان على أبي الفرج أن تحذف من كتابه شيئاً وضعه هو في كتابه ، وأن من الطغيان على قراء الأغاني أن تحرمهم قراءة شيء في الأغاني كان من حقهم أن يقرؤوه . لست أشك في أنك أردت الخير ، ولكني لا أرى لإنسان مهما يكن حقاً في أن يكره الناس على أن يكونوا أخيراً فيها يكتبون ، أو فيما يقرؤون أو فيما يعملون . لا أعرف لهذه الحرية حداً إلا القوانين العامة . وأحسب أن القوانين العامة لم تكلفك ولم تكلف غيرك من العلماء تطهير كتاب الأغاني أو غير كتاب الأغاني . ثم لا أزال أحتفظ برأيي كاملاً في هذه الأشياء التي رأى الأستاذ أنها لا تفيد . فهما تكن الخبرة التي اكتسبها الأستاذ فهي لا تبيح له حذف هذه الأشياء من كتاب الأغاني ، وإنما تبيح له حذف ما يشاء من كتاب يضعه هو لا غيره .

وبعد ، فإني أشكر للأستاذ على كل حال ما يتكلف من ضبط الغريب وتفسيره ، وتكميل الشعر وترتيبه ، وأستزيده من ذلك مع المستزيدين ، وأثنى على جهده مع المثنين . ولكني آسف - وقد أكون جيداً في هذا الألف - على هذا الجهد الذي كان يمكن أن ينتج للناس كتاباً قيماً مستقلاً يكون مجده خالصاً للأستاذ دون أبي الفرج .

• • •

٢ - قلت إن النقد صناعة ليست باللذيذة ولا المحببة إلى النفس ؛ فهي تكلف الناقد ضرورياً من المكروه والواناً من الألم قد كان يستطيع أن يستغنى عنها لو صرفه الله عن هذه الصناعة . ولكنها مع ذلك صناعة نافعة أو قل لازمة ، أو قل لا حياة للأدب بدونها ولا قوام له من غيرها . فنحن إذاً مضطرون إلى أن نقصد ، ونحن إذاً مضطرون إلى أن نتحمل الأذى ونتعرض للمكروه في سبيل هذا النقد . ولست أخشى أذى خارجياً أو مكرهاً يلقاني من الكتاب أو المؤلفين ، وإنما أخشى هذا الأذى المنكر الذي يجده الإنسان في نفسه وهذا المكروه الثقيل الذي يلقاه الإنسان من نفسه حين يتناول بالنقد كتب الإخوان والأصدقاء وأهل المودة والقرابة . فالدكتور أحمد ضيف أخ لي لا تصل بيني وبينه حياتنا في الجامعة

المصرية وحدها ، بل تصل بينى وبينه حياة قضيناها معاً في فرنسا كان فيها الحلو والمر ، وكان فيها الخير والشر ، وكنا نبلو حلوها ومرها ونحتمل خيرها وشرها أخوين صادقين ، لا يعدل أحدهما بصاحبه إنساناً ولا بمودة صاحبه شيئاً آخر . ومع هذا كله فأنا مضطر إلى أن أتناول بالتقد كتابه القيم الذى أذاعه في الناس منذ أشهر ، وهو كتاب « بلاغة العرب في الأندلس » .

لصديقى الأستاذ أحمد ضيف حظان مختلفان أشد الاختلاف: حظ في الجامعة حيث يعلم الطلبة ويبصرهم بمناهج البحث الأدبى ، وحظ خارج الجامعة حيث يذيع كتبه ومباحثه الأدبية. أما حظي في الجامعة فحسن "جداً" خلقي بالغبطة؛ فقد وفق الأستاذ لأن يفتح أمام تلاميذه مناهج جديدة للبحث سلكوها فوقوا فيها الخير كثير . ولقد حدثك غير مرة عن تلميذ للأستاذ تناول ألواناً من البحث الأدبى فكان حظي من الإجابة عظيماً ؛ هو الدكتور زكى مبارك . وسأحدثك عن تلميذ آخر للأستاذ تناول الأدب العربى في الأندلس فأظهر كتاباً لا بأس به ، وهو كامل أفندى الكيلانى . وليس بالشىء القليل على أستاذ أن يكون من تلاميذه المؤلفون الذين لا يسيئون التأليف ولما يمض الأستاذ في مهنة التعليم إلا أعواماً قصاراً .

حظ الأستاذ أحمد ضيف من هذه الناحية حسن خلقي بالغبطة ، ولكن حظي من الناحية الأخرى سيئ مع الأسف الشديد . هو موفق في التعليم ، غير موفق في التأليف . واقد حاول أن أجد سبباً لهذا ، وأحسبني لا أخطئ ولا أتجاوز القصد إن قلت إن السبب الأساسى الذى يحول بين الأستاذ وبين الإجابة اللائقة به في كتبه هو أن نفسه سريعة الحركة ، مسرقة في هذه السرعة ، لا تكاد تعرض للشىء تثبت له حتى تقتله بحثاً ودرساً وتنضجه فهماً وتفكيراً . وإنما هو شديد السأم كثير الملل ، لا يكاد يلم بالموضوع حتى يسأمه ويزيد فيه ، وينتقل منه إلى موضوع آخر فيسأمه ويزيد فيه ، وينتقل منه إلى موضوع ثالث وموضوع رابع . وتكون نتيجة هذا السأم وهذا الانتقال السريع آراء كثيرة ظاهرة البهجة ولكنها غير ناضجة ولا واضحة ولا قابلة للبحث . وإذا كانت الأناة شرطاً أساسياً للإجابة والإلتقان في كل شىء مهما يكن نوعه فهى الشرط الأساسى الوحيد للحياة العقلية المنتجة . وربما لم تكن المناهج العلمية شيئاً إلى جانب الأناة العلمية . ذلك لأن المناهج العلمية المنتجة على قيمتها ولزومها ليست في حقيقة الأمور إلا

نتيجة طبيعية للأناة العلمية . وقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : « إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » . وأظهر ما يكون ذلك في العلم والأدب والمباحث العقلية على اختلافها ؛ فإن هذه النتائج الباهرة التي انتهى إليها العلماء والأدباء ليست في حقيقة الأمر إلا آثاراً لجهود طويلة بطيئة شاقة ذهبت فيها القوى وأنفقت فيها لا أقول الأشهر ولا أقول الأعوام ولا أخطئ إذا قلت القرون . فكم من فكرة علمية أنفق فيها العالم حياته كلها ثم انقطعت به أسباب هذه الحياة دون أن يتمها درساً ، وجاء بعده العالم أو العلماء فأنفقوا فيها مثل ما أنفق أو أضعاف ما أنفق من جهد ووقت . وكذلك الأمر في الأدب ، وكذلك الأمر في الحياة العقلية كلها . فإذا كان للحياة العقلية المنتجة عدو حقيقاً فإنما هو العجلة والإسراف في السرعة . ولقد تقرأ الكتابين اللذين أظهرهما الأستاذ الدكتور ضيف منذ بدأ الدرس في الجامعة ، فتشعر بما أشعر به من أن الأستاذ تعجل فأسرف في العجلة ، وأذاع في الناس آراء لم تنضج في نفسه كما ينبغي ، فلم يتقن هو فهمها ولم يستطع الناس أن يفهموها من بعده . تشعر بهذا ، وتشعر بشيء من الألم وضيق الصدر إذا كنت تعرف الأستاذ وكفايته وقدرته على الإجابة والإتقان . فأنت لا تكاد تقرأ صفحة واحدة من أحد الكتابين حتى تشعر بهذا الضيق ، وحتى تشعر بغموض شديد ، وحتى تسأل نفسك ما حدثاً متشدداً في الإلحاح : ماذا يريد أن يقول ؟ وأنت تستطيع أن تسأل نفسك وأن تسألها ، بل أن تسأل المؤلف وتلح عليه دون أن تجد الجواب المقنع . ذلك لأن المؤلف ألم بالاموضوعات إماماً ولم يتقنها إتقاناً .

ولقد فرغت الآن من مقدمة كتابه الآخر في بلاغة العرب في الأندلس . ويؤلمني أني لم أفهم منها شيئاً ، أو أني لم أستقر منها على شيء ؛ فأنا أشعر بأن الأستاذ يريد أن ينكر على القدماء والمحدثين تصوره للأدب وحكمهم عليه ، فيخيل إن أنه سيضع للأدب تعريفاً جديداً ويحكم عليه حكماً جديداً ، يرسم فيه مناهج للبحث والفهم جديدة ، فإذا مضيت في القراءة لم أجد إلا غموضاً وإبهاماً ثم رجوعاً إلى تصور القدماء وحكم القدماء والنقل عن القدماء . ليس الأدب في رأي الأستاذ ضرباً من الفكاهة والتسلية ولا نادرة ظريفة ولا عبارة طريفة ولا حكمة بليغة ولا بيت شعر يملك النفس ويسحر اللب بتركيبه البليغ وألفاظه الفصيحة . وليس الأديب في رأي الأستاذ من كان « كثير النادرة حاضر الذاكرة

واسع الاطلاع أنيس الجليس عذب الحديث حافظاً راوية . وليس كتاب الأدب في رأى الأستاذ ما كان جامعاً « لكثير من مسائل اللغة وقواعدها ، والشعر وأنواعه ، والنوادر الخاصة والعامّة وتواريخ الأمم » . وليس الكاتب في رأى الأستاذ من كان « طلى العبارة عارف باختيار الألفاظ عالماً بكثير من المترادفات تنقاد البلاغة إليه انقياداً فيصور الحق باطلاً ويجعل الباطل حقاً » .

ليس الأدب ولا الأديب ولا الكتاب الأدبي ولا الكاتب في رأى الأستاذ شيئاً مما قدّمنا . فما الأدب إذا؟ الأدب عند الأستاذ « نتائج العقول والقرائح البشرية وقوة الفكر والإدراك الإنسانى التى تنفق بها ألسنة الشعراء وتسيل بها أقلام الكتاب فيفيضون على العالم من أحوال الاجتماع وصوره وأسرار النفس وخفايا الوجود ما يملأ النفس غبطة وإعجاباً بصحيح الآراء ، وجمال الافتتان ، ويمتازون عن العامة من الكتاب والمفكرين بدقة الإدراك وتصوير المعانى النفسية والاجتماعية تصويراً يقرب من أن يكون مدركاً بالحواس » . أفهمت شيئاً؟ أما أنا فلم أفهم شيئاً واضحاً ، وإنما يخيل إلى أن فى نفس المؤلف شيئاً يريد أن يقوله وهو لا يجد لى قوله سبيلاً .

ولنلاحظ قبل كل شيء أن الفكاهة والنادرة والعبارة الجيدة والبيت المتقن وكل هذه الأشياء التى لم يُرد الأستاذ أن يسميها أدباً ليست نتائج الآذان والأنوف ، ولا نتائج الأيدي والأرجل ، وإنما هى نتائج القرائح والعقول ، وهى ليست هواء من القول ولا سخفاً من الحديث ، وإنما هى على كل حال صورة لنفس إنسانية ما أو لحياة اجتماعية ما . وإذا فهى أدب كما يريد أن يكون الأدب . الحق أن الأستاذ كلف بالأدب الغربى ، ملاحظ للفرق بينه وبين الأدب العربى ، متأثر بهذا الفرق . وهو يريد أن يحدده ويدل عليه ، فلا يعينه قلبه ولا لسانه لأنه لم يصطنع الأناة فى التفكير والكتابة . فهو يقول أكثر مما يفكر ؛ وهو يفكر أكثر مما يقول . وكذلك الحال حين يزعم الأستاذ أن نفوسنا تمل الآن أسلوب القصيدة العربية لأن الشعر العربى كما هو أصبح لا يلائم أذواقنا وميولنا وحاجاتنا . وأنا أترجم عن المؤلف ولا أنقل عبارته ، فعبارته شديدة الغموض لا تكاد تدل على هذا إلا إذا كلفتها مشقة وجهداً . ومع هذا فليس من الحق أننا نمل الشعر العربى كما هو ونزهده فيه ، وإن كنا نريد له رقيماً وتطوراً يقاربان بينه وبين أذواق العصر الحديث وحاجاته . وليس من الحق فى شيء أن الأدب العربى كما يظن الأستاذ لا يمثل الحياة الاجتماعية والنفسية ولا يعرب عن أسرار الوجود ، وإنما هو نحو

من تمثيل الحياة الاجتماعية والنفسية وضرب من الإعراب عن أسرار الكون والوجود . ولكنه محتاج إلى أن يفهم ويدرس مع العناية والإنصاف وأرجو أن تكون « أحاديث الأربعاء » قد دلتك على أن الأدب العباسي يمثل الحياة الاجتماعية في العصر العباسي ، وأن الأدب الأموي يمثل الحياة الاجتماعية في عصر بني أمية ، كما أنه يمثل نفوس الشعراء وظروفهم الخاصة في العصرين . ومالي أذكر أحاديث الأربعاء ! وهل يستطيع الأستاذ أن يبتنى لم يؤلف كتاباً في أدب الأندلس إذا لم يكن الأدب الأندلسي يمثل الحياة الأندلسية تمثيلاً قوياً أو ضعيفاً ؟ قل إن الأدب العربي لا ينحو نحو الأدب اليوناني ولاتيني والآداب الغربية الحديثة في تمثيل الحياة ووصف الأحياء ؛ فهذا شيء لا نزاع فيه ، لكنه لا يحو قيمة الأدب العربي في نفسه من حيث إنه مظهر من مظاهر الحياة الإنسانية ومرآة للنفس الإنسانية . ولكن الأستاذ لم يُرد أن ينكر قيمة الأدب العربي ، وإنما هو كما قلت لك يقول أكثر مما يفكر ، ويفكر أكثر مما يقول ؛ لأنه سريع الحركة لا يُنضج ما يعرضه من المباحث . وآية ذلك أنه أراد أن يذكر قيمة الأدب الأندلسي فكان كغيره من الكتاب ، أستغفر الله ! بل استعار كلام القدماء فنقل عن ذخيرة ابن بسام ونقل عن كتاب نفع الطيب .

ولترك مناقشة هذه المقدمة لنتقل إلى ملاحظات يسيرة كنا نحب ألا يتعرض لها كتاب في الأدب العالي . أراد الأستاذ أن يلم بتاريخ الأدب في الأندلس مقدمة لبحثه الأدبي ، وهذا حسن . ولكنك لا تكاد تبدأ قراءة هذه المقدمة التاريخية حتى تجد فيها ضرورياً من الإهمال وإرسال القول على علته . تجد مثلا أن العرب فتحوا ما لم يفتحه غيرهم من الأمم في ثلاثة قرون ، بل في قرن واحد ، فلم تمض على العرب ثلاثة قرون حتى كانوا قد سثموا الفتح وانصرفوا عنه إلى الاستمتاع بالحياة . وتجد مثلا أن العرب خرجوا من بلادهم إلى مصر ثم إلى القيروان ، ولكنهم مروا ببلاد أخرى ففتحوها قبل أن يصلوا إلى مصر . وتجد فيها مثلا أن دولة العرب في الأندلس كانت أعظم دولة أقامها العرب ، وأن مدينتهم في الأندلس كانت أعظم مدينة جاء بها الإسلام .

أحق هذا ؟ أكانت دولة قرطبة أعظم من دولة دمشق وبغداد ؟ أكانت مدينة قرطبة أعظم من مدينة بغداد والقاهرة ؟ وهل يباح لكتاب في الأدب العلي أن يتورط في مثل هذا الكلام المرسل على علته ؟ ! ثم هل أسمح لنفسي بأن ألاحظ

أن الكتاب لا يخلو من إهمال لغوي ، فلا ينبغي أن يقال : « إذا وفقنا الله إلى العودة في هذا الموضوع » ، وإنما يعاد إلى الموضوع لا فيه .

لقد يضيق بي الوقت والمكان عن أن أمضى في نقد الكتاب نقداً مفصلاً ، ولكنني أكتفي بما قدمت ، وأرجو أن يوفق الأستاذ في كتبه المقبلة لهذه الأمانة العلمية التي تنقصه ، والتي تكفل من غير شك لكتبه ما هي أهل له من الإمتقان والفوز .

النقد والأدب والحرية

حول مذهب الأغاني أيضاً

سيدى الدكتور

أحب أن أجادبك الحديث لأننى أشوق ما أكون إليك وإلى حديثك . وأحب أن أعود بك إلى مذهب الأغاني لأن قليلاً على مثل مذهب الأغاني أن تخصص به خطرة وخطرتان من صحيفة الأدب . وإذا فاسمع أقص عليك حديثي :

أملك كتاب الأغاني منذ نيف وعشرين عاماً ، وقد عنيت منذ ملكته بأن أجعله حلية مكتبتي . ولكنى أؤكد لسيدى وأنا من أشغف الناس بالأدب أننى لم أملأ يدي من أدب ذلك الكتاب الكريم على فرط حبي له وإعجابي به وعلمى بأنه المنهل الفيض الذى يصدر عنه علماء الأدب جميعاً .

ومنذ عشرة أيام ملكت الجزء الأول من مذهب الأغاني ، وفي عشرة أيام فقط قرأت الكتاب كله وملاأت يدي منه ، وعرفت أى شعوب العرب وقبائلها ، وأى بطونها وأفخاذها أصلب عوداً في شعوب القبول وأيها أرق نسجاً له .

إنى لأومن بأنى لست من الباحثين المنقرين الذين يسوقهم بحمهم وتنقيرهم إلى قراءة ما أورده صاحب الأغاني من فحش ومجون أو استيعاب تركه « المذهب » مما لا شأن له ولا معنى فيه . نعم لست من أولئك الباحثين المتعمقين . ولو كنت منهم لما أعوزنى أن أرجع إلى الأغاني وقت الحاجة إلى البحث والاستيعاب . واكننى لست بدعاً من سواد المتأدبين الذين يحبون الأدب العربى حباً ملك عليهم مشاعرهم ، ويسرهم كل السرور أن يجدوه بديع النسق داني القطف في كتاب واحد كما أجده في « مذهب الأغاني » .

لم يكن كتاب الأغاني من خواطر أبى الفرج أو إنشائه حتى يكون ترتيبه وتهذيبه وضم كل شكل إلى شكله وجمع كل إلف إلى إلفه . مسخاً وتشويهاً . ولكن أبى الفرج نقل آراء غيره في شعراء العرب ومغنيهم ، فأحسن كل الإحسان في نقله ولم يحسن في وضعه ، فجمع في الجزء الواحد بين أقوام لا صلة بينهم في نسب

الأدب ، وذهب بكل شاعر كل مذهب في تفاريق كتابه . وربما كان في شغل بإجادة الجمع عن إجادة الوضع . فهل يعاب على رجل رأى ذلك النخر مبدأ فنظمه ، وتلك الثروة تائهة فجمعها ، وذلك الأدب الفياض . مكدرأ فصفاه ؟ ! وإذا كان سيدى الدكتور يرى تنسيق كتاب الأغاني وتهذيبه معارضة لأبي الفرج واعتداء عليه وهو لا شخصية له فيه ، فما رأيه في عمل أبي تمام والبحترى في حماستهما وقد عمد كل منهما إلى قصائد لشعراء الجاهلية والإسلام ، وفي كل قصيدة نفس صاحبها وخطرات مشاعره ونزعات سرائره وأسلوب نظامه ، فحذف منها ما حذف ، وفرق بين أجزاء القصيدة الواحدة ، فرد الغزل والوصف والحماسة والأدب منها كلا إلى إلفه من كتابه . فما رأى سيدى ؟ أيعد ذلك مسحاً للأدب وتشويهاً له ؟ وإذا فقد جنى أبو تمام وصاحبه على شعراء العصور الخوالي ؟ أم يرى أنهما قد قرّبا بذلك النسق جنى الشعر من منال الأدباء ؟ !

ليسمح لي سيدى الأستاذ أن أقول : إن يكن أحد أحسن إلى أبي الفرج فالأستاذ الحضري بك ؛ لأنه قرّب إحسانه إلى المتأدين جميعاً ، وإن كتاب مهذب الأغاني كان يجب أن يظهر منذ أجيال بعيدة ، واو هذبه ابن مكرم تهذيب الأستاذ الحضري له لأباح منه الأدباء تبرأ لا ترب فيه .

وبعد ، فهل مبلغ عنى صديقي وأستاذي الجليل أنى أكبر جريدة السياسة وأجل صحيفة الأدب فيها أن يتاح لأناس يتخذونها ذريعة لشقاء حزازات الصدور وحك سخائم النفوس باسم النقد . وإلا فما لنقد الكتب وللتغلغل في كرامات العلماء والنيل من أقدارهم ؟ وهل بهذه الوسيلة يخدم العلم والأدب !! وإذا لم تصن كرامات العلماء في صحيفة الأدب من جريدة السياسة في أى صحيفة نرجو أن تصان !! تلك كلمتى لرجل أجلّ علمه وأدبه ، وأعرف له نبلة ونزاهته . أما ذلك الذى قرأ نقدك فضحك وقهقه ، وما زال يضحك ويقهقه في الترام وتحت وإبل المطر ، فأنت وحدك المشغول عنه لأنك أنت الذى سببت له تلك الحال ! .

والسلام عليك ورحمة الله

« كاتب »

• • •

لست أدري أيوافقنى الأستاذ الحضري على هذا الرأى أم يخالفنى فيه ، وهو أن من الخير لكتاب ناشئ أن يكثر الكلام حوله وتختلف الآراء فيه وتتناوله

الصحف السيارة بالرضا عنه حيناً والسخط حيناً آخر ؛ ففي ذلك إذاعة لأمر الكتاب وإلحاح في الدعوة إليه ، وضرب من الإعلان الجيد المفيد الذي قد يبتغيه المؤلفون بأموالهم فلا يظفرون منه بما يريدون .

إذا كان الأستاذ يوافقني على هذا الرأي فليهنئه أني نقدت كتابه وشددت في نقده ، وأنه ردّ على هذا النقد فنقدت ردّه ، وأن هذا الحوار بيننا قد أهم جملة من المتأدبين فاشتركوا فيه ، ونشرت « السياسة » لهم فصلين يوم الأحد الماضي ، وهي تنشر لهم فصلاً في هذا اليوم . وفي كل هذا ذكر للكتاب وإلحاح في الدعوة إلى الكتاب وتذكير للناس بأن الكتاب قد ظهر وأنه خليق أن يقرأ وينظر فيه . وما أحسب أن الأستاذ كان يظفر من جريدة « السياسة » بإعلان كهذا متصل مفصل متكرر مهما يبذل لها من مال .

على أني أرى لكل شيء حداً ، وأحسب أن قد نشرت « السياسة » في نقد الكتاب والذود عنه ما فيه كفاية ، وأن من الخير لصحيفة الأدب وقراءها أن تنتقل من هذا الموضوع إلى شيء آخر فيه نفع جديد . وما كنت لأستأنف القول حول « مهذب الأغاني » لولا أني رأيت فيما نشرت السياسة صباح الأحد ، وفيما تنشره صباح اليوم ، وفي أشياء كنت أريد أن أنشرها ولكن صاحبها طلب إلى ألا أفعل ، أموراً خليقة أن نقف عندها وقفة قصيرة أخيرة .

الناس يفهمون النقد فهمين متناقضين تناقضاً شديداً ، وكلاهما خاطئ سبب الأثر . ففهم من يفهم من النقد حمداً خالصاً وثناء طيباً وتقريراً من غير تحفظ . والنقد عند هؤلاء ضرب من المدح يقصد منه ترويج الكتاب وإذاعة أمره ورفع صاحبه بين الناس . لهذا لا يكاد أحدهم يفرغ من كتابه حتى يرسله إليك ويسعى به إليك ، وحتى يرجو منك أن تتناوله بالنقد وألا تحرمه كلمة من « كلامك العذب وأسلوبك الحلو وإنشائك الرائع » . وهو يقدر في نفسه أن الكلام العذب والأسلوب الحلو والإنشاء الرائع إنما هو كلامه وأسلوبه وإنشأؤه ، وأن الناقد إنما هو وسيلة لترويج الكتاب والثناء عليه لا أكثر ولا أقل . ومنهم من يفهم النقد على أنه طعن وقذح وتجريح ودلالة على السيئات ، فهو يكرهه ويكره أصحابه ويكره تأليف الكتب حتى لا يتعرض لألسنتهم وأقلامهم ؛ فإن اضطرت حياته وصناعته إلى التأليف فهو يتوسل إلى الناقلين ألا يعرضوا لكتابه بخير ولا بشر ، وأن يخلوا بينه وبين القراء يقرءونه فيرضون عنه أو يسخطون عليه . وقد وصلت

إلى كتب أولئك وهؤلاء ، وقرأت من أولئك وهؤلاء أعاجيب ، وسمعت من أولئك وهؤلاء أيضاً . ولو أتى أخذت أنشر لك طرفاً من هذه الكتب أو أقص عليك شيئاً من هذه الأحاديث لضحكت كما ضحكت ، ولحزنت كما حزنت ، ولكني لا أريد أن أؤذى أحداً ، فلأطو هذه الكتب ، وربما مزقتها ، ولأعرض عن هذه الأحاديث وربما نسيها .

وفي الحق أن الصلة بين النقاد والمؤلفين دقيقة بطبعها لا تخلو من الحرج . فأى مؤلف لا يطمع في الثناء على كتاب بذل فيه من الجهد ما بذل ولقي فيه من العناء ما لقي ! وأى مؤلف لا يكره أن يتناول النقاد جهده ونتيجة جهده بالنقد فيبينوا ما فيهما من ضعف ويدلوا على ما فيها من قصور ! كلنا يحب الثناء ويعتقد أنه مستحق له ؛ وكلنا يكره الذم ويعتقد أنه خليق ألا يتعرض له . ولكن شيئاً ينقصنا مع هذا وهو أن نقدر العلم قدره ، ونؤمن بأن لا قوام للعلم بغير النقد . ولا أكاد أفهم أن رجلاً يستحق أن يوصف بأنه عالم أو أديب أو من طلاب العلم والأدب إذا لم يكن يقدر النقد وحاجة العلم والأدب إليه .

يقدر النقد لا على أنه ثناء خالص ، ولا على أنه هجاء خالص ؛ فليس العلم في حاجة إلى الثناء ، وليس هو في حاجة إلى المهجاء ، وإنما هو يرفع عنهما جميعاً . وإنما ينبغي أن يقدر النقد على أنه تمحيص للعلم ودلالة على ما فيه من حق يجب أن يبقى ، وباطل يجب أن يزول ، أو قل على ما تعتقد أنه حق أو باطل . ولست أدري لم يؤذيك أن يدلك ناقد على أنك أخطأت وأنت لم تأخذ على الأيام عهداً بالإصابة المطلقة . ولست أدري لم تحرص على أن يصفك الناس بأنك موفق للحق أبداً ، ولم يقدر هذا التوفيق لإنسان ما .

النقد إذاً حاجة طبيعية لكل حركة علمية أو أدبية أو فنية . ولكن النقد لا خير فيه ولا نفع منه إذا لم يكن حراً من كل قيد من هذه القيود المنكرة التي تحول بين النقاد وبين أداء واجبهم على وجهه .

يجب ألا يتقيد النقد بالمجاملة وما إليها ؛ فقد تكون للمجاملة أوقاتها ومواقعها ، ولكنها أشد الأشياء منافرة للعلم ، وبعداً عن النقد الصحيح . وما رأيك فيمن يرى الحق فيعرض عنه إرضاء لصديق ، أو رفقاُ بأستاذ ، أو تقرباً إلى ذي مكانة ! أتراه رجلاً حقاً ذلك الذي يؤثر صديقه وأستاذه وصاحب المكانة على الحق من حيث هو وعلى الحق العلمي بنوع خاص ؟ وما رأيك فيمن يرى الباطل فيقره إرضاء

للصديق والأستاذ وذى المكانة ؟ أترأه رجلاً حقاً ذلك الذى يؤثر الناس مهما تكن أقدارهم وصلاتهم على العلم فيرضيهم ليغضبه ؟ كثيرة جداً هذه الأسباب التى تحول بين النقاد وبين حريتهم . ولست فى حاجة إلى أن أحصيها ، فهى أظهر من أن تحتاج إلى أن يدل عليها . وأكبر ظنى أن حرية النقد ليست بدعاً من ضروب الحرية المختلفة ، فهى نتيجة من نتائج التربية الصحيحة وأثر من آثار الأخلاق القيمة . وهى عسيرة جداً فى بلد فسدت فيه الحياة الاجتماعية والسياسية ، واضطر الناس فيه إلى أن يسرفوا فى النفاق والمداجاة ليعيشوا . ولقد آلمنى ما قرأته فى الفصل الذى نشرته « السياسة » فى صباح الأحد لمعلم أراد أن ينقد كتاب الأستاذ الحضري ، فلم يجد بدءاً من إخفاء اسمه حتى على السياسة نفسها لأنه مشفق على راتبه ومنصبه فى وزارة المعارف أن يمسها الأستاذ الحضري ومغربى باشا بأذى

آلمنى ذلك ، لا لأننى أشفق على هذا المعلم من الأستاذ الحضري ، فأنا أعلم أن الأستاذ أشد رعاية للحرية من أن يؤذى الناس فى سبيلها ، بل لأن عاطفة كهذه قد تعبت بطائفة من الناس منهم الأساتذة والمعلمون ، وإذا كان المعلم يخشى النقد الأدبى على راتبه ومنصبه فكيف لا يخشى سلطان السياسة وأهواءها على هذا الراتب والمنصب ! وكيف لا يقف من الوزارات السياسية هذه المواقف المرعبة التى ينكرها عليه الناس ! لا خير فى النقد إذا لم يكن حرّاً . ولكن الحرية شىء ، وتجاوز الحدود شىء آخر . وربما كان من الحق لى أن أنكر على هذا المعلم الأديب شيئاً من تجاوز القصد فى نقده للأستاذ . فقد كان يستطيع أن يقول كل ما يريد أن يقول دون أن يضطر إلى هذه الألفاظ التى تؤذى فى غير نفع . وأنا معتذر إليه من هذا الإنكار ؛ فقد اضطرت إليه اضطراراً ، وكنت أحب ألا أقدم له إلا شكراً خالصاً لحسن ظنه بى ، ولكنى لا أريد أن أؤثر نفسى على الحق . كما أنى معتذر إليه من اضطرارى إلى ألا أنشر فى صحيفة الأدب هذا الفصل الثانى الذى بعث به إلى « السياسة » ناقداً لكتاب الأستاذ الحضري أيضاً . فأنا لم أفكر ولم تفكر « السياسة » فى نقد أخلاق الأستاذ الحضري ولا فى استنباط هذه الأخلاق من مذهب الأغاني . وما كان لى ولا للسياسة أن نفكر فى شىء كهذا ، فليس لنا بأخلاق الأستاذ الحضري شأن . وإنما سبيلنا مع الأحياء أن نعرض لكتبهم وآثارهم العلمية ليس غير ، فأما استنباط الأخلاق

والخصال فسبيلٌ نسلكتها مع القدماء والذين أصبحت حياهم ملكاً للتاريخ .
وإني أعذر المعلم الأديب في تجاوزه حدود الحرية في النقد الأدبي ؛ فقد قلت
إن هذه الحرية أثر من آثار الحياة الاجتماعية والسياسية ، وإذ كنا حديثي عهد
بها في مصر فليس غريباً أن نتجاوز حدودها وألا نفرق بينها وبين الإسراف .

أما بعد ، فهل أنا في حاجة إلى أن أردّ على الكاتب الأديب « أحمد الألفي »
فما يطلب إلى من الإعراض عن تلخيص القصص ؟ وهل أنا في حاجة إلى أن
أثبت للكاتب الأديب أن ليس على الأخلاق منها خطر ؟ وهل أنا في حاجة إلى
أن أثبت له أن الفرق عظيم جداً بين تلخيص القصص وتهذيب الأغاني ؟ وهل أنا
في حاجة إلى أن أثبت بأن كتاب صبح الأعشى كتاب قيم من الوجهة الأدبية
والتاريخية لم يقدره الناس قدره بعد ، وربما لم يكن في الآداب العربية ما يعده؟
وهل أنا في حاجة إلى أن أثبت بأن صاحب صبح الأعشى قد أختصر كتابه وخلصه
في كتاب مطبوع يستطيع أن يرجع إليه إذا كان لا يريد أن يتورط في قراءة
صبح الأعشى .

أما الأستاذ الكاتب الذي نشرت « السياسة » فصله صباح اليوم وأنا أشكر له
أدبه وظرفه ، ولكنني أعتذر إليه إذا لم أصدقه فيما يقول من أنه ملك الأغاني منذ
أكثر من عشرين سنة دون أن ينتفع به حتى ظهر كتاب الأستاذ الحضري .
لا أصدقه لأن أكبر ظني أنه يسرف في الإساءة إلى نفسه دفاعاً عن الأستاذ
الحضري ، وقد لا يحتاج الأستاذ الحضري إلى كل هذا الدفاع . ثم ألفت الأستاذ
إلى أن الفرق عظيم جداً بين ما صنع أبو تمام والبحتري وغيرهما من أصحاب المختارات
الشعرية وما صنع الأستاذ الحضري بكتاب الأغاني . وما أظنه في حاجة إلى معرفة أن
من حتمنا أن نتخير من شعر الشعراء ما نحفظه وما نرويه دون أن يكون لنا الحق
في أن نغير كتب القدماء ونذهب بها غير مذهبهم . وخلاصة القول أني أريد أن
ألفت القراء إلى شيئين : الأول أني ما زلت محتفظاً برأيي كماهلاً في عمل الأستاذ
الحضري ، فهو سيء بالقياس إلى العلماء ، نافع بالقياس إلى عامة
الناس ، وأنفع منه أن تؤلف لهؤلاء الناس كتب مستقلة لا تمشخ كتب القدماء
ولا تشوهها . الثاني أني سعيد كل السعادة بأن أبيع صحيفة الأدب للنقاد جميعاً ،
على ألا يخلو نقدهم من خصال ثلاث : الحرية ، والأدب ، والنفع .

شعراؤنا ومترجم أرسطاطاليس

ربما كان أستاذنا الجليل أحمد لطفي السيد أوفر كتّاب هذا العصر ومؤلفيه حظاً من السعادة وأحقيهم بالغبطة والرضا . فما أعلم أن كاتباً أو مؤلفاً مصرياً ظفر بمثل ما ظفر به الأستاذ من هذا الثناء المتصل والإعجاب الذي لا حد له . وما أعلم أن كاتباً أو مؤلفاً مصرياً في هذا العصر أكره خصومه وأصدقائه على أن يحمدا له عمله في غير بخل ولا تقتير . وما أعلم أن كاتباً أو مؤلفاً مصرياً في هذا العصر أجرى أقلام الكتاب بحمده وتقريظه وأطلق السنة الشعراء بمدحه وإطرائه كما فعل الأستاذ لطفي السيد حين أذاع في الناس ترجمته لأخلاق أرسطاطاليس . فقد أجمع الكتاب على اختلاف أهوائهم ومذاهبهم وعلى افتراقهم في حب الأستاذ والانصراف عنه على حمده وتقريظه وشكر ما قدّم إلى اللغة العربية من خير بترجمة هذا الكتاب . وليس يعني ما كتب الكتاب من رسائل وفصول نشرتها الصحف وقرأها الناس ، وإنما الذي يعنينا هو هذا الشعر الذي أطلق به الأستاذ السنة الشعراء . وأى الشعراء ! شوق ، وحافظ ، ونسيم . فإذا كان من الحق علينا أن نقدم إلى الأستاذ تهنتنا الخالصة بهذا الثناء الطيب الذي هو أهل له ولخير منه ، وإذا كان من حقنا أن نثبت في هذا الفصل أننا لم نكن مختلئين فيما قدرناه يوم كتبنا عن الأستاذ وعن ترجمته لأرسطاطاليس من أن ظهور هذا الكتاب حادث أدبي ليس كغيره من الحوادث — نقول إذا كان هذا كله من حقنا فقد يكون من حتمنا أيضاً أن نقف عند هذه القصائد الثلاث التي أنطق الشعراء بها كتاب الأخلاق لأرسطاطاليس لتبين وجهاً من وجوه القوة الشعرية في هذا العصر عندنا بعد أن بينا في الفصول الماضية شيئاً من وجوه الحياة الأدبية في هذا العصر . وأنا أعلم حق العلم أن من الإسراف أن نحكم على القوة الأدبية في هذا العصر بكتاب « مهذب الأغاني » و « تهذيب الكامل » و « بلاغة العرب في الأندلس » . وأعلم كذلك حق العلم أن من الإسراف والظلم أن نحكم على قوتنا الشعرية في هذا العصر بهذه القصائد الثلاث التي أنشأها شوقي وحافظ ونسيم في مدح الأستاذ لطفي السيد وترجمته لأخلاق أرسطاطاليس . على أن هذا إسراف وظلم ؛ فإن

لشوق وحافظ ونسيم وغيرهم من الشعراء قصائد أخرى قيمة ذهبوا فيها مذاهب مختلفة من الجدل والهزل ، فيها لذة للنفس ، ومتعة للقلب ، ورضا لمن يحب النقد . ولهذا أحب أن يلاحظ القارئ أنى لا أتخذ هذه القصائد عناوين لشعرائها ولا مقاييس لحظوظهم المختلفة من الإجابة والإساءة ، ومن السمو والإسفاف ، وإنما هي فرصة نتحدث إليك فيها عن هؤلاء الشعراء وعن بعض أنحاثهم في الشعر ومذاهبهم حين يعمدون إليه . وليس من شك في أنى لا أبجل بالثناء الطيب العذب على هؤلاء الشعراء جميعاً ؛ فهم حين أنشئوا قصائدهم هذه لم يستجيبوا إلا لعاطفة شريفة قيمة ، هي عاطفة الإنصاف وإكبار من يستحقون الإكبار ، والوفاء لمن هم أهل للوفاء . وليس هذا في نفسه بالشىء القليل ، ولا سيما بالقياس إلى الشعراء . وأنت تعلم أن الأستاذ لطفى السيد على جلال خطره وعلو مكانته في أمته ليس بحيث يستطيع أن يبتز ثناء الشعراء أو يتملق آلهة الشعر ، وما كان ذلك من شأنه ولا من أخلاقه . فشعراؤنا إذا صادقون غير متكلفين ، مخلصون غير متصنعين فيما قدموا إلى الأستاذ من مدح ، وفيما أهدوا إليه من ثناء . بل أنا لا أبجل على شعرائنا الثلاثة بشىء من الثناء غير قليل لما وفقوا له من الوجهة الفنية الخالصة ، فكلمهم قد وفق لشيء من الإجابة لا بأس به ، كلمهم قد جدد في تخير الألفاظ وإتقان النظم وإحكامه ، وإقرار القافية في نصابها ، فوفق من هذا كله للشيء الكثير . وكلمهم قد اجتهد في الغوص على المعاني — كما يقولون — وتلمس الغريب الطريف منها ؛ فلم يخطئه الحظ ولم تفته الطلابة ، وإنما عاد بشىء يمكن أن يحصى له بين الحسنات الشعرية .

على أنى أستأذن من شعرائنا وأستأذن من قبلهم أستاذنا لطفى السيد في أن أكون حرّاً حين أنقد هذه القصائد ؛ فقد تعودت هذه الحرية وحرصت عليها وأكبرتها عن أن أضحيّ بها في سبيل إنسان مهما تكن منزلته من الناس ومنى ولو كان هذا الإنسان هو الأستاذ لطفى السيد أو شوق أو حافظ أو نسيم .

أريد أن أكون حرّاً ، وإذا فأنا معتذر إلى شعرائنا الثلاثة ، إذا لاحظت أنهم جميعاً قد عرضوا لذكر أرسطاطاليس ومدحه والإشادة بآثاره وسلطانه على الأجيال وهم لا يكادون يعرفون من أمره شيئاً . نعم ! ذكروا أرسطاطاليس ومدحوه وهم يجهلون آثاره . وأرجو أن يصدقوني — وهم يصدقوني — إذا قلت إنهم يجهلون حتى كتاب الأخلاق الذى أنشئوا من أجله هذه القصائد . وما أظن أن علمهم

بهذا الكتاب يتجاوز مقدمة الأستاذ لطفى السيد ، وما أحسب أنهم جميعاً قرءوا هذه المقدمة وأحاطوا بما فيها حقاً . وهنا أتردد بين العتب والثناء ، فقد يكون مما يستحق الثناء والإعجاب أن يعمد الشاعر إلى موضوع لا يدركه ولا يحيط بدقائقه وأسراره فيقول فيه شعراً لا يخلو من جودة ولا يبرأ من إحسان . ولكنى ثقيل ملحاح شديد الطمع مسرف فى الحرص على المثل الأعلى ؛ فأنا لا أرضى لشعرائنا الجهل ، ولا أحب لهم أن يعرضوا للأشياء إلا إذا أتقنوها إتقاناً وظهروا على دقائقها وأسرارها حقاً . وقد أفهم أن يقول الشعراء ما لا يفعلون ، ولكنى لا أفهم أن يقول الشعراء ما لا يعلمون ، ولست أرى أنى أغلو فى ذلك أو أسرف ، فما كان الجهل مصدراً للخير ولا وسيلة للإجادة ولا طريقاً إلى البراعة الفنية . وما رأيت فى مثال يطمع فى ابتكار الآيات الفنية وهو يجهل التشريح وما يتصل به من تكوين الجسم الإنسانى وما إلى ذلك من هذه العلوم التى لا سبيل إلى الإجادة الفنية بدونها ! ! إن الإجادة الفنية إذا كانت أثراً من آثار الشعور ومظهراً من مظاهر الحس القوى والعواطف الدقيقة والخيال الخصب فهى لغو إذا لم تستمد غذاءها الحقيقى من العقل والعلم .

وربما كان شوقى أحق الشعراء الثلاثة بأن يعاتب فى هذا الموضوع . نعم ! هو أحقهم بالعتب ، فهو من بينهم قد تعلق بأرسطاطاليس وأراد أن يشيد بذكره ويرفع من شأنه ، وخص له من قصيدته أكثر مما خص للأستاذ المترجم . ولعلك تدهش ولعل شوقى نفسه يدهش إذا قلت لك وله إنه لم يمدح أرسطاطاليس وإنما مدح أفلاطون . نعم ! أراد تحميراً وأراد الله خارجة . ولكنه أراد عمراً بالخير ، فانصرف هذا الخير عن عمرو إلى خارجة ؛ لأن الشاعر لم يحسن تلمس السبيل إلى عمرو . ولولا أن نفوس الفلاسفة والحكماء رضية بطبعها ، لكان من حق أرسطاطاليس أن يخاصم شوقياً وأن ينفّس على أفلاطون أستاذه هذا المدح الذى جاءه من حيث لا يحتسب . أراد شوقى أرسطاطاليس ، وأراد الله أفلاطون . ولست فى حاجة إلى أن أطيل القول فى أن شوقياً لم يمدح أرسطاطاليس ، فيكفى أن نقرأ قصيدة شوقى لنرى أنه يصف أرسطاطاليس بأنه سبق إلى التوحيد فأعلنه قبل البنىة والحطيم ، وقبل المسيح أيضاً ، وبأنه كان قدسى الروح ، وبأن « لطفى » صدى صوته الرحيم ، وبأن رسائله كالسلافة إذا جرت فى جسم النديم . وإذا كان بين فلاسفة اليونان من سبق إلى إعلان التوحيد فليس هو أرسطاطاليس ، وربما لم يكن هو أفلاطون ، بل ربما لم يكن هو سقراط أيضاً ؛ فقد سبق فلاسفة اليونان إلى إعلان التوحيد فى

القرن الخامس قبل المسيح . ولكن الشيء الذى يستحق العناية هو أن هناك فيلسوفاً يونانياً يُقَرَّنُ إلى المسيح وتعتبر فلسفته أصلاً من أصول الديانة المسيحية ومصدراً من مصادرها . وليس هذا الفيلسوف أرسطاطاليس ، وإنما هو أفلاطون ، أفلاطون صاحب المثل ، أفلاطون الذى أمعن فى طلب المثل الأعلى ، والذى استطاع أن يرقى بالنفس الإنسانية والفكرة الإلهية إلى حيث لم يسبقه ولم يدركه فيلسوف بعده ، أما أرسطاطاليس فقد كان مقصوص الجناح ، أو قل لم يكن له جناح يصعد فى السماء . ولهذا لم يصعد أرسطاطاليس فى السماء . ولعله لم يرفع بصره إلى السماء ، وإنما خفضه إلى الأرض ؛ ذلك لأنه لم يكن يستوحى الحق من السماء ، وإنما كان يستنبطه من الأرض استنباطاً . وإذا كان هناك فيلسوف تلامم فلسفته الشعر حقاً ، أو قل إذا كان هناك فيلسوف هو الشاعر حقاً ، فهذا هو أفلاطون لا أرسطاطاليس . ولو عرف شوقى إله أرسطاطاليس ، هذا الإله العاجز الجاهل المفتون بنفسه المنصرف إلى جماله عن كل شيء ، الذى لا يعلم إلا نفسه ، ولا يفكر إلا فى نفسه ، ولا يُعجب إلا بنفسه – أقول لو عرف شوقى إله أرسطاطاليس هذا لرئى لهذا الإله ، ولرئى لأرسطاطاليس نفسه ، ولما استطاع أن يقول :

مَنْ كَانَ فِي هَدْيِ الْمَسِيحِ وَكَانَ فِي رَشْدِ الْكَلِيمِ
وَعَدَا وَرَاحَ مَوْحَّداً قَبْلَ الْبِنْيَةِ وَالْحَطِيمِ

كلا ! لم يكن أرسطاطاليس فى هدى المسيح ولا فى رشد الكليم ، ولم يخطر التوحيد كما نفهمه لأرسطاطاليس ، ولعله لم يخطر لغيره من فلاسفة اليونان القدماء . ولكن الشيء المؤلم حقاً هو أن يقول شوقى عن أرسطاطاليس :

ورسائل مثل السُّلا ف إذا تمشت فى النديم
قدسية النفحات تُس كمر بالمذاق وبالشميم
يا لُطْفِ أَنْتَ هُوَ الصدى من ذلك الصوت الرحيم

أى الرسائل يريد !! ومن الذى يستطيع أن يزعم أن آثار أرسطاطاليس تشبه السلافة من قرب أو من بعد ! ومن الذى يستطيع أن يزعم أن فى رسائل أرسطاطاليس شيئاً قليلاً أو كثيراً من هذه النفحات القدسية ؛ ومن الذى يستطيع أن يزعم أن صوت أرسطاطاليس كان رخياً !!

أفهم جداً ألا يتعمق الشعراء فى فهم المذاهب الفلسفية – وإنما أريد شعراءنا

خاصة - وأعذر شوقي وغيره إذا خيّل إليهم أن توحيد أرسطاطاليس يشبه توحيد المسيح أو توحيد المسلمين ، فهو توحيد على كل حال . وقد لا يصح أن نلج على شعرائنا في أن يدرسوا ما بعد الطبيعة ويتقنوا مذاهب الفلاسفة فيه ، كما كان يفعل أبو نواس ، ولكن الذي لا أستطيع أن أفهمه ولا أن أعذره هو أن يجهل الشعراء وأئمة البيان إلى هذا الحد ، فيخيّل إليهم أن أرسطاطاليس كان حلواً لثّر رنجيم الصوت قدسىّ النفحات ، تشبّه آثاره بالسلافة . صفّ بهذه الأوصاف كلها أفلاطون فلن تبلغ من وصفه ما تريد ، ولكن لا تصف بها أرسطاطاليس . فكفم كدّ ثّر أرسطاطاليس عقولاً وصدع رهوساً . والأستاذ لطفى السيد مع أنه لم يترجم عن اليونانية شهيد بأن ثّر أرسطاطاليس لا يشبه الخمر ولا يشبه العسل ولا يشبه الماء ، وليس فيه من النفحات القدسية قليل ولا كثير ، ولكنه ثّر عالم قد أنقن لغته وعرف كيف يستغلها ويستثمرها ، ويلائم بينها وبين حاجات العلم والفلسفة .

أنت لا تحمد أرسطاطاليس ولا تحسن إليه بهذه الصفات ؛ فقد لا يكون من الخير للعالم أن تكون لغته ساحرة فتانة ؛ لأن العلم لا يحتمل سحر اللغة وفتنتها ، وإنما هو محتاج إلى الدقة وإلى التشدد في الدقة ، وإلى أن يسمى الأشياء بأسمائها - ولكنى قد قلت لك إن شوقي أراد أرسطاطاليس ، وأراد الله أفلاطون .

على أنى أنتقل من هذا العيب إلى عيب آخر يشبهه ، وقد اشترك فيه شوقي ، وحافظ ، ونسيم ، وغيرهم من الكتاب أيضاً ، وهو أنهم لم يقرءوا كتاب الأخلاق ، ولم يقدره قدره ، ولم يفطنوا للغرض من تأليفه ومن ترجمته ؛ فهم قد فُتِنوا بلفظ الأخلاق ، وخيّل إليهم أن أرسطاطاليس قد قصد إلى إصلاح الأخلاق يوم ألفه ، وأن لطفى قد قصد إلى إصلاح الأخلاق يوم ترجمه . ولعل الرجلين قد فكرا في شيء من هذا ، ولكنى أستطيع أن أؤكد للشعراء والكتاب أن الغرض الأول من تأليف الكتاب وترجمته علمى لا عملى ، وأن المؤلف والمترجم أرادا خدمة الفلسفة قبل أن يفكرا في الوعظ والإرشاد . وما أظن أن كتاب أرسطاطاليس في الأخلاق يصلح مرأماً للوعاظ والمرشدين ، وإنما هو مرجع حسن لصديقنا الدكتور منصور حين يدرس علم الأخلاق لطلابه في الجامعة وفي مدرسة الحقوق .

وهل أستطيع أن ألفت شوقي إلى أنه قد مدح أفلاطون ولم يمدح أرسطاطاليس

حين قال :

بني الشرائع للعصور بناء جبار رحيم

فقد يكون أرسطاطاليس درس السياسة ، ووضع في هذا الدرس أصولاً قيمة ، ولكنه لم يبين الشرائع . وإذا كان هناك فيلسوف يوناني شرع للناس فهو أفلاطون صاحب القوانين .

كل هذا يدلنا على ما قدمت من أن شوقى لم يدرس أرسطاطاليس قبل أن يمدحه . فلندع هذا العيب الأساسى إلى ملاحظات أخرى فنية .

انظر إلى هذه الآيات :

| | |
|--------------------|----------------------|
| وسريت من شعب الألب | ب به إلى وادى الصريم |
| فتجارت اللغتان لا | غايات في الحب الصميم |
| لغة من الإغريق قية | مة وأخرى من تميم |

ألاحظ قبل كل شيء أنى لو كنت مكان شوقى لما ذكرت « الألب » بعد أن زعمت أن أرسطاطاليس كان على نهج المسيح وفي رشد الكليم . فالألب مستقر الوثنية اليونانية ، وعلى قمته كان يقوم قصر كبير الآلهة « زوس » . وألاحظ بعد هذا أن القافية قد عبثت بهذه الآيات عبثاً غير قليل . فما وادى الصريم هذا؟ وما صلة لطفى السيد بوادى الصريم وهو إنما نقل أرسطاطاليس إلى وادى النيل !! وما شأن تميم؟ وهل من الحق أن اللغة التى ترجم الكتاب إليها هى لغة تميم؟ وهل نعرف لغة تميم حقاً؟! ولم لا تكون لغة قريش فهى لغة القرآن ، وهى اللهجة العربية الوحيدة التى نعرفها حقاً!! ولكن تيميا والصريم ينتهيان بالميم . وكم كنت أحب ألا يخضع شوقى للقافية هذا الخضوع .

وبعد فإن من الجحود والظلم ألا أثنى على هذا البيت القيم الملائم للحق ملاءمة تامة ، وهو قوله :

لمسوا الحقيقة فى الفنون وأدركوها فى العلوم

هذا البيت آية فى الصدق ؛ فقد لمس اليونان الحقيقة فى الفن وأدركوها دون أن يلمسوها فى العلم . أكرر أن هذا البيت آية فى الصدق ، ومثل جيد للإيجاز البديع . وقد أسرف فى الظلم أيضاً إذ لم أثن على هذا الجمال اللفظى فى قوله :

| | |
|-------------------|---------------------|
| العاشقين العلم لا | يألونه طلب الغريم |
| المعرضين عن الصفا | ثر والسعاية والنميم |

وإن كان لفظ « الصغائر » لا يعجبني . وقد يكون من الإنصاف أيضاً أن أثنى على هذه الأبيات التي تمثل إنصاف شوقي ووفاءه وكرم خلقه :

| | |
|----------------------------------|--------------------------------------|
| قَسَمًا بِمَذْهَبِكَ الْجَمِيلِ | وَوَجْهَ صَحْبَتِكَ الْقَسِيمِ |
| وَقَدِيمَ عَهْدٍ لَا ضَمِيمٍ | لِ فِي الْوُدَادِ وَلَا ذَمِيمٍ |
| مَا كُنْتُ يَوْمًا لِلْكُنَا | تَةً بِالْعُدْوِ وَلَا الْخَصِيمِ |
| لَمَّا تَلَا حَى النَّاسِ لَمْ | تَنْزِلْ إِلَى الْمَرْعَى الْوَحِيمِ |
| كَمْ شَاتَمَ قَابَلْتَهُ | بِتَرْفَعِ الْأَسَدِ الشَّتِيمِ |
| وَشَغَلْتَ نَفْسَكَ بِالْخَصِيمِ | بِ مِنْ الْجُهُودِ عَنِ الْعَقِيمِ |
| فَخَدِمْتَ بِالْعِلْمِ الْبِلَا | دٍ وَلَمْ تَزَلْ أَوْفَى خَدِيمِ |

• • •

ولندع قصيدة شوقي إلى قصيدة حافظ . وليكونن موقفنا مع حافظ أشد حرجاً ومشقة من موقفنا مع شوقي . ذلك لأن حافظاً يزعم شيئاً ونحن نزعم شيئاً آخر .

قلنا إن شعراءنا الثلاثة لم يقرءوا كتاب أرسطاطاليس ، وما نظن أنهم تجاوزوا مقدمة المترجم العربي . ولكن حافظاً يزعم لنا أنه قرأ الكتاب فيقول :

| | |
|------------------------------|------------------------------------|
| إِنِّي قَسَرْتُ كِتَابَهُ | بَيْنَ الْخُشُوعِ وَالْإِعْتِبَارِ |
| فَإِذَا الْمُؤَلِّفَ مَائِلَ | جَنْبَ الْمُرْجَمِ فِي إِطَارِ |
| وَعَلَيْهِمَا نُورٌ يَفِيضُ | مِنَ الْمَهَابَةِ وَالْوَقَارِ |

كلا يا حافظ ! لم تقرأ الكتاب ولم تتجاوز مقدمة الأستاذ لطفي السيد ، ولم تر المؤلف والمترجم مائلين في إطار ، وإنما تخيلتهما كذلك وأنزل شعرك عليهما هذا النور الذي تذكره ، وأنا زعيم بأنك لن تتجادل ولن تمارى فيما أقول .

فلو أنك قرأت الكتاب حقاً ورأيت الفيلسوفين في هذا الإطار يفيض عليهما هذا النور لقلت فيهما كلاماً غير هذا . وهل تريد أن تقنعني بأن شاعراً مثلك مجيداً غنياً خصب الخيال يستطيع أن يقرأ كتاباً ككتاب أرسطاطاليس ويتفهمه دون أن يوحى إليه الشعر آية من آيات البيان في وصف هذا العقل الذي لم تعرف الإنسانية مثله بعد ؟ ! كلا ! أنت كشوقي لا تعرف أرسطاطاليس ولم تقرأ ترجمة الأستاذ لطفي ، ولكنك أحق بالرضا ، وأقل تعرضاً للعب من شوقي . ذلك لأنك ذهبت مذهب أرسطاطاليس فلم تلتمس ما ليس في يدك ، ولم تتجاوز الأفق الذي أنت

فيه ، مدحت لظني خاصة ، وتأديت مع أرسطاطاليس لا أكثر ولا أقل . ومن هنا أحسنت في مدح لظني إحساناً لا بأس به وإن لم يقصر عن مثله شوق . ولكن حدثني عن هذا البيت :

بكتاب أرسطاطاليس تا ج نواذر الفلك المسدار

ألم يثقل عليك ! أتحب هذه الإضافات ؟ ! وما معنى « نواذر الفلك المدار » ؟ وما معنى تاج هذه النواذر ؟ وما معنى أن يكون كتاب أرسطاطاليس تاجاً لهذه النواذر ؟ أعرف أني لا أفهم شيئاً إلا أنك سلكت هذه الطريقة الطويلة لتصل إلى لفظ « المدار » فتظفر بقافية وتحشر في القصيدة بيتاً كنت تستطيع أن تزهد فيه . وكذلك استعبدتك القافية في قولك :

تزن الكلام كأنه ماس بميزان التجار

فما ميزان التجار ؟ وما الحاجة إليه إلا أنه قافية ؟ !

ولكنني أثنى في غير تحفظ على هذه الأبيات الجيدة حقاً ، الصادقة حقاً :

| | |
|---------------------|-----------------------|
| قالوا لقد هجر السية | اسة وانزوى في عقردار |
| ترك المجال لغيره | ورأى النجاة مع الفرار |
| لا تظلموا رب النهى | وحذار من خطل حذار |
| هجر السياسة للسيا | سة لا لنوم أو قرار |
| لو أنهم علموا الذي | ينى لهم خلف الستار |

وإن كنت أجد شيئاً من الابتذال في قوله « ترك المجال لغيره » ، وأشعر بأن لفظ « مع » شديد القلق في هذا الشطر : « ورأى النجاة مع الفرار » . وهلا قال : « ورأى الركون إلى الفرار » .

وهل يأذن لي حافظ في ألا أحب « لقم الطريق » في قوله :

واجعل على لقم الطريق ق صوى تلوح لكل سار

وقد يكون اللفظ صحيحاً ، ولكن ليس كل صحيح جيداً ملائماً للغة الشعر . وأكبر ظني أننا مدينون بهذا البيت كله للفظ « سار » فهو قافية ، والسرى لا يستتبع الصوى والأعلام . والصوى والأعلام تستتبع الطريق ، ولكنها لا تستتبع « لقم الطريق » .

وهل يغضب حافظ إذا لم أرتج إلى قوله:

عجّل بها قبل «الفساد» وقبل عادية البوار

وأنا أعلم أنه يطلب إلى الأستاذ لطفى السيد أن ينشر كتاب «السياسة» قبل كتاب «الكون والفساد» ولكن ألا يشاركنى حافظ في أن ضرورات الشعر قد تكون منكراً أحياناً ، وفي أن التعبير بالفساد عن «كتاب الكون والفساد» ضرب من هذه الضرورات المنكرة ! . ولكن أشد من هذه الضرورة نكراً «عادية البوار» التي جاءت لا أدرى لماذا ! أستغفر الله ! جاءت للقافية ، فأخرها راء ، وويل لشعرائنا من القافية !

وسواء أَرْضَى حافظ أم غضب فسأقول ما في نفسى ورزقى على الله ، كما يقولون . ظن حافظ أن كتاب «السياسة» لأرسطاطاليس قد يعيننا على معالجة السياسة الإنجليزية وحل المسألة المصرية ، ولهذا آثره على كتاب «الكون والفساد» وطلب إلى الأستاذ لطفى أن يقدمه وأن يتعجل في نشره ولم لا ! ألسنا متعجلين في حل المسألة المصرية تتحرق أكبادنا ظمأً إلى الاستقلال التام أو الموت الزؤام ! ولكن كتاب «السياسة» لا يقدم ولا يؤخر في حل المسألة المصرية ولا في فهم السياسة الإنجليزية ، ولن ينتفع به الوفد الرسمى الذى سيعالج «شامبرلين» أو «كرزن» أو «ماكدونالد» ، كما أن الشيخ الحربى لن ينتفع بكتاب الأخلاق حين يريد أن يعظ المجرمين . ولنذع قصيدة حافظ إلى قصيدة نسيم .

* * *

ولكنى متهم حين أعرض لنسيم ؛ فقد تفضل بالثناء على ، وأشار إلى أن لى نيراً يعجبه . على أنى سأكون حراً ، وسأغضب نسيماً كما أغضبت صاحبيه ، فهو مثلهما ينتظر من كتاب الأخلاق ما ينتظران وما لم ينتظر أرسطاطاليس ولا لطفى . وكما أن شوق قد أخطأ حين قارن بين أرسطاطاليس والمسيح ، فقد أخطأ نسيم حين ذكر «هوميروس» على أنه من شعراء المدح ، وحين تمنى أن يوفق لمدح لطفى شاعر كهوميروس . فما كان هوميروس مادحاً ، ولا هو من أصحاب المديح ، وإنما هوميروس وأصحابه أهل قصص وإشادة بذكر الأبطال الذين انقضت عصورهم . فأما صاحب المدح من شعراء اليونان فهو «بسندار» وتلاميذه ؛ وشعراء الإسكندرية خاصة «ككاليماك» و«تيوكريت» وغيرها .

وقد لا تخلو قصيدة نسيم من ملاحظات لفظية وتكلف في شأن القافية ، ولكنني أعتزف - لا لأن نسيمًا ذكرني - بأن قصيدة نسيم أقل تكلفاً من قصيدتي صاحبيه ، بل أعتزف بشيء آخر أبجل من هذا خطراً ، أعتزف بأن في قصيدة نسيم شيئاً من الخفة لم يوفق له شوقي ولا حافظ . وانظر إلى مطلع قصيدته :

شعرٌ يُزَفُّ بلا نسيب وبلا شكاة من حبيب
ما عيبٌ مُرْقِصَةٌ خلتُ من ذكر غانية لِعُوبِ

في هذا الكلام - على أنه عادي - شيء من الظرف والعدوبة . وفي قصيدة نسيم شيء آخر وهو أن شخصيته ظاهرة مؤلة مؤثرة ؛ فهو لم ينس ابنه ، ابنه الذي فقدته ، ولم يكره وهو شاعر أن يتحدث بجزئه وبثه إلى ممدوحه وهو فيلسوف . وأحسب أن الأستاذ لطفي تأثر بهذه الأبيات من قصيدة نسيم أكثر مما تأثر بمدح نسيم وصاحبيه ، فأنا أعرفه حساساً رقيق النفس .

وفي قصيدة نسيم هذه الأبيات التي تقدمه على صاحبيه لأن فيها فكرة طريفة جريئة . أليس يتمنى على الملك فؤاد أن يكل تربية ولي العهد إلى لطفي مترجم أرسطاطاليس ، كما وكل فيليب تربية الإسكندر إلى أرسطاطاليس !

ليت المليك وقد رأى ما فيك من خلق رحيب
يُدلى إليك بناشئ في حجر سُدته ربيب
تسقيه من نهي العلو م ووردها غير المشوب
وتُريه في ريعانه وضح المسالك والدروب
فهنالك الفاروق يصب ح كابن فيلبس المهيب
يمشي بنورك في الصبا ويُسيد باسمك في المشيب

أنا أقدم في هذه المرة نسيمًا على صاحبيه .

للأستاذ سلامة موسى
للأستاذ عباس محمود العقاد

« مختارات سلامة موسى »
« مقالات في الأدب والحياة »

أريد أن أدع هذا العصر الذي نعيش فيه ، لأني أحس شيئاً من الضيق في البحث عنه ودرس كتابه وشعرائه . أحس شيئاً من الضيق لأني أجد فيه نقصاً شديداً ، ولأني أشعر بأن حريتنا محدودة جداً إذا أردنا أن نعرض للمعاصرين بالنقد والتعريض . فخير لنا أن ندع هذا العصر الذي يستمتع أهله بالحرية في حياتهم اليومية ، ولكنهم يكرهون هذه الحرية في حياتهم العقلية ، إلى عصور أخرى لم يستمتع أهلها بالحرية ، ولكن 'مضى' الزمن قد أتاح لنا أن نتناولها بالدرس والنقد أحراراً لا يحدّ حريتنا إلا العلم وما يقتضيه من إخلاص وإنصاف .

أريد أن أدع هذا العصر ، ولكن شيئاً يمسكني ويضطرنني إلى أن أبقى فيه يوماً أو يومين ، ولإني أن أكتب فيه فصلاً أو فصلين ، وأحس في نفسي أني أسىء إلى هذا العصر وإلى حق الحرية العقلية علينا إذا تركته إلى العصور الأخرى دون أن أقول فيه ما أريد أن أقول ، ودون أن أعلن فيه آراء أشعر بها وأرى أن من الحق على إعلانها . فلو أن الناس جميعاً صنعوا مثل ما أصنع وأبوا أن يتناولوا العصر الذي يعيشون فيه بالنقد ، لكانت النتيجة منكراً ، ولتعرضت الحرية العقلية لخطر شديد . وقد يكون من حق الناس أن يحرصوا على الحرية في حياتهم اليومية العادية ، ولكن من الحق عليهم أن يشتد حرصهم على الحرية في حياتهم العقلية . فلأعلن رأياً إذاً ولأكن حرّاً في إعلان هذا الرأي ، ولأبقى في هذا العصر يوماً أو يومين ، ولأكتب فيه فصلاً أو فصلين ، ولأجهد ما استطعت في أن أتبين ما لهذا العصر الذي نعيش فيه من قيمة أدبية قليلة أو كثيرة ، وليكن الناس أحراراً في أن يحمّدوا ذلك مني أو يذمّوه ، وفي أن يعرفوا ذلك أو ينكروه ، فأنا أكتب للناس من غير شك ، ولكنني أكتب لنفسي قبل أن أكتب للناس .

أعترف بأنني قضيت ساعات لذيذة جداً مع الأستاذين سلامة موسى وعباس محمود العقاد ، وأنا لا أعرفهما ولم أتحدث إليهما قط فيما أذكر ، ولكنني مع ذلك

أحمد هذه الساعات التي قضيتها معهما ، وأشكر لها أجمل الشكر ، وأقدم لها عليها أحسن الثناء . قضيت معهما ساعات قصاراً لم تتح لي أن أقرأ كتابيهما القيمين اللذين سأحتفظ بهما أمامي حتى أفرغ من قراءتهما متى أذن العمل وسمحت بذلك الظروف ، ولكني قرأت في كتابيهما فصولاً ، وأنا سعيد مغتبط بأن أعلن أني لم أسف على الوقت الذي أنفقته في قراءة هذه الفصول ، وإنما حدثت إنفاق هذا الوقت الذي أنفقته وأنا أتمنى أن يتيح لي العمل وظروف الحياة وقتاً آخر أنفقه في إتمام الكتابين ، بل في استعادة فصول منهما .

لست أدري في أي كتاب فرنسي قرأت أن موسيقياً استمع لموسيقى آخر وهو يُوقع على البيانو ، استمع له ساعة أو ساعتين ثم قال له : حسبك ، فقد عرفت الآن صوت نفسك . يريد أنه عرف موسيقاه وأسرارها وخواصها وما بينها وبين نفسه من صلة .

لست أدري أين قرأت هذا الكلام ، وأحسبني قرأته في كتاب من كتب الأديب الفرنسي المعروف « رومان رولان » . وسواء أصدقتني الذاكرة أم كذبتني فأنا لم أخترع هذه القصة اختراعاً ، وإنما قرأتها في كتاب ، وأنا أستعيدها الآن وقد قرأت فصولاً من كتاب الأستاذ سلامة موسى وفصولاً أخرى من كتاب الأستاذ عباس محمود العقاد ، ولم أتم قراءة الكتابين ، لأقول لها : حسبكما ، فقد عرفت صوت نفسيكما وأنا بهذه المعرفة مغتبط سعيد .

وأنا أعلم حق العلم أن الناس جميعاً سيقبلون مني ما أقول في الأستاذ سلامة موسى مهما يكن ؛ لأن الأستاذ سلامة موسى ليس من أصحاب الألوان السياسية الظاهرة ؛ فقد يكون سعيداً ، وقد يكون حراً دستورياً ، وقد يكون وطنياً ، بل قد يكون اتحادياً ، ولكنه على كل حال لا يعلن رأيه السياسي أو لا يتكلف إعلانه ولا يتخذ لنفسه لونا . وإذا فأنا حرّ في أن أحمد كتابه أو أن أذمه ، وأنا حرّ في أن أتناوله بالنقد أو التقرير ، لأنه ليس من أصحاب الألوان السياسية الظاهرة ؛ فالناس ينظرون إليه كما ينظرون إلى كاتب مفكر ليس غير .

أما الأستاذ عباس محمود العقاد فله شأن آخر ، لنقده أو تقريره شأن يخالف نقد الأستاذ سلامة موسى أو تقريره . ذلك لأن الأستاذ عباس محمود العقاد من أصحاب الألوان السياسية الظاهرة ، وأي لون سياسي ! وأي ظهور ! هو سعدى مغرّق في السعدية ، وهو كاتب من كتاب « البلاغ » وإذا فعاداتنا

وآدابنا السياسية تقتضى أن نسلك معه طريقاً غير الطرق التي نسلكها مع المحايدين أو مع الأنصار السياسيين . فإذا تجاوزنا هذه الطريقة الخاصة التي تقتضيها الخصومة السياسية الحزبية فلن نعدم من خصومنا السياسيين من يتخذ هذا حجة علينا ، ولن نعدم من أنصارنا السياسيين من يخالفنا في الرأي أو من يغاضبنا مغاضبة تختلف شدة وضعفها باختلاف مزاجه وطبيعته وقوة إيمانه بمذهبه السياسى . ومع ذلك فقد أخذت نفسى بأن أكون حرّاً فى النقد ، وأعطيت على نفسى موثقاً من الله لأكون حرّاً مطلق الحرية ، ولأنسين فى هذا النقد صلوات المودة والقربى وعواطف الرضا والسخط . وإذا كنت قد أخذت نفسى بتلك الخصلة وأعطيت على نفسى هذا الموثق وتناولت الأصدقاء والزملاء والأساتذة بالنقد والتقريظ ، لم أصطنع فى هذا كله إلا الإنصاف والحق ، فقد يكون لى أن أتجاوز الخصومات السياسية ، وأن أجعل خلاف الأحزاب دبر أذنى وتحت قدمى ، لأقول كلمة حق فى الأدب ليس بينها وبين السياسة والأحزاب صلة .

فليطمئن خصومنا السياسيون ، وليطمئن أنصارنا السياسيون أيضاً ، وليعترف أولئك وهؤلاء بأن للعلم والأدب حقهما فى الوجود لى جانب السياسة والأحزاب . وإذا كان من الحق أن ليس للعلم والأدب وطن ، فمن الحق أيضاً أن ليس للعلم والأدب حزب سياسى . وإذا كنت قد أخذت نفسى بأن أكون حرّاً فى النقد فلا تكن حرّاً حقاً ، ولأنس فى سبيل الأدب والعلم مذهبي السياسى كما نسبت عواطف المودة والقربى ومكانة الزميل والأستاذ . والناس أحرار فى أن يذهبوا مذهبي أو ينصرفوا عنه ؛ فقد قلت وأعيد أنى أكتب لنفسى قبل أن أكتب للناس .

ليطمئن أولئك وهؤلاء مرة أخرى ؛ فأنا أمقت المذهب السياسى للأستاذ عباس العقاد مقتاً شديداً وأزدريه ازدراء لا حد له ، ولا أقرأ للأستاذ العقاد فصلا من هذه الفصول السياسية التي يكتبها فى « البلاغ » ولن أقرأ منها فصلا ، بل لم أقرأ من فصولها الأدبية فصلا فى « البلاغ » ، ولولا أنها جمعت فى كتاب وانفصلت عن هذا السخف السياسى المنكر الذى تنشره هذه الصحيفة السخيفة لما قرأتها ولا نظرت فيها ، ولكنى رأيت أمامى كتاباً فى الأدب ؛ فنظرت فيه وقرأت بعض فصوله ، ورأيت أنه خليق أن يتقد وأن تقال فيه كلمة حق وإنصاف . سأنتقده وسأقول فيه كلمة الحق والإنصاف هذه ، وسيكون هذا النقد وهذا الإنصاف فى جريدة السياسة التي تخاصم السعديين وتزدري سياستهم ؛ لأن « السياسة »

إلى جانب مذهبها السياسي الحزبي مذهباً آخر تقدّسه وتجدّه في تقدّسه ، ولا يفهمه غيرها من الصحف ، وهو حرية الرأي مهما يكن صاحبه ومهما يكن لونه السياسي .

واكن أريد أن أبدأ بالأستاذ سلامة موسى ، لأنني لن أتكلّم عنه كثيراً كما أريد أن أتكلّم عن الأستاذ محمود العقاد .

لن أتكلّم عنه كثيراً لأنه ليس في حاجة إلى كلام كثير ؛ فهو ساذج سهل خفيف الروح محبب إلى النفس ، شديد البغض للتكلف قليل الحظ منه أو ليس له منه حظ ما . وإذا فأنت تستطيع أن تكنفي بأن تقول عنه إنه كاتب خصب مجيد . هو كاتب خصب قبل كل شيء ، ويكنفي أن تقرأ هذا الكتاب الذي أذيع في الناس منذ حين أو أن تقرأ طائفة من فصوله لتعلم أني لم أكذبك ولم أسرف عليك ؛ فقد تناول موضوعات مختلفة شديدة الاختلاف ، وعرض لمسائل مفرقة عظيمة الافتراق ، وأنت مع ذلك تجده يتنقل في هذه الموضوعات والمسائل في غير تكلف ولا مشقة كما يتنقل الرجل في بيته الذي ألفه وأطال الإقامة فيه من غرفة إلى غرفة ومن حجرة إلى حجرة دون أن يشعر بوحشة أو غربة . هو خصب بل شديد الخصب ؛ لأنه كثير القراءة ، وأحسبه مسرفاً فيها ؛ فهو يقرأ في الأدب العربي ، وهو يقرأ في الأدب الغربي ، وهو يقرأ ضروباً من العلم مختلفة وألواناً من الفلسفة متباينة . وهو لا يقرأ لنفسه وحدها وإنما يقرأ لنفسه وللناس أيضاً ، ليس بجيلاً ولا ضنياً ، ليس أثراً ولا مجدداً في حب نفسه ، لا يريد أن ينتفع وحده ، وإنما يريد أن ينتفع الناس معه . ولعله يكره أن ينتفع وحده دون أن ينتفع الناس معه .

قلت إنه يقرأ في الأدب العربي والغربي ، ويلم بضروب من العلم وألوان من الفلسفة . وقلت قبل هذا إنني لم أعرفه ولم أتحدث إليه . وإذا فلم أعرف عنه كثرة القراءة وتنوعها إلا لأنني رأيتُه يتحدث في موضوعات كثيرة متنوعة ، ويتحدث فيها عن علم وبصيرة وعن دراية وفهم . وهو كثير القراءة متنوعها ، وهو كثير الاستفادة من هذه القراءة المتنوعة والانتفاع بها ؛ فقد منحته شيئاً من الذوق وحسن الفهم قلما يظفر به المصريون . تقرؤه فكأنك تقرأ أحد كتاب الإنجليز الذين أحسنوا الدرس وثقفوا عقولهم تنقيفاً متقناً . هو مثقف حقاً ، ولكني أريد أن أكون حرّاً ، ولن يكره مني الأستاذ سلامة موسى أن أكون حرّاً معه ، فالمثقف حقاً

يجب الحرية ولا يكرهها . وأنا أشهد أنه مثقف حقاً ، وإذا فأنا أستبيح لنفسي أن أكون حرّاً في نقده .

ينخيل إلى أنه يسرف في القراءة ، وينخيل إلى أن إسرافه في القراءة هذا يحمله على الإسراف في الكتابة أى يحمله على تناول موضوعات لم يتقنها ولم يقتلها ، لا أقول علماً ، وإنما أقول بحثاً وتفكيراً . وأحسبه لو فكر فيما يعلم واصطنع الأناة فيما يكتب ، لاستطاع أن يتجنب شيئاً من السخف يتورط في مثله كبار الكتاب حين يمتنون الأناة والروية فيما يكتبون .

يقول الأستاذ سلامة موسى مثلاً : إن المصريين القدماء فكروا في الموت كثيراً وتحدثوا عن الموت كثيراً . وهذا حق لا شك فيه ، ولكن الذى لا أستطيع أن أفهمه ولن يستطيع الأستاذ أن يفهمه إذا خلا إلى نفسه هو قوله : إن تفكر المصريين في الموت كثيراً وذكرهم للموت كثيراً قد استتبعها هذه النتيجة الغربية ، وهى أن الأمة المصرية ماتت موتاً لم تمته أمة أخرى ، ففقدت استقلالها ألنى عام . هذا إسراف في القول ولعب بالألفاظ . فقد تكون الأمة المصرية نامت ولكنها لم تمت . وليست العاطفة الوطنية ولا تملق الجماهير هو الذى يحملنى على أن أنكر أن الأمة المصرية قد ماتت في عصر من عصورها ؛ فأنا شديد المقاومة في العلم للعواطف الخاصة على اختلافها ، وأنا قليل الاكتراث لعواطف الجماهير وأهوائها ، ولكنى مع ذلك أعتقد أن الأمة المصرية لم تمت قط وهى لم تفقد استقلالها ألنى عام ، ولئن كانت قد فقدته حيناً أو أحياناً إنها لم تنسه قط . ولو أن الأستاذ سلامة موسى فكر قليلاً لرأى ما أرى ولقال كما أقول . لم تمت الأمة المصرية ؛ وآية ذلك أنها لا تزال حية تشعر وتحس وتفكر وتناضل في سبيل الحياة . ولم تنس استقلالها يوماً منذ دالت دول الفراعنة ؛ وآية ذلك أن الأجانب الذين تسلطوا عليها قد اضطروا دائماً إلى إحدى اثنتين : إما أن يتجنسوا بجنسيتها المصرية ويندمجوا فيها ، وإما أن يأخذوا مصر بشيء من العنف والقهر يشبه الأحكام العرفية ، كذلك اتخذ المقدونيون والمماليك والفاطميون الجنسية المصرية ، فأتيح لهم الجهد واستقرار الملك وأصبحت دولهم مصرية كدول الفراعنة ، وأبى الفرس والرومان والبيزنطيون الأولون أن يتجنسوا بالجنسية المصرية ، فلم يستقر لهم أمر في مصر إلا بالعنف والقهر وبالسطو والبأس . لم تمت الأمة المصرية ، ولم تنس استقلالها . ومتى ماتت هذه الأمة ؟

أكانت مية حين أساغت الفلسفة اليونانية وطبعها بطابعها الخاص ؟

أكانت ميتة حين أساغت الديانة المسيحية وطبعها بطابعها الخاص ؟

أكانت ميتة حين أساغت الإسلام وطبعته بطابعها الخاص ؟

أكانت ميتة حين آوت حضارة اليونان والعرب وآداب اليونان والعرب ؟

ومع هذا فهي قد فعلت هذا كله في العصر الذي يزعم الأستاذ سلامة موسى أنها كانت فيه ميتة قد فقدت الاستقلال . وهبها ماتت حقاً وفقدت استقلالها حقاً ، أفتظنها ماتت لأنها أكثر التفكير في الموت وأسرفت في ذكر الموت ، كما يقول الأستاذ سلامة موسى ؟ وكيف يستطيع رجل كالأستاذ قد ألم بضروب من العلم مختلفة وذاق ألواناً من الفلسفة متباينة أن يعتقد أنه يكفي أن تفكر في الموت ونذكره لموت ! ولكن الأستاذ لا يعتقد هذا ولا يريد ، وإنما فتنته صورة لفظية حلوة ، وهي أن الأمة المصرية ماتت لأنها أسرفت في ذكر الموت . فتنته هذه الصورة اللفظية فصرفته عما كان فيه من جد . وقد أفهم أن يلهو الكاتب ويداعب الفن ، ولكني أريد أن يكون الكاتب حريصاً ، لأنه وإن كان يكتب لنفسه فالناس يقرءون ما يكتب ، وهم لا يفهمونه كما يفهمه ، ولا يقدرونه كما يقدره ، وإذا فشىء من الاحتياط لا بأس به .

كان اليونان يتخذون لأنفسهم مثلاً قامت عليه فلسفة سقراط وأفلاطون وأخلاق أرسطاطاليس ، وهو : « لا تسرف » . وأحسبني محتاجاً إلى أن أذكر الأستاذ سلامة موسى بهذا المثل الحكيم ؛ فهو من أنصار الحديد ، وهو يعلم أني أرى رأيه وأشاره فيه دون تحفظ ولا احتياط . ولكن نصره للجديد قد اضطره إلى شيء من الإسراف كنت أحب - وما زلت أحب والأستاذ مثلي يجب - ألا يتورط فيه الباحثون المصنفون وهو مسرف في ازدياد الأدب العربي القديم والغرض منه . وقد أفهم ألا يكون هذا الأدب القديم كما هو ملائماً كله لذوقنا الحديث أو كافياً لحاجات أنفسنا ، ولكن القدماء لم يضعوا أديهم لنا وإنما وضعوه لأنفسهم . وليس من شك في أن هذا الأدب القديم كان يلائم أذواق القدماء وحاجات نفوسهم ، فإذا لم يلائم أذواقنا وأهواءنا فلنبتغ غيره لا أكثر ولا أقل . وهو مسرف أيضاً حين يقول : إن الأدباء المصريين لم يكن لهم شأن في حركة الاستقلال ؛ فهم لم يقودوا الأمة في هذه الحركة ، وإنما قادتهم الأمة ، بل قادهم الرعاع إلى الاستقلال . قد يكون هذا حقاً بالقياس إلى هؤلاء الشعراء الذين تبعوا الجمهور ولم يتبعهم .

ولكن الأستاذ نفسه قد كتب فصلاً عن المجددين ذكر فيه الأفغانى ومحمد عبده وقاسم أمين ولطفى السيد ونسى فيه مصطفى كامل ، فما رأيه في هؤلاء ؟ ألم يكونوا من الأدباء ؟ أقادوا الأمة إلى الاستقلال أم قادتهم الأمة إلى الاستقلال ؟ يقول الأستاذ إن لطفى السيد قد أوجد فكرة الوطنية وجمع حولها المسلمين والأقباط . وهذا صحيح ، وصحيح أيضاً أن الأستاذ لطفى السيد قد أوجد فكرة الاستقلال التام قبل أن تعلن الحرب الكبرى وقبل أن ينشأ الوفد وقبل أن يؤم الثلاثة دار الحماية . وإذا فتح احتفاظنا بالنسبة نستطيع أن نقول : إن مصر لم تخل من « روسو » و « منتسكيو » و « فولتير » . والأستاذ مسرف في هذا الفصل الذى كتبه عن الوزير الفرنسى « مرسيل سانبا » . فلست أدري إلى أى حد كان هذا الوزير من كبار الأدباء الذين يؤبه لهم في الأدب ، ولكنى أعلم أنه كان من زعماء الاشتراكية ، وكان بحكم مذهبه السياسى يؤثر العلم على الأدب . وقد سمعته يخطب فلم يعجبني ، وهو لن يعجبك إذا قرأت ما نقل عنه الأستاذ سلامة موسى ، فهو يذم الفلسفة ويفرق في ذمها ، ولكنه مع ذلك يفلسف حين يذكر أن لكل فرد نفسين : نفساً فردية وأخرى اجماعية ! كأن الإنسانية قد فرغت من إثبات وجود النفس الفردية لتشتق بالبحث عن هذه النفس الاجتماعية الجديدة . وهو يذم الأدب ويزدرية ، ولكنه يغرق في الخيال حين يزعم أن الإنسانية بعد ثلاثة قرون ستستطيع أن تسبح في الكون ، وأن تنتقل من كوكب إلى كوكب ، وأن تهجر من الأرض إلى أى كوكب يروقها ؛ قد يكون هذا كله حقاً بعد قرون ، ولكنه الآن خيال ، وهو إلى الأدب أقرب منه إلى العلم .

كتاب الأستاذ سلامة موسى روضة قيمة نضرة ، لا تستطيع أن تلم بها دون أن تجد فيها فائدة ولذة .

أما الأستاذ عباس محمود العقاد فأريد أن أنقده ، ولكنى أعترف بأنى خائف متهيب ؛ لأنه مهيب مخوف . فلأكن شجاعاً ، ولأهجم على كتاب الأستاذ في ثبات وأمن ، ولأعترف بأنى أحسست حين نظرت في هذا الكتاب شيئين متناقضين أحسست خطأً وأحسست رضاً ، وبعبارة واضحة أحسست غموضاً وضحاً ، وأحسست وضوحاً وقيمة ، ولأفصل :

قرأت مقدمة الكتاب فسخطت وضجرت وضقت ذرعاً بالكاتب وكتابه ، وأكرهت نفسى على المضى فى قراءته ، ذلك لأنى لم أفهم من المقدمة شيئاً نعم ! لم أفهم منها شيئاً . ويقىنى أن المتواضعين أمثالى لن يفهموا من هذه المقدمة شيئاً ، لا لأنها لا تدل على شىء ، بل لأنها أدق من أن تتناولها العقول المتواضعة . أنا أريد أن يضحك الأستاذ العقاد ، وأزعم أنه لم ولن يفهم من مقدمته شيئاً ، لا لأنها لا تدل على شىء بل لأنها أدق من أن يفهمها عقل الأستاذ العقاد نفسه . سألت نفسى حين كنت أسمع هذه المقدمة : هل درس المؤلف اللغة الألمانية ؟ وهل تعمق فى الفلسفة الألمانية حتى طبعته بطابعها ووسمته بسمتها ؟ وأحب أن يضحك الأستاذ العقاد وأن يضحك القراء جميعاً منى لا من المؤلف ، وأحب أن يكون أول الضاحكين صديقى منصور فهمى . فأنا أعتز بأن الفلسفة الألمانية تمتاز عندى بالغموض والإبهام ، وأن الله لم يوقفنى فى يوم من الأيام لى أن أفهمها أو أجد فيها لذة إلا حين كنت أقرؤها فى الكتب الفرنسية الملخصة . ومع ذلك فقد وجدت لذة عند أفلاطون وأرسطاطاليس والفارابى وابن سينا ، بل عند الدوائى والتفتازانى ، وعند « ديكارت » و « كونت » و « إسبنسر » و « بركسون » ، وجدت اللذة العقلية عند هؤلاء جميعاً . ماذا أقول ! بل وجدتُها عند « جوت » و « سيلير وهين » ولكنى لم أجدُها عند « أمانويل كانت » ولا عند « هيغل » . ولقد ضقت ذرعاً غير مرة بنقد العقل الخفض ، ونقد العقل العملى ، وانصرفت غير مرة عن المؤلف لى الشراح الفرنسيين لأعرف شيئاً عما أراده فيلسوف ككنتزبرج . إذاً فأنا أعتز بأن مقدمة الأستاذ العقاد قد ذكرتنى بتلك الأيام السود التى قضيتها مع « كانت » و « هيغل » ، وآهمت فيها نفسى بالغبوة والجهل ، وقلت مدعناً لقضاء الله ضاحكاً من نفسى ومن الفلسفة ومن الفلاسفة : وفوق كل ذى علم علم . وإذاً فقد ضقت ذرعاً بالعقاد وكتابه ، وبحث فى غير نفع عن الجمال كما يريدُه العقاد فى مقدمته ، وعن الحياة كما يريدُها العقاد فى مقدمته ، فلم أجد شيئاً ، أو قل وجدت شيئاً أكرهه ، وهو أنى جاهل غبى قاصر عن فهم العقاد ، فقلت : وفوق كل ذى علم علم . وأخذت أفكر فى الغموض وأسبابه ، وانتهيت فى ذلك لى نظريات قد يتيح الله لى من الوقت والفرص ما يمكننى من ذكرها وتفصيلها ، ولكنى أكتفى الآن بالإشارة لى أنى قلت فى نفسى : إن من الغموض ما يصدر عن جهل وغفلة ، كغموض قوم لا أريد أن أسميهم الآن لأنى لا أريد أن أضيف

خصوصاً إلى خصوم ، وحسبي العقاد وأنصار العقاد . ومن الغموض ما يصدر عن إسراف في العلم والفلسفة وتصور اللغة والبيان ، ومثلت لذلك بالعقاد ، أقولها وأمرى إلى الله . ومن الغموض ما يصدر عن طول اللسان وقصر العقل ، ومثلت لذلك بأديب ثرثار في غير طائل ولكنه لا يخلو من أصل قيم ، ولا أريد أن أسميه لأن فله يومه ، وويل له مني وويل لي منه . ولأعد إلى العقاد . تركت هذه المقدمة الجبارة الطاغية ، ومضيت في الكتاب فإذا علم حقاً ، وفهم حقاً ، وعقل المخليق أن يلتفت الناس إليه ، وما أشك في أنهم قد فعلوا ؛ فقد وصل صوت الأستاذ إلى بغداد وكتب إليها منه كاتبون ، وهو خليق حقاً بهذه الشهرة .

اعترف بأن الأدب ثقيل أحياناً ! لأنه ينسبك الخصومة السياسية ويجب إليك خصمك السياسي كما حجب إلى أدب العقاد ، وبأن السياسة ثقيلة أحياناً لأنها تنسبك القرابة الأدبية وتبغض إليك الأدب كما بغضت سياسة العقاد أحياناً أدب العقاد . ولست أخدع نفسي ؛ فن الأدباء الذين يخاصمونني في السياسة ويرون فيها رأياً غير رأبي من يقول في ما أقوله في العقاد . ولقد سمعت شباباً من السعديين يقولون في محكمة الجنائيات وقد خلبتهم بلاغة المحامين الذين كانوا يدافعون عن « السياسة » : ما أكفأهم أولاد الكلب لو لم يكونوا عدلين ، وأنا أعتذر إلى أساتدتنا من رواية هذا الكلام المنكر ، ولكنه يؤرخ أخلاقنا وآدابنا في هذا العصر .

أعجبت إذاً بكتاب العقاد ولم أقرأه كله وإنما قرأت منه فصولاً . ومهما تكن الظروف فلا بد من أن أقرأ ما بقي منه ؛ أعجبت بفهمه للأدب كما ينبغي أن يفهم الآن ، واحتياطه من الإسراف الذي تورط فيه الأستاذ سلامة موسى أحياناً والدكتور أحمد ضيف دائماً . أعجبت بتوفيقه إلى التفرقة بين حاجات القدماء والحديثين ، وأعجبت بدقته في فهم المزل الأدبي والأدب الذي هو هزل كله . أعجبت بهذا كله إعجاباً لا حد له ولا تحفظ فيه ، لولا أن لغة الكاتب لا ترضيني من كل وجهة ، ففيها إهمال ، وهي لا تخلو من غموض ، مصدرها أن عقل الأستاذ أطول من لسانه . على أن شيئاً في الكتاب أعجبنى بنوع خاص وهو هذه الفصول التي كتبها عن أبي العلاء عامة وعن رسالة الغفران خاصة ، لم أكد أرى هذه الفصول حتى حرصت على قراءتها حرصاً شديداً ! لأنني كما تعلم شديد الصلة بأبي العلاء ،

وأحب أن أرى آراء الناس فيه وأن أتبين مقدار ما بين هذه الآراء وبين آرائى من قرب أو بعد .

أول هذه الفصول يتناول حزن أبي العلاء وتشاؤمه . وليس ينكر أحد أن أبا العلاء كان حزيناً غالباً في الحزن ، ومتشائماً مسرفاً في التشاؤم . والناس جميعاً أحرار في أن يحزنوا وأن يتشاءموا كأبي العلاء ، أو أن يتهجوا ويتسموا كأصحاب اللذة ، أو أن يتوسطوا بين الأمرين . الناس أحرار ، وهم لم ينتظروا أن نقول لهم هذا ليكونوا أحراراً وليذهبوا في الحياة أحد هذه المذاهب الثلاثة . وإذا للعقاد أن يحزن كما يحزن أبو العلاء ، أو أن يتهج كما يتهج أبو نواس ، أو أن يتخذ بين الأمرين مكاناً وسطاً . فالأمر في هذا راجع إلى الطبيعة والمزاج قبل أن يرجع إلى العقل والتفكير . ولكن الذى أخالف العقاد فيه مخالفة شديدة هو زعمه في فصل آخر أن أبا العلاء لم يكن صاحب خيال حقاً في رسالة الغفران ، هذا نكر من القول لا أدري كيف تورط فيه كاتب كالعقاد . نعم إن العقاد كاتب ماهر يحسن الاحتياط لنفسه ، فهو بعد أن أنكر الخيال على أبي العلاء عاد فأثبت له منه حظاً قليلاً ، ولكنه يستطيع أن يخدع بهذا الاحتياط قارئاً غيرى ، أما أنا فلن أنخدع له . فهو ينكر على أبي العلاء أن يكون شاعراً عظيم الحظ من الخيال في رسالة الغفران . « سنه سوده » كما يقول العامة . وهل يعلم العقاد أن « دانت » إنما صار شاعراً نابعة خالداً على العصور والأجيال واثقاً من إعجاب الناس جميعاً بشيء يشبه من كل وجه رسالة الغفران هذه ؟ أستغفر الله ! إن من الأوربيين الآن من يزعم أن شاعر فلورنسا قد تأثر بشاعر المعرة قليلاً أو كثيراً .

وما الخيال ؟ أما إذا كان الخيال ملكة تمكن الكاتب أو الشاعر من أن يخترع شيئاً من لا شيء أو يؤلف شيئاً من أشياء لا ائتلاف بينها ، فلم يكن أبو العلاء على حظ من الخيال لأنه لم يخترع في رسالة الغفران شيئاً من لا شيء ولم يؤلف بين متناقضات ، ولكننا نعلم أن علماء النفس لا يسمون هذه الملكة خيالا وإنما يسمونها وهماً ، وهم يبنوننا أن الخيال لا يخترع شيئاً من لا شيء وإنما يستمد صورته ونتائجها من الأشياء الموجودة يؤلف بينها تأليفاً غريباً يبهر النفس ويفتها . وإذا كانوا صادقين — ونحسبهم صادقين — فحظ أبي العلاء من الخيال في رسالة الغفران لا حد له . ليس لأبي العلاء حظ من الخيال ؛ وإذاً فإذا يلدنا من رسالة الغفران ؟ ولم يعجبنا حوار هؤلاء الشعراء والعلماء وذكر اللجنة والنار وما فيهما ؟ أليس لأن خيال أبي العلاء

الخصب القوى قد استطاع أن يؤلف بين هذا كله تأليفاً غريباً قيماً لذيذاً ! لم يكن أبو العلاء ملزماً أن يخترع الشعراء والعلماء والجنّة والنار ! فـ « دانت » لم يخترع « فرجيل » ولم يخترع الجحيم ولم يخترع الأشخاص الذين لقيهم فيه ، وإنما استمدهم جميعاً من الأدب القديم أو من الدين المسيحي ، ومع ذلك فهو صاحب خيال ، وخياله هذا مصدر مجده الخالد . لا تقل إن حظ أبي العلاء من الخيال قليل ، بل قل إن حظه من الخيال عظيم جداً قيم جداً خليق بالخلود ، لأنه الخيال الخصب المنتج حقاً ، هو الخيال الذي تجده عند « دانت » والذي تجده عند « أناتول فرانس » . عند « أناتول فرانس » بنوع خاص . وما أقوى الشبه بين أناتول فرانس وأبي العلاء ! ليس بين الرجلين إلا فرق واحد ، وهو أن تشاؤم الكاتب العربي محزون مظلم ، وتشاؤم الكاتب الفرنسي مبسم مشرق . ومن غريب الأمر أن من الفرنسيين من ظلم أناتول فرانس على هذا النحو الذي يظلم عليه العقاد أبا العلاء . انخدع بعض النقاد الفرنسيين بكثرة ما يروى أناتول فرانس عن قدماء اليونان والرومان في القرون الوسطى فقالوا : إن الرجل لا شخصية له وإنما هو يجمع آثار غيره لا أكثر ولا أقل . ويكاد العقاد يقول هذا في رسالة الغفران ! لأن أبا العلاء ملأها بما رواه عن الشعراء والعلماء والفلاسفة ، وما أخذ عن رجال الدين . ولكن غير العقاد خليق بأن يتورط في مثل هذا الخطأ . فسرّ البلاغة — ولقد كدت أقول الإعجاز — أقوى وأظهر في رسالة الغفران من أن يغفل عنه أديب كالعقاد .

أرى أن العقاد قد وفق التوفيق كله لفهم السخرية العلائية في رسالة الغفران . ولعل أول من سبق إلى ذكر هذه السخرية ، ولعل لقيت في سبيل هذه السخرية العلائية شيئاً من العنت والأذى . ولكني كنت أحب أن يذهب العقاد في تحليل هذه السخرية العلائية إلى أقصى ما تنهى إليه حرية البحث . فلم يكن أبو العلاء ساخراً من الناس في حياتهم العادية ولا أمالمهم وأعمالهم وحدها وإنما رسالة الغفران مثل قوى شنيع للسخر بما كان للناس من مثل أعلى في الدين ؛ فهو لا يسخر من شهواتهم ولذاتهم ، وإنما يسخر من دينهم وقيمتهم . والذي أحب أن يلتفت إليه قارئ رسالة الغفران ليس هو هذه السخرية التفصيلية التي نجدها عند ما يعرض أبو العلاء لإوزّ الجنة أو بقراها أو عند ما يعرض للخصومة بين الشعراء ، وإنما هي السخرية الجميلة العامة المنكرة التي تمثل الله عز وجل كأنه قد فرغ للذات أهل الجنة وشهواتهم يديرها ويدبرها ، لا عمل له إلا هذا ولا تفكير له إلا

في هذا . إن الذي يقرأ رسالة الغفران ويفقه ما فيها من سخرية لا يستطيع أن يسلم بأن أبا العلاء كان مسلماً حقاً . وقد أفهم أن ينتج العقاد مثل هذا البحث لأن فيه شيئاً من الحرج ، ولكني أحب أن يكون الناس جميعاً مثلي يكرهون أنصاف الحقائق ، ويؤثرون العلم والتاريخ على كل شيء .

أنا معجب بما كتب العقاد عن أبي العلاء . وأرجو أن أعجب بما كتب عن المتنبي حين أقرؤه .

- « جان جاك روسو ، حياته وكتبه » بقلم الدكتور محمد حسين هيكل بك -
« أشهر قصص الحب التاريخية » بقلم الأستاذ سلامة موسى -
« رسائل الأحران في فلسفة الجمال والحب » بقلم الأستاذ مصطفى صادق الرافعي .

وصلت إلى رسالتان كنت أود أن أثبتهما في هذا الفصل وأن أرد عليهما ، ولكنني آثرت ألا أفعل ، ورأيت أن أكتفي بالإشارة إليهما ؛ لأن هذا الفصل أضيق من أن يسع الحوار والجدال . إحداهما من الأستاذ عباس العقاد فيها خير وشر وفيها ثناء وذم . وأنا أتقبل هذه الرسالة شاكراً ما فيها من خير وشر ومن ثناء وذم . وأؤكد لصاحبها أنه لم يصدق في رسالته كلها كما صدق في آخرها حيث يقول : « إن صوتي يسمع على ما فيه من نشوز . وأنا أعلم أن في صوتي نشوزاً وأحمد الله على أن هذا النشوز لا يسمع الناس من الاستماع لهذا الصوت ، فقد يكون في الاستماع له خير ، مهما يكن قليلاً فهو خير » .

أما الرسالة الثانية فأرق من رسالة العقاد وأدعى إلى الابتسام والفكاهة . ويجب أن أكون شديد الحرص على الإيجاز لأخذ نفسي بالأناشيد . ويجب أن أكون شديد الحرص على المجاملة لأمنع نفسي من ذكر صاحبها ، فلن أسميه وإن كان ميلي إلى ذلك شديداً .

قرأ كاتب هذه الرسالة في حديث من هذه الأحاديث أني أصف بعض الكتاب بأن لسانه أطول من عقله وأن له يومه ، فخطرت له خواطر وعبثت به ألوان من الخيال ، وكتب إليّ يتعجلني في نقد هذا الكاتب والدلالة عليه ويلج في تعجُّله لإيادي . وأنا أجيب هذا الكاتب الأديب أني لم أرده ولم أقصد إليه ، وأنه يستطيع أن يستريح من هذه الناحية ، وأن يتركني حراً أتخير اليوم الذي يعجبني أن أنقد فيه هذا الكاتب وأمثاله ، فهو ليس كاتباً واحداً ، وإنما صورة لكتاب كثيرين . ولأدع رسالة العقاد ورسالة هذا الكاتب الأديب ، ولأنقل إلى هذه الكتب التي وضعت أسماءها في أول هذا الفصل . وإني لأعلم أني سأجد في نقدها أو في نقد بعضها مشقة غير قليلة ، فكلها خليفة بالنقد ، وبالنقد الشديد ، وكلها خليق بالثناء ، وبالثناء الكثير .

ليس من اليسير أن أفقد كتاب صديقي هيكل ؛ لأن قراءته ليست يسيرة .
 نعم ! ليس من اليسير ولا من المحبب إلى النفس أن نقرأ هذا الكتاب القيم ونستمع
 بما فيه من لذة علمية وأدبية ، ففي الكتاب لذات علمية وأدبية كثيرة ، ولكن الله
 أراد أن تحول بيننا وبين هذه اللذات حوائل مختلفة ، منها ما هو منكر بغيض ،
 ومنها ما هو ثقيل على النفس ، ومنها ما يجرح ويغيظ . يجب أن يكون هيكل شديد
 الالتواء على النقاد ، مسرفاً في ازدياء القراء ، غالباً في الاقتناع بأنه وحده موفق
 للخير حين يفكر وحين يعمل . فقد ذكر أني تناولت الجزء الأول من كتابه حين
 ظهر في سنة ١٩٢١ فقرأته بعد مشقة ، ونقدته مخلصاً ناصحاً للكاتب أن يكبر قراءه
 بعض الشيء ، وأن يعنى بهم ولو قليلاً . وكنت أحسب أن هذا النقد سينزل من
 نفس صديقي هيكل منزلة حسنة ، فيجيبني راضياً إلى ما دعوته إليه . وكنت
 أنتظر ظهور الجزء الثاني من كتابه لأنني عليه ثناء خالصاً من كل عيب ، ولأحمد
 حمداً بريئاً من كل انتقاص . ولكنني أعترف بأنني أحسست شيئاً كثيراً مما يسمونه
 خيبة الأمل حين انتهى إلى هذا الكتاب . ذلك أني رأيت صاحبي هذه المرة كما
 رأيته في المرة الماضية مزدرياً لقراءته مزدرياً لنقاده ، لا يحفل بأولئك ولا بهؤلاء . وما
 أحسب إلا أن هذا الازدياء خلق من أخلاقه ليس إلى إصلاحه من سبيل .

لا أعرف كتاباً علمياً أدبياً أردأ طبعاً من كتاب الدكتور هيكل ، بل لا
 أعرف كتاباً علمياً أدبياً أقبح ورقاً من كتاب الدكتور هيكل ، بل لا أعرف كتاباً
 علمياً أدبياً بلغ فيه الإهمال والفتور ما بلغاه في كتاب الدكتور هيكل : طبع
 رديء ، مفعم بالأغلاط المنكرة ، وورق رديء يصرف القارئ عن أن ينظر في
 الكتاب ، ويصد من يجب اقتناء الكتب عن أن يقتني هذا الكتاب ، وإهمال
 يصرف عن القراءة أشد الناس رغبة في القراءة ، ويزهده في الاستفادة أحرص الناس
 على الاستفادة . أذكر أني طلبت إلى الدكتور هيكل حين ظهر الجزء الأول من
 كتابه هذا أن يتق الله في قراءته : في أبصارهم وأذواقهم وفي ميولهم وأهوائهم ، فيحسن
 طبع كتبه ويتخير لها ورقاً لا يؤدي الأضرار ولا يشق عليها . وأراني مضطراً إلى أن
 ألاحظ أن صديقي لم يُعَنَ بما دعوته إليه ، فكانت طبعة الجزء الثاني كطبعة
 الجزء الأول إن لم تكن أشد منها إمعاناً في السوء .

أنا أعلم أن الذين يقدمون على التأليف والنشر يتعرضون في أكثر الأحيان لخطر
 أشد من خطر النقد ، وهو ضياع ما يتفقون من أموال . ولكنني أعلم من جهة أخرى

أن الذين يؤلفون وينشرون إذا كانوا من العلماء والأدباء حقاً يضمنون بما يؤلفون وينشرون على الورق القبيح الرديء ، وهم بالطبع يريدون أن يتجملوا في كتبهم كما يتجملون في أزيائهم ، وهم يُعنون بأن ترؤف كتبهم الأبصار قبل أن ترؤف النفوس ، كما أنهم يعنون - إن لم يكونوا من أتباع ديوجين - بأن ترؤف أشخاصهم وأزيائهم أبصار الناس قبل أن ترؤف آراؤهم عقول الناس . بل أنا أزعم - والناس جميعاً يرون هذا الرأي - أن من الأسباب القوية التي تعينك على أن تنزل من نفوس الناس منزلة تحببك إليهم وتمكنك منهم ألا ينبو شخصك عن عيونهم . ومثل هذا يقال في الكتب . ولكن صديقنا هيكل لا يريد أن يسمع لشيء من هذا ، وهو بإعراضه عن هذا النصح يسىء إلى كتابه ، لأن القراء لا يرغبون فيه ولا يسرعون إليه ، ويسىء إلى قرائه ، لأنه يحرمهم قراءة هذا الكتاب اللذيذ .

ومن غريب الأمر أني ضحكت منذ أيام حين انتهى إلى كتاب هيكل ؛ لأنه انتهى إلى " وقد قرأت في جريدة « الطان » فصلاً عنيفاً كتبه الناقد الأدبي لهذه الصحيفة ، حمل فيه حماسة منكراً على الشاعر الفرنسي المعروف « هنرى درينيه » وعلى طابعه ، لأنهما نشرا ديواناً لهذا الشاعر في طبعة بلغت من الإلتقان والزينة وجودة الورق أن ارتفع ثمنها على أوساط الناس ، وأصبح الكتاب لا يتاح إلا للأغنياء والمترفين . ضحكت ورثيت لأوساط الناس الذين يزدريهم « هنرى درينيه » فيغلي كتبه ويسرف في إلتقانها وتزيينها ، ويزدريهم هيكل فيرخص كتبه ويسرف في إهمالها وانتقاصها . رثيت لأوساط الناس من هذين الكاتبين اللذين يختلفان فيما بينهما اختلافاً شديداً ، ولكنهما يسلكان طريقين مختلفين تنتهي بهما إلى غاية واحدة هي ازدراء القراء . أما أحدهما فيغلو في الترف ، وأما الآخر فيغلو في التفلسف . وما أصدق المثل اليوناني الذي قامت عليه فلسفة الفلاسفة حقاً وهو « لا تسرف » .

ثم لا يقف أمر هذا الكتاب عند سوء الطبع وقبح الورق . فإ رأيت في كتاب تبحث فيه عن فهرست فلا تجد ! وما رأيت في كتاب لا تستطيع أن تلم بما فيه إلا إذا قرأته من أوله إلى آخره ! ليس لكتاب هيكل فهرست ، أستغفر الله ! بل ليس في كتاب هيكل عناوين للموضوعات التي يتناولها . وكل ما في كتاب هيكل من هذا النحو أرقام ثلاثة هي ٩ و ١٠ و ١١ ، تأخذ الكتاب فيصادفك رقم ٩ ثم يتفضل عليك المؤلف فيذكرك بما كان في الجزء الأول ، وينبهك إلى أن هذا الفصل الذي تقرأه هو الفصل التاسع من فصول الكتاب كله . ثم تمضي في الكتاب وتمضي

وتمضى حتى تتجاوز خمسين من صفح الكتاب فتجد رقم ١٠. ثم تمضى وتمضى وقد تنسى نفسك وقد تصل . وقد يختاط عليك الأمر ، ولكنك تمضى حتى تجاوز الثمانين بعد المائة من صفح الكتاب ، وإذا أنت أمام الرقم الثالث ١١ ثم تمضى حتى تنتهى من الكتاب أو قل من الجزء ، وترى نفسك مضطراً إلى أن تنتظر ظهور الجزء الثالث الذى سيبتدئ طبعاً برقم ١٢ . هذا كل ما فى الكتاب من تقسيم . وأنت ترى أنه قليل ، أقل مما ينبغي ، وأنت تستطيع أن تقول إن الكتاب يخلو من التقسيم والترتيب . وإذا كان إهمال الورق والطبع إسرافاً فى التفلسف وازدراء للقراء ، فإهمال التقسيم والترتيب غلو فى التقصير وازدراء للبحث العلمى نفسه . ذلك أن البحث العلمى بطبيعته محتاج إلى التقسيم والترتيب ، بل قل إن البحث العلمى تقسيم وترتيب قبل كل شيء . فالانصراف عن التقسيم والترتيب لثم على العلم إذا تكلفه صاحبه وتعمده ، وهو قصور فاحش إذا اضطر إليه اضطراراً . وكم كنت أريد أن يخلو كتاب هيكل من صفتين أعتقد أنا أن شخص هيكل منهما برىء .

ثم لم يقف الأمر فى هذا الكتاب عند هذا الحد ، فهيكلم لم يكتف بإهمال الطبع والورق ، ولا بإهمال فهرست ولا بإهمال التقسيم والترتيب ، بل أضاف إلى هذه الضروب من الإهمال ضرباً آخر ليس أقل منها قبحاً عندى ، وقد يكون أشد منها قبحاً عند غيرى من الأدباء والنقاد ، ذلك هو إهمال اللغة .

ليس من الثناء على هيكل فى شيء أن نقول إنه كاتب مجيد ، فالناس جميعاً يعلمون أنه كاتب مجيد ، وما أظن أن بين قراء الصحف من يستطيع أن ينكر أنه مدين لقلم هيكل بساعات لذيدة تأثرت فيها نفسه ألواناً من التأثر ، فغضبت مع الكاتب للحق ، ونخطت مع الكاتب على الباطل ، وشعرت مع الكاتب بالوطنية الصادقة والحرص على المنفعة القومية ، واستمتعت مع الكاتب بلذة العلم والأدب حين يبحث عن العلم والأدب ، وحين يتناول بتحليله الدقيق ونقده الموفق كبار الكتاب والأدباء ولا سيما « أناتول فرانس » و« بيير لوتى » . الناس جميعاً يعلمون هذا من هيكل ، ويعترفون بأنهم مدينون له بساعات لذيدة قيمة . والناس جميعاً يعلمون أن هيكل على امتيازه الفنى وبراعته الكتابية يحسن لغته العربية ويتقنها ويتصرف بها كما يجب ويسخرها كما يشئى . وربما كانت له فى ذلك شخصية بارزة حين يخلج فى نفسه الرأى ويشعر بأن اللغة قد تضيق برأيه فيكرهها على أن

تسع ويرغمها على أن تؤتية من الألفاظ ما هو في حاجة إليه . ولكني لا أدري
 أيعلم الناس أن صاحبنا يكره التعمق في اللغة والإسراف في تخير الألفاظ القديمة
 وتجنب الألفاظ الحديثة المبتدلة ؟ ولقد كانت بينه وبينى في ذلك مناقشات
 ومخاضات حظ الهزل فيها أكثر من حظ الجلد ، ولكنها كانت على كل حال
 مظهراً من مظاهر اختلافنا في الرأي أمام هذه المسألة الفنية . وأنا أفهم حق الفهم
 أن يميل بعض الكتاب إلى تخير الألفاظ المتقنة ، بل أنا أفهم حق الفهم أن
 يتحرج بعض الكتاب في استعمال ألفاظ لا يجدها في المعاجم ، أنا أفهم هذا حق
 الفهم ، وأفهم شيئاً آخر وهو أن يطلق بعض الكتاب لأنفسهم الحرية في استعمال
 ما يعرض لهم من الألفاظ رضىت عنه المعاجم اللغوية أو منحت عليه .
 أفهم هذين المذهبين ، وأريد أن أتوسط بينهما ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ؛
 لأنى أريد أن أحتفظ للغة بجمالها وبهجتها من جهة ، وبجياتها وقوتها من جهة
 أخرى ، وأريد أن أكون قادراً على أن أصف ما فى نفسى وألا أسلب نفسى هذه
 القدرة لأنى لا أجد فى المعاجم لفظاً أشعر بأنه يعجبني ويؤدى ما فى نفسى . ولكن
 هناك شيئاً لا أستطيع أن أفهمه ، وما أحسب أن أحداً يستطيع أن يفهمه ، وهو أن
 يسرف الكاتب فى حرته اللغوية حتى يهدم قواعد اللغة ويتجاوز حدودها وقوانينها
 فى غير نفع ولا نكتة فنية ولا ضرورة قاهرة . لا أستطيع أن أفهم مثلاً أن يذكر
 اللفظ المؤنث ويؤنث اللفظ المذكور . فقد تستطيع أن تكون حراً فى اللغة بل لإباحياً ،
 ولكنك لن تستطيع أن تمنح هذه الحرية التى لا خير فيها ولا نفع . وأى فائدة تجدها
 وأى لذة تظفر بها حين تضم فعلاً يجب أن يكسر ، وتذكر لفظاً يجب أن يؤنث ؟
 ومع هذا فأنا أجد هذا النحو من الخطأ اللغوى فى كتاب صديقي هيكل .

ولست أريد أن أسرف ولا أن أطيل فى إحصاء هذا الخطأ ، وإنما أريد أن أدل
 عليه دلالة موجزة . أريد أن أسأل كيف استطاع هيكل أن يقول : « وكان قدمه
 قد استقر يومئذ فى الأدب » وهو يعلم أن القدم مؤنثة لا مذكرة .

أريد أن أسأله كيف استطاع أن يقول : « وألا نكون من السخف حتى نضحى
 هناءنا بسبب مثل هذا الرأى الأخرق » . ومتى كان « حتى » ظرفاً مكانياً ! وإنما
 أراد هيكل أن يقول : « وألا نكون من السخف بحيث نضحى ... » وأكبر
 ظنى أنه كتب هذا ولكنه أهمل العناية بطبع الكتاب فتورط فى هذا الخطأ .
 ومثل هذا الخطأ الذى ورطه فيه إهمال العناية بالطبع قوله : « فرفضت مخافة

ما يصيب ذلك أبواها من سوء . فما رأيك في هذا المفعول الذى ينصب بالألف وكان حقه أن ينصب بالياء ؟ وخطأ آخر لا أستطيع أن أغفره وهو حيث يقول : « وأنت تعلمين أنك أشد ما يكون في هذه الحال خطراً » أراد « أشد ما تكونين » . وخطأ آخر أشد من هذا نكراً وهو قوله : « وموقف والذى المحترم موقف مهوباً » . وليس من شك في أن على المطبعة وحدها تبعة هذا « الموقف » الذى كان ينبغى أن ينصب ويصرف فنع الصرف . ولكن أعلى المطبعة وحدها تبعة هذا « المهوب » الذى ينبغى أن يكون مهيباً بالياء لا بالواو ؟ هذا كله وما أتجاوز الخامسة والعشرين من صحف الكتاب . وقد أخذت نفسى بأن أكون ميسراً لا معسراً حتى لا يقول أنصار حرية اللغة : تقعر في النقد ولم ينس دروس الأزهر الشريف . وما أشد حرصى على ألا أنساها ! ولست أشك في أن الإهمال وحده هو الذى اضطرب هيكلها إلى هذه الأغلاط . ولكن من ذا الذى يستطيع أن يزعم أن الإهمال يباح للكتاب والعلماء .

أما بعد ، فهل أنا في حاجة إلى أن أثنى على هذا الكتاب ؟ ألتست أتعرض للسخف إذا أثنت على فيلسوف كجان جاك روسو ، وعلى كاتب كهيككل ! وأى الناس من قراء هذا الحديث يجهل مكانة روسو في الأدب الفرنسى خاصة ! وأى الناس من قراء هذه الفصول يجهل مكانة هيكل في أدبنا العربى الحديث ؟ ! الناس جميعاً يعرفون مكانة هذين الكاتبين ، ولكن من قراء العربية من لا يتاح لهم أن يقرءوا « جان جاك روسو » في لغته الفرنسية أو في ترجمة عربية . وهؤلاء ينتفعون من كتاب هيكل انتفاعاً قيمياً حقاً ؛ لأنهم يجدون فيه شخص روسو ماثلاً مثولاً واضحاً ، ولأنهم يجدون فيه آراء روسو مبسطة أحسن بسط مفصلة أجهل تفصيل ، هذا كله في إيجاز حسن وتجنب للإطالة والإسراف . بل أنا أذهب إلى أبعد من هذا فأزعم أن الذين قرءوا « روسو » بالفرنسية وأكثروا قراءته وأتقنوها يجدون لذة لا تكاد تعلقها لذة في قراءة هذا الكتاب الصغير الذى نشره هيكل عن جان جاك روسو . يجدون هذه اللذة المقدسة التى يجدها الأديب حين يقرأ نقداً صادقاً صحيحاً لكاتب قيمة لذيذة ، وحين يوازن بين هذا النقد وبين ما شعر به وهو يقرؤه ، وحين يتم بهذا النقد نقص قراءته ، وحين يوجهه هذا النقد وجوهاً من التفكير لم يعرض لها ولم يلتفت إليها الناس جميعاً حين يقرءون هذا الكتاب فيجدون فيه من اللذة العقلية والقلبية ما لا ينقصه إلا سوء طبع الكتاب . فأنا لا أغفر

هيكل سوء طبع الكتاب. لا أغفره له؛ لأن الكتاب قيم حقاً ، خليق ان يقرأ وأن تعاد قراءته . ومن الجناية على مثل هذا الأثر القيم ؛ أن يعرض على الناس في مثل هذه الثياب الدميعة . وكم يحسن هيكل لو تفلسف في غير هذا الأمر فلم يسيء إلى روسو ولا إلى نفسه هذه الإساءة المنكرة . وأقسم لو كنت غنياً لتكلفت عمو هذه الإساءة ولأعدت طبع الكتاب في عناية متقنة وإتقان خليقين بموضوعه وبكاتبه وبقراءته .

ولكني قد أعطيت نفسي من الحرية في نقد هذا الكتاب أكثر مما ينبغي لها فيما يظهر . وما رأيك في محرر « السياسة » الأدبي يتناول بهذا النقد العنيف رئيس تحرير « السياسة » ثم لا يستحي أن ينشر هذا النقد العنيف في جريدة « السياسة » نفسها ؟ أليس هذا إسرافاً أو شيئاً فوق الإسراف ؟ ! كلا ! ليس إسرافاً ، إنما هو القصد كل القصد والاعتدال كل الاعتدال . فهيكل تلميذ لطفي السيد . ولقد أذكر أن لطفي السيد علمنا حين كان مدير « الجريدة » أن نقصد أصحاب الصحف في صحفهم ، وعودنا أن ينشر نقدنا راضياً به مبهجاً له معتزلاً إن كان في الأمر ما يدعو إلى الاعتذار . ونحن قوم يجب بعضنا بعضاً ، ولكننا نتحاب في الحق والعلم والأدب وحرية الرأي قبل كل شيء . ولو علمت أن في هذا النقد ما يغضب صاحبي أو يغيظه لما نشرته لا في « السياسة » ولا في غير « السياسة » . أستغفر الله ! بل لو علمت أن في هذا النقد ما يغضب صاحبي أو يغيظه لنشرته ولضحيت بصحبة هيكل في سبيل ما أعتقد أنه حق . ولكني أعلم أن صاحبي أو أن أصحابي جميعاً في الرأي والمذهب فوق هذه الملاحظات التي لا ينظر إليها إلا صغار النفوس . وإذا كانت « السياسة » قد وسعت تقريظ خصم من خصوم « السياسة » فهي حرية أن تسع نقد رئيس تحرير « السياسة » . وليس معنى هذا أني لن أتق من رئيس تحرير « السياسة » شططاً ولا عتياً ، فأنا أعلم ما ينتظرني منه بعد أن يعود من سفره ، ولكني أعلم أننا سنتحاور ونختصم ، ثم نتصاحك ونفترق وقد أعلن إلى هيكل كما تعود أن يعلن إلى كلما اختصمنا في أمر كهذا أني أجهل اللغة العربية . فلأنتظر من هيكل ورضاه ، ولأنتقل منه إلى كاتب آخر كنت أريد أن أرضيه لأنني أحبه وإن كنت لم أعرفه ، ولأن الكلفة لم ترتفع بيني وبينه كما يقولون ، فلا بد من اصطناع المجاملة حين أعرض له . ولكن كيف السبيل إلى المجاملة وصناعة النقد لا تحتملها ولا ترضاه ! وقد أراد الله أن أكون ناقداً ،

فأراد أن أكون ثقيلاً إذا ، ولأكمل صراحة للأستاذ سلامة موسى أنى غير راض عن كتابه الذى أذاعته مجلة الهلال منذ أيام .

للأستاذ سلامة موسى فى نفسى منزلة قيمة ؛ لأننى أعجب بعقله وحريرته ومذهبه فى التفكير وطريقته فى الكتابة ، ولهذا كله اغتبطت حين وصل إلى كتابه ، وأخذت أحمد « للهلال » عنايتها بالأداب واجتهادها فى نفع قرائها واستعانها بالأستاذ سلامة موسى .

وعنوان الكتاب لذيد خلّاب ، وإن كنت لا أدرى إلى أى حد يرضى عنه النحو ، ومن الذى لا يجد لذة فى قراءة قصص الحب ؟ أعترف أنى من الذين يكلفون بالحب وأخباره وأحاديثه ، ويجدون فيها لذة وتفكهة ونفعاً . وإذا فقدت اغتبطت بكتاب الأستاذ سلامة موسى حين وصل إلى ، وقلت إنى سأجد فى قراءته من اللذة ما ينسبى بعد المسافة بين دارى وبين الجامعة . ولكنى لم أكد آخذ فى قراءة الكتاب حتى رأيت أنه لا يصلح للمثرو . ولا يغضب الأستاذ سلامة موسى فأنا أقرأ فى المثرو كتب « أنا تولى فرانس » ، بل أنا أقرأ فى المثرو تاريخ المقدونيين فى مصر ، وتاريخ الجمهورية الرومانية . فليست قراءة الكتب فى المثرو ازدراء لها ، وإنما هى إكبار لهذه الكتب وثقة بها . وأى ثقة بكتاب تعدل الاستعانة به على احتمال المكروه! أسفت إذاً حين أحسست أن كتاب سلامة موسى لن يعينى على المثرو ، واضطرت إلى أن أقرأه فى مكبى . وأنا مضطر إلى أن أعترف بأنى أسفت أيضاً حين قرأته فى مكبى ، لا لأن الكتاب ليس أهلاً للعناية ، ولا لأن الكتاب لا يبعث فى نفس قارئه لذة قوية ، بل لأن الكتاب لا يمثل كاتبه . وأنا أحب فى هذا النوع من الكتب أن أرى أشخاص المؤلفين ، وأن أتحدث إليهم وأستمع لهم . هذا الكتاب لا يمثل كاتبه ، وإنما هو طائفة من الأحاديث حظ النقل فيها أكثر من حظ التفكير . وكأن الكاتب قد نظمها نظماً ، وألصق بعضها ببعض إصافاً ، دون أن يتكلف إظهار شخصيته أو قوته فى النقد . وفى الحق أن موضوع الكتاب لا يصلح موضوعاً لبحث قيم تظهر فيه شخصية الكاتب . فكيف تظهر شخصية الكاتب فى رواية أحاديث الحب عند العرب واليونان والرومان والفرنج المحدثين ! وكيف يمكن أن ينسى الكاتب اختلاف هذه الأمم ويمتلئ بموضوعه امتلاء فيتحدث عنه وكأنه يتحدث عن نفسه !

ومع ذلك فقد ينجيل إلى أن الأستاذ سلامة موسى كان يستطيع أن يحسن إلينا

بعض الإحسان في غير موضوع . كان يستطيع مثلاً أن يضع لكتابه مقدمة صالحة فيها شيء من البسط والتفصيل لهذه الآراء القيمة التي يعرض فيها الحب على الناس . كان يستطيع أن يحكم عقله وقوته النقدية حين يعرض علينا رأى العرب في الحب ، وحين يعرض علينا رأى الفرنج في الحب . ولكنه لم يفعل من هذا شيئاً ، وإنما عرض علينا أطرافاً من القول نقلها عن طائفة من الكتاب العرب والفرنج ، ونخيل إلينا أن هذه الأطراف المقتضبة التي ألصق بعضها ببعض إصصاقاً تمثل آراء العرب في الحب حقاً ، وآراء الفرنج في الحب حقاً . نخيل ذلك إلينا ، ولم نخيله إلى نفسه طبعاً ؛ فهو يعلم أن مثل هذه الأطراف من القول لا تمثل آراء أصحابها ، فضلاً عن أن تمثل آراء الأمم التي ينتسب إليها أصحاب هذه الأطراف .

وكنت أحب أن يكون الأستاذ سلامة موسى ناقداً بعض الشيء حين يعرض لأخبار الغزاليين من العرب ، كجميل وكثير وغيرهما ، ولكنه لم يكده يفعل من هذا شيئاً ، وإنما يترك القدماء يقولون ما يشاءون ، واختار من أحاديثهم أطرافاً رواها في غير نقد ولا تحفظ إلا ما يدعو إليه الإيجاز . وفي الحق أني لست أدري على من تقع تبعه هذا التقصير : أعلى الأستاذ لأنه مال إلى هذا النحو من التأليف الذي قد يليق بالتجارة أكثر من لياقته بالبحث العلمي ، أم على مجلة (الهلال) التي عرضت على الأستاذ هذا النحو من التأليف ، لأنها تعرف عقلية الكثرة من قرائها ومقدميهم ، أم على القراء أنفسهم لأنهم يضطرون الكتاب إلى أن ينصرفوا عن البحث والنقد ليكون فهمهم ميسوراً ، ويضطرون (الهلال) إلى أن تقدم إليهم كتباً حظ الجمع فيها أكثر من حظ النقد ! ومهما يكن من شيء فإن هذا الكتاب بعيد كل البعد عن أن يؤسنى من الأستاذ سلامة موسى ، وأنا واثق بأنى سأضطرب بعد حين إلى أن أثني عليه ثناء خالصاً .

• • •

وقد بلغت من هذا الفصل أقصاه ، ولم أبدأ في ذكر الأستاذ مصطفى صادق الرافعي وكتابه في فلسفة الجمال والحب . وأنا بين اثنتين إما أن أنقد هذا الكتاب كما أحب وكما يليق بصاحبه ، فأطيل عليك ، وربما تأخرت عن هذا الدرس الذي يجب أن أذهب لإلقائه في مدرسة الآثار ، وإما أن أرجئ نقد هذا الكتاب إلى حديث الأربعاء في الأسبوع الآتي . ويظهر أني أؤثر الثانية على الأولى . فيلى الأسبوع الآتي إذاً .

عود إلى كتاب هيكل
رسائل الأحران فى فلسفة الجمال والحب
للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

أخى طه

تحية واحتراماً . أكتب لك عما تبرعت به من نقد الجزء الثانى من كتاب جان جاك روسو، حياته وكتبه . ولست أقصد بما أكتب إلا مناقشة لصديق وستجدها مناقشة خالية من كل ما تهتم به نفسك من عنف أو شدة .

أخذت على هذا الجزء الثانى من كتابى عن روسو أنه مطبوع طبعاً رديئاً على ورق غير لائق بكتب العلم والأدب ، وأن به أغلاطاً مطبعية كثيرة . وأخذت على أنى فى إهمال الطبع وعدم اختيار الورق وعدم العناية بالتصحيح أزدرى الجمهور ، وأنى لا أحفل باللغة كما ينبغي ، وأنى لم أضع لكتابى فهرساً ولم أبوبه ، وجعلت لهذا النقد أكثر من أربعة أشهر فى السياسة . ثم أثنت على الكتاب بأن موضوعه جان جاك روسو ، وبأن كاتبه هيكل ، وجعلت لهذا الثناء نصف نهر من أنهر السياسة .

ولست أخفيك أنى أشعر بأن نصف النهر هذا فيه من المعنى ما « ينجل تواضع » روسو لو أنه كان حياً ، وما « ينجل تواضعى » أنا اليوم ، واعدرتنى إذا استعرت فى هذا المقام عبارة سعد زغلول . لكنى أود أن أسألك إذا كان القارئ البعيد عنى وعن روسو يشعر بمثل شعورى بعد أن يفرغ من قراءتك ، لقد عرف أن الكتاب مطبوع طبعاً سيئاً على ورق ردىء ، وأن به خطأً مطبعياً وإهمالاً لضبط بعض الألفاظ من الجهة اللغوية ، وأنه مع ذلك كتاب دسم مفيد ، لكن سوء طبعه وورقه يصدان عن قراءته ، فما الذى يمكن لهذا القارئ أن يتف عليه من أمر الكتاب؟ ما هو هذا الغذاء الأدبى والعقلى الذى لا يستطيع أن يصل إليه والذى كان حقاً عليك أن تدله عليه ؟ ألا تظن أنه — ولم يستدل على شىء منه — يشعر

بأنك لم تقرأ الكتاب ، بل اكتفيت بتقليب صفحاته ، واقتصرت بعد ذلك على الكتابة عن الشكل والصورة الظاهرة من غير أن تكلف نفسك عناء الوقوف على موضوع الكتاب ، لترى إن كان على سوء شكله يستحق احتمال القراءة عناء مطالعته ، ولتنتقد مباحث الكاتب فتحکم له أو عليه .

ثم هب يا صديقي أن قارئك كان رجلاً صالحاً من أهل الأزهر الذين تعودوا قراءة الكتب مطبوعة على الورق الأصفر أو النباتي ولا تزيد على الكتاب الذي تفضلت بنقله بهاء ولا رواء ، وهب أن قارئك كان من الذين يولعون باستقصاء ما في الكتب مهما يحملهم هذا الاستقصاء من عناء . وهب أنه كان من الذين لا يحفلون بالظواهر ولا يعنون كثيراً باللباس ولا يفهمون قيم الناس بأرديتهم ويحسبون التأني لهواً ، فإذا يكون حكم القارئ على ما كتب حين يراك اقتصر على نقد الطبع والورق ؟ وهلا تخشى أن يقول لك إن وضع صحيفة في آخر الكتاب لبيان الخطأ والصواب كانت تكني لرد نقدك الألفاظ ، وإنه كان أحوج إلى العلم بشيء من موضوع الكتاب !

أما نقدك غياب الفهرس والتبويب فكنت أود أن أشاركك رأيك فيه ، لولا أن هذا الجزء الثاني من كتاب جان جاك في غير حاجة إلى فهرس أو تبويب ؛ فهو يلخص رواية هلويز الجديدة وكتاب التربية وينقدهما ، وليس فيه شيء آخر . فهل كان يكفيك أن يكتب بدل ٩ و ١٠ و ١١ - هلويز الجديدة ، واميل ، وصوفيا ، كما فعل فاجيه ولتر وغيرهما من الذين كتبوا عن روسو؟ وهل تحسب الفارق كبيراً في نظر العلم والأدب إلى حد لا يصبح معه نقدك مشوباً بشيء غير قليل من الإسراف الذي ذكرت أنك لا ترضاه ؟

وتقول لو أنك كنت غنياً لقممت بطبع الكتاب في صورة تليق بروسو وبهيكلك وإني أشكر لك حسن ظنك ورقيق شعورك . وربما رأيت أنت كتابي على غير ما رأيته لو أنني كنت غنياً . على أني لا أقول لك ذلك عن ثقة ؛ فإن بي عيباً آخر قد يحول دون إتيان الطبع ، وأظنك تعرفه . فإني تتحكم في صفتان ليس أضر منهما على تجارة الحياة وتبادل المنافع ، هاتان الصفتان هما الأنفة والحياء . وقد أسرف الحظ فيما خلعه على من كل منهما إلى حد انقلب معه ما يجده الناس في كل منهما من فضل عيباً عندي ونقصاً . وليس لي من سبيل إلى محاربة هذا الإسراف في الصفتين إلا أن يستطيع الإنسان محاربة طبعه .

هاتان الصفتان تحولان بينى وبين الناس وتجارتهم . وأشهد أنى ما اغتبطت يوماً لهذا العجز ، كما أشهد أنى ما حزنت يوماً بسببه ؛ فهو يحمينى من شرور كثيرة ، ويدع المجال أمامى فسيحاً لأحظى من نعيم الحياة بما تيسره المقادير من غير أن أخشى مداخلة الناس فى أمرى لتكدير صفو نفسى . ثم هو فى الوقت نفسه يمنع على الاستفادة من معاملة الناس والاستعانة بذوى الإحصاء منهم فى طبع كتيبى وتصحيحها وتوزيعها واسترداد نفقاتها لطبع كتب أخرى ، كما يمنع على الاستفادة من معاملتهم فى غير هذه من شؤون الحياة ، ويضطرني إلى القناعة من علاقاتى بالناس بما ييسر لى أقل حظ من النعيم أطمع فيه . فأنت ترانى أشد ما أكون غبطة ما دمت جالساً إلى مكتبى متصلًا بالناس فى غير حاجة إلى معاملتهم والاتجار معهم . وترانى أشد ما أكون حياءً وحيرة ما اتصلت بالناس فى تجارة . وهذا يا صديقى هو السر فيما رأيت من سوء ورق كتابى وطبعه ، وهذا هو السر فيما تهمنى به خطأ من ازدراء الناس . ولو أنصفت لقلت : إنه عكوف النفس على ذاتها وقناعتها بالرضا الداخلى الذى لا يعنى كثيراً بحكم الناس ؛ لأن حكمهم لا يصل إليه ، وإن وصل فلا يعلق به .

وقد لا يسوءك فى هذا المقام أن أخبرك أنى حين قرأت نقدك ابتسمت أن رأيتك تأثرت فيه بصداقتك إياى أكثر مما تأثرت بموضوعك . فإنك قد عاجلت إخفاء ما تبعته المودة فى نفسك من محبة صادقة ، فلم حرصك على التعرض لشكل الكتاب دون موضوعه ، مع إظهارك الإعجاب بالموضوع عرضاً ، على أنك كنت تود أن يكون ما يظهر للناس من صاحبك بالغاً ما يستطاع بلوغه من الكمال ؟

لكنك يا صديقى تعلم ما انطوت عليه نفسى ، وتعلم أنى لا أكتب إلا ما يكون متاعاً لى ولذة ، فإذا نشرته بعد ذلك فلائنى لا أستطيع المحافظة عليه ، وأخشى أن يضيع وقد أحتاج يوماً لأتلاذ بمجهوداتى الماضية فى الساعات المجتهد من حياة الحاضر . وهذا هو ما دعانى لتقسيم ما كتبت عن روسو إلى ثلاثة أجزاء ، فكنت كلما فرغت من قسم من بحثى وهجمت على مشاغل الحاضر ونخشيت أن أؤخذ بها إلى حد نسيان ما كتبت ، قدمته للطبع لكى لا يضيع ، وهذه غاية يكتفى بلوغها أن يطبع بأقل نفقة ممكنة ومن غير عناء كبير .

على أنى أعدك يا صديقى ، إن أراد الحظ لى أن أظهر للناس كتباً أخرى ، بأن أجاهد لأحرص على رضاك . وإذا أنا وجدت من عناية الأقدار ما يسمح لى

بإتمام الجزء الثالث من كتاب روسو - وهذا ما لا أعدهك به - فلن أكتفي بما اكتفيت به في الجزءين الأولين ، وإن أتركه بغير فهرس أو تبويب ، وإن أطبعه إلا على ورق يعجبك ، وإن أتركه بغير بيان لما فيه من خطأ مطبعي ، ومن زلات القلم حين الكتابة .

لكني مع ذلك كنت أرجو ألا يقف نقدك عند الغضب لي مني ، وإظهار هذا الغضب في ثورة صريحة . وكنت أود أن تتناول موضوع الكتاب وأن تبين لقارئك في شيء من التفصيل ما تراه من وجوه حسنة وقبحه وكماله ونقصه ؛ فقد يمكن ملافاة ما كان من نقص في الطبع والورق عند إعادة طبع الكتاب ، سواء أعدت أنت الطبع أو أعدته أنا أو أعاده غيرنا . لكن ملافاة نقص الموضوع لا تكون إلا إذا دل النقاد المؤلف على مواقع الخطأ في البحث ومواضع التواء الدليل . وأصدقك القول أنني أحوج إلى هذا النقد مني إلى نقد الشكل والصورة . فتقد الشكل والصورة أعرفهما وأعرف أسبابهما من غير حاجة إلى أن يدل عليهما أحد ، كما أعرف وسائل علاجهما ، وهذه الوسائل على ما نعلم يسيرة لمن أراد الإصلاح . فأما النقص في الموضوع ، وأما التواء الدليل فيحتاج إصلاحهما إلى تنبيه من أمثالك الأصدقاء المخلصين ذوي الفضل والعلم . فهل لك أن تكلف نفسك العناء فتتفغنى وتتفنع الناس ، ويكون الشكر لك مضاعفاً ؟ !

وما أحسبك حين تعرض لهذا النقد مضيعاً وقتك سدى ، فإن في رواية الهلويز تحليلاً نفسياً شيقاً ومباحث فلسفية غير تافهة . وكتاب التربية هو خير ما كتب روسو . وأحسبني حين لخصتهما ونقدتهما لم أترك شيئاً جوهرياً مما جاء فيهما أو ورد عليهما ، وإن كنت قد أوجزت في التلخيص والنقد فذلك لأوفر على القارئ وقته ، ولأحول بينه وبين الملل ، ولأعصم نفسه من زلة ادعاء العلم بما لا أعلم . وقبل أن أختم هذه الكلمة أرجو أن أعيد أمامك كلمة مما سطرته في مقدمة الجزء الأول لتكون متساحاً معي بمقدار ما يسمح به قدرى لمجهودي . قلت في تلك المقدمة : « لا أدعى استطاعة القيام بهذا البحث على وجه كامل ، لأنني لم أتخصص له ، وإنما هويته فأخذ مني وقتاً ومجهوداً كانا من خير الأوقات والمجهودات التي أنفقت في حياتي فلم أشعر معهما بألم ولا بملال ، بل كنت أتقل إلى تذوق أنواع من اللذة ، وأشعر في أعماق روحي بدسم ما يصل إليها أثناءهما من الغذاء ، ولكنني على كل حال لم أتخصص . والبحث الكامل لا يتأتى إلا بالانقطاع والمزاولة

والإمعان وطول التفكير في الساعات والأيام والأشهر المختلفة ، وعند مراجعة المؤلف ومن كتب عنه من الكتاب الكثيرين جداً . وإذا كنت قد قرأت كتباً كثيرة فهي على كل حال قليلة لى جانب ما كتب أو أخذ عن روسو .

هذا ومع شكرى لله على حسن عنايتك بكتابتى أرجو أن تتفضل بقبول فائق الاحترام .
أخوك

محمد حسين هيكل

ولن أطيل الوقوف على كتاب هيكل وإن كان يسألنى هو ويسألنى غيره أيضاً أن أتناول موضوع الكتاب بالنقد والتحليل ؛ فقد أحسبني أشرت في الفصل الماضى لى موضوع الكتاب وقيمته ، إشارة إن لم تكن مفصلة مغرقة فى الإسهاب فهى إشارة كافية . وماذا يريد منى القراء حين أعرض لكتاب هو تحليل لشيء من كتب جان جاك روسو ؟ أليس يكفى أن أشير إلى مكانة روسو وأثره فى الأدب الفرنسى خاصة وفى الأدب الأوروبى عامة ؟ أم هل يريدون أن أتناول كتب جان جاك روسو بالبحث المفصل والنقد المطول كما فعل هيكل نفسه ؟ أم هل يريدون أن أتناول التحليل والتحليل والنقد بالنقد ، فأكتب حاشية على شرح هيكل بلخان جاك روسو ، أو تقريراً على حاشية هيكل على جان جاك روسو ؟ أليس فى هذا إطالة لا حاجة إليها وإسراف نستطيع أن نجد عنه منصرفاً ! !

ربما كان من الحق على أن أقول فى صراحة ووضوح : إن كتاب هيكل يتناول بالنقد والتحليل كتابين قيمين من كتب جان جاك روسو ، هما هلوزين الحديدية وكتاب لإميل أو التربية . والناس بين رجلين : أحدهما قرأ جان جاك روسو فمن الحق أن أفصل له كتب جان جاك روسو ، والثانى لم يقرأ هذا الكتاب فمن الخير أن أحثه على قراءة هيكل ليجد فى كتابه كل ما يحتاج إليه أو أكثر ما يحتاج إليه فى هذين الكتابين من كتب جان جاك روسو .

أعلم أن كتاب هيكل يستحق كثيراً من الثناء فى موضوعه وفى مذهبه فى النقد والتحليل ، وأن هذا الثناء الذى يستحقه قد يكون أكثر جداً من الثناء القليل الذى قدمته إليه فى الفصل الماضى . ولكنى أعلم حق العلم أن صديقى هيكل لا يطمع منى فى هذا الثناء الكثير ، وإنما يكفيه أن أقول إن كتابه قيم نافع حسن التأليف وإن لم يكن خسن التبويب والتقسيم . وهل من الحق أن صديقى هيكل يريد أن أدله على ما فى الكتاب من عيب ليتقيه حين يعيد طبع الكتاب ؟

أما أن يكون هذا حقاً فإني لا أطلب منه إلا أن يتقن ما ذكرت من العيوب العرضية في الفصل الماضي ، فهو إن اتقاهها أحسن إلى كتابه وإلى الناس . وليطمئن هيكل ؛ فليس من الحق أني لم أقرأ من كتابه إلا صحفاً قليلة ، فقد ذكرت بنفسى أكثر كتابه ، ولعله يذكر أنه قرأ علىّ منه طائفة قبل أن يشرع في طبع الكتاب . أنا إذاً لا أجهل الكتاب في جملته ولا في تفصيله ، وإكثي لا أحب أن احلل التحليل ولا أن أفصل التفصيل ، ولا أن أتورط في الشروح والحواشى والتقارير . وأحسب أن الفصل الماضي يكفي لما أريده حين أكتب هذه الفصول ، وهو أن أرغب القراء في أن يقرءوا كتاباً أحسبه قيمياً نافعاً ، وأمكثهم من أن يقلدوا طائفة من الكتب على وجهها .

أعود فأقول : إن صديقي هيكل يستطيع أن يطمئن ؛ فقد يكون نقدى شديداً ، وقد يكون نقدى عرضياً . ولكن هناك شيئاً لا شك فيه ، وهو أن هذا النقد إن لم ينفع الكتاب لم يضره . على أني أختم هذه الكلمة بالاعتذار إلى هيكل من خطأ أخذته به فكنت أنا المخطئ وكان هو المصيب ، أنكرت عليه استعمال كلمة «مهور» بالواو لا بالياء ، ونهيت بعض الأدباء إلى أن هذا الاستعمال صحيح ، فرجعت إلى المعاجم فإذا الكلمة تستعمل بالياء والواو ، وإذا هي قياسية حين تستعمل بالياء ومسموعة حين تستعمل بالواو . وإذا فلم يخطئ الكاتب وإنما أخطأ الناقد ، وإذا فقد نقصت الأغلاط المطبعية واللغوية في الكتاب ، وهذا شيء لا بأس به .

ولانتقل من هيكل إلى كاتب آخر لا يشبهه في شيء . ومن كتاب هيكل إلى كتاب آخر ليس بينه وبينه صلة ، لأنتقل إلى الأستاذ الراقعى وإلى كتابه في فلسفة الجمال والحب . وأنا أشهد أن هذا الانتقال ثقيل مؤلم ؛ لأن الفرق بين الكاتبين عظيم وبين الكتابين أعظم .

الأستاذ الراقعى لا يجب النقد إلا أن يكون هذا النقد على هواه . وقد كنت أتحدث إليه يوم السبت الماضي فعرفت أنه يجب النقد على هذا الشرط ، ولم أكد أعلن إليه أن لى في كتابه رأياً قد لا يرضاه حتى أعلن إلى متشدداً أنه سيرد على ، وطلب إلى رئيس التحرير متشدداً أن ينشر رده ذلك ، وهو يرى رئيس تحرير «السياسة» يدفع إلى رده على نقد كتابه يسألني أن أنشره في صحيفة الأدب . وإذا فأنا أكتب ما أكتب وأنا أعلم أن الأستاذ الراقعى

سيغضب وسيرد ، وسيكون سخطه شديداً . وكل هذا ليس شيئاً ؛ فقد غضب ناس قبل الأستاذ الراجعي ، وسخطوا وردوا وأسرفوا في الرد ، فلم يصرفني ذلك عن رأي ، ولم يحولني ذلك عن مذهب .

ولنما الشيء العسير حقاً هو أن أنقد كتاب الأستاذ الراجعي . فكيف تستطيع أن تنقد كتاباً لا تفهمه ؟ وما رأيك في أني لا أفهم كتاب الأستاذ الراجعي ؟ لا أفهمه . ولقد اجتهدت في أن أفهم ، فقرأت وقرأت واستأنفت القراءة ، ولكنني لم أفهم شيئاً .

ولقد ذكرت هذا أو بعضه للأستاذ الراجعي فقال : ولم تتخذ نفسك مقياساً للناس ! ثم لم نستطع أن نمضي في هذا الحديث الذي كان يمكن أن يكون قياً : لست أتخذ نفسي مقياساً للناس ، وإنما أتخذ نفسي مقياساً لنفسي ، فإذا قلت إني لا أفهم فليس معنى هذا أن الناس لا يفهمون ، وإذا قلت أفهم فليس معنى هذا أن الناس يفهمون . ولكنك تسألني أن أنقد كتابك وأعلن رأيي فيه ، فلم تسألني هذا ؟ ألسنت تسألني إياه لأنك تريد أن يعرف الناس رأيي في كتابك ، ولأنك تظن أن كتابك قد يصيب خيراً قليلاً أو كثيراً حين أتناوله بالنقد ؛ وأنت قد سألتني أن أنقد كتابك ، سألتني هذا حين أهديت إلي هذا الكتاب ، وسألتني حين كتبت إلي في الصيف الماضي كتاباً جلولاً رقيقاً تطلب إلي فيه أن أقول رأيي في الكتاب ، وإذا فلنك على أن أقول رأيي في الكتاب . وأن أقول في صراحة ووضوح ، وفي قصد واعتدال أيضاً . ورأيي في الكتاب أني لا أفهمه فلا أستطيع أن أقول إنه رديء أو جيد ، بل أستطيع أن أقول إني لا أفهمه ، وإذا فلا يمكن أن يكون جيداً . ذلك أني وإن لم أتخذ نفسي مقياساً للناس فلست من الأميين ولا من الذين يشق عليهم أن يفهموا الآثار الأدبية القيمة . وإذا فإذا كتبت كتاباً لا سبيل إلي أن أفهمه فيجب أن يكون في هذا الكتاب عيب حال بيني وبين فهمه ؛ ذلك لأنني أقرأ القرآن فأفهمه ، وأقرأ الشعر فأفهمه ، وأقرأ ضروباً من النثر العربي والأجنبي فأفهمها ، وأقرأ كتابك فلا أفهمه ، فيجب أن يكون كتابك شيئاً لا كالكاتب ، ويجب أن يكون مذهبك في الكتابة شيئاً لا كالمذاهب .

والحق أني ترددت كثيراً قبل أن أكتب هذا الفصل ؛ فأنا أعلم أن الأستاذ الراجعي قد تكلف مشقة لا تكاد تعدلها مشقة في وضع هذا الكتاب ، ذلك

شيء يظهر واضحاً جلياً لمن يقرأ من هذا الكتاب أسطراً قليلة ، أو هو تكلف العناء في طبعه ونشره وأنفق مالا في هذا الطبع والنشر ، فقد يكون من الإسراف في القسوة أن تعرض لعمل كهذا فيه مشقة وعناء ومال ، فتعلن أنه غير جيد ، وتعلن أنك لا تفهمه .

ولكن ما رأيك في أن مثل هذه الكتب التي تزداد وتغلو الصحف في حمدها وتقريظها يتناولها الشبان فيقرءونها ويحتذونها ، فهموها أو لم يفهموها ، وتكون لها الآثار المختلفة في عقولهم وآرائهم وأساليبهم الكتابية ؟ أليس هؤلاء الشبان علينا حق أن نلفتهم إلى هذه الكتب ونعينهم على أن يقدروها قبل أن يقرءوها ؟ بلى ! لم علينا هذا الحق . وأنا مضطر إلى أن أعتذر إلى الأستاذ الرافعي من أني لا أستطيع أن أثني على كتابه ولا أن أحث الشبان على قراءته .

تظلم الأستاذ الرافعي إن قلت إنه لا يشق على نفسه في الكتابة والتأليف ، بل أنت تصفه إن قلت إنه يتكلف من المشقة في الكتابة والتأليف أكثر مما ينبغي . ولقد كنت أريد أن أقول إنه ينحت كتبه من الصخر ، ولكنني أجد في هذه الجملة ما لا ينبغي لوصف هذه المشقة !

ومالي لا أتبسط بعض الشيء : فأقول إن كل جملة من جمل هذا الكتاب تبعث في نفسي شعوراً قوياً مؤلماً بأن الكاتب يلدها ولادة ، وهو يقاسى في هذه الولادة ما تقاسيه الأم من آلام الوضع ، ولو أنه ظفر بعد هذه الآلام بما تظفر به الأمهات بعد آلام الوضع ، لقلنا آلام قيمة لها نتائجها الحسنة وآثارها الخالدة ، ولكنه لا يظفر من هذه الآلام بشيء . فأنت لا تجد لذة في قراءة هذه الجمل المتعبة المكدودة التي شقت على كاتبها وهي تشق على قارئها .

وكذلك تظلم الأستاذ الرافعي إن قلت إن حظ من العلم باللغة العربية وآدابها وبدقائقها وأسرارها قليل ، وإنما الحق أن الذين يعلمون هذه اللغة كما يعلمها الأستاذ الرافعي قليلون جداً ، وأحسبهم يحدون . والحق أن الذين يظهرون على أسرار هذه اللغة ودقائقها كما يظهر عليها الأستاذ الرافعي قليلون جداً ، وأحسبهم يحدون أيضاً . ولكن ماذا تريد وقد أبى الأستاذ الرافعي ، أو أبت عليه فطرته ، أن يكون علمه باللغة مفيداً وأن يكون ظهوره على أسرارها نافعاً ! ماذا تريد وقد حرص الأستاذ الرافعي على أن يكون عالماً وحده منفصلاً عن هذا العالم الذي يعيش فيه .

كنت أصف العقاد في فصل مضى بشدة الغموض أحياناً ، وقد رضى الأستاذ الراجعي عن هذا الفصل وأنبأني أنه لم يرض عن شيء مما كتبت كما رضى عن هذا الفصل . ولكنني أعترف بأن غموض العقاد أحياناً ليس شيئاً بالقياس إلى غموض الراجعي دائماً . فأنا لم أفهم مقدمة العقاد ، ولكن فهمت كتابه كله . أما كتاب الراجعي فقد قرأت مقدمته فلم أفهمها ، فقلت كتاب ككتاب العقاد ، فسأفهم رسائله بعد أن أعيتني مقدمته ، ومضيت في هذه الرسائل ، فليتني ما مضيت ؛ لأنني أتعمت الكتاب ولم أفهم منه شيئاً .

يجب أن أكون منصفاً ، فأنت تستطيع أن تقطع كتاب الراجعي جملاً جملاً وأن تجد بين هذه الجمل طائفة غير قليلة فيها شيء من جمال اللفظ وبهرجه يخلبك ويسهويك ، وفيها معان قيمة لا تخلو من نفع ، ولكن المشقة كل المشقة في أن تصل هذه الجمل بعضها إلى بعض وتستخرج منها شيئاً قياً . لن تظفر من هذا بشيء ، وأكبر ظني أن الأستاذ الراجعي نفسه لا يحاول أن يقول شيئاً حين يكتب هذه الرسائل ، وإنما هو يذهب في النثر مذهباً غريباً ، فيتكلف العناء والمشقة في الغوص على المعاني الغريبة ، ثم يتكلف العناء والمشقة في أن يسبح على هذه المعاني الغريبة ألفاظاً غريبة ، حتى إذا تم له من ذلك خلق غريب رصّ هذا الخلق بعضه إلى بعض فاستقت منه رسالة ، ثم يستأنف العمل حتى تتسق له رسالة أخرى ، ورسالة ثالثة ورابعة ثم يرص هذه الرسائل بعضها إلى بعض فيتسق له منها كتاب .

وليس أدل على غموض الراجعي من هذه النادرة التي لا أراها تخلو من ظرف وأنا أترك للعقاد وأصحابه أن يصدّقوها أو يكذبوها ، وهي أن العقاد أراد أن ينقد كتاب الراجعي فانتفع منه بما كتب على الغلاف ، واتخذ عنوان الكتاب وسيلة إلى أن يذكر مذهبه هو في فلسفة الجمال والحب . وأحسب أن العقاد لم يكتب بالغلاف في القراءة ، وإنما وصل إلى قلب الكتاب ، ولكنه اضطر أن يكتب بالغلاف حين أراد أن يكتب لأنه لم يجد في الكتاب شيئاً .

ومن غريب الأمر أن لدينا في مصر رجلين : أحدهما فيلسوف الجمال والحب ، والآخر أديب الجمال والحب . فأما الأول فهو العقاد ، وقد قلت لك غير مرة إنني لا أفهمه أحياناً . وأما الثاني فهو الراجعي . وأنت تظن أن الفلسفة أشدّ عسراً على الفهم من الأدب ، وأنتك تستطيع أن تفهم الأديب في يسر ،

بل يجب أن تفهمه في يسر ، وأنتك تعذر الفيلسوف إذا وجدت مشقة في فهم فلسفته . ولكن الله أراد أن تنعكس الآية هذه المرة فتفهم فلسفة العقاد في الجمال والحب ، أو ما يسميه العقاد فلسفة الجمال والحب ، ولا تفهم أدب الرافعي في الجمال والحب . وإذا أراد الله شيئاً فلا مرد له .

وأنا أريد الآن أن أختم هذا الفصل بطائفة قليلة من الجمل نتخذها نموذجاً لما في كتاب الرافعي من الغموض والإغراب والعسر . انظر إلى هذه القطعة البديعة : « اجتمع من تاريخه إنسان بلغ الزمن تحت عينيه نيفاً وأربعين سنة ، فهو تاريخ أحزان قد استفاضت مسائله في فصول وأبواب جف القلم منها على نيف وأربعين جزءاً كلماتها في حوادثها ، وإن السطر منها ليرعد في صحيفته من الغيظ ، وإن الكلمة لتبكي بكاء يرى ، وإن الحرف ليئن أنيباً يسمع ، وإن تاريخه كله ينتفض لأنه مصيبة ملكية مصورة في ملك » .

اللهم إني أشهد أني لا أفهم شيئاً ، إلا أنه يشبه العمر بكتاب من كتب التاريخ ، والحوادث بالكلمات التي تكتب في هذا الكتاب ، والسنين بأجزاء الكتاب . فأما هذه السطور التي ترعد غيظاً في الصحف ، وأما بكاء الكلمات الذي يرى ، وأنين الحروف الذي يسمع فعلم ذلك كله عند الله وعند الرافعي ! ومع هذا فهذه الجملة أيسر ما في الكتاب . ومهما يكن من شيء فإن الذين يريدون أن يروضوا أنفسهم على الطلاسم واقتحام الصعاب وتجشم العظام من الأمور يستطيعون أن يجدوا في كتاب الرافعي ما يريدون .

أحسن إليّ وأنا مولاك

في صيف السنة الماضية أهدى الأستاذ الرافعي إليّ كتابه «رسائل الأحزان في فلسفة الجمال والحب» ، وكتب إليّ يسألني أن أقول في كتابه شيئاً ، وأن أحسن كما أحسن الله إليّ ، وألا أنسى نصيبي من الدنيا ولا أبغى . وإذا فقد كان يسألني أن أثني عليه ، وقد كان على هذا الثناء حريصاً . وقد كان يدبر في نفسه أني آمن إن أجبته إلى ما يريد فأثنت وأطريت ، وأنى معرض لحرب شعواء إن أبيت عليه الثناء والإطراء . وكان في كتابه أقرب إلى التضرع والتسول منه إلى الوعيد والتذير . وقد ضحكك من كتابه هذا وأهملته فيما أهمل ، ثم نقدت فلسفته في الجمال والحب ، فأغضبه هذا النقد . ويظهر أنه أغضبه إلى حد أن أفقده رشده وصوابه ، فكتب ما ستقرأ .

وفي الحق أني قرأت هذا الفصل الذي ستقرؤه ، فترددت بين اثنتين : رأيت أن فيه سفهاً كثيراً وشبهاً منكرًا وتجاوزاً للحدود الأدب والأخلاق ، فقدرت في نفسي أن نشره شر لأنه ترويج للمنكر . ورأيت أن الرجل قد هوجم في كتابه ، فمن حقه أن يدفع عن نفسه ، ومن الحق عليّ أن أنشر له هذا الدفع وإن كان قد أسرف فيه إسرافاً وأسف فيه إسفافاً ، وقدرت في نفسي أن الناس يقرءون مثل هذا الشر ويحتملون مثل هذا المنكر في طائفة من الصحف ، فليس عليهم بأس من أن يقرءوا سفه الرافعي ويحتملوا منكره مرة في «السياسة» . وقدرت في نفسي أيضاً أن للناس شيئاً من الحق في أن يظهروا بأنفسهم على أخلاق الكتاب وآدابهم ومناهجهم في الحوار وهم أحياء . وإذا كنت أكره أن أعرض لأخلاق الأحياء وآدابهم ، وإذا كان الرافعي قد أراد أن يعرض نفسه على الناس وأن يعرضها عارية مجردة كأبشع ما خلقها الله ، فليس من حق أن أحول بين الناس وبين هذه النفس ، وليس من حق أن أحول بين الرافعي وبين إظهار نفسه للناس كما خلقها الله في غير تكلف ولا تصنيع . وقدرت في نفسي شيئاً آخر ، لو أن للرافعي حظاً من الإنصاف لقدّم إليّ

الشكر عليه . ذلك أن الرافعي كغيره من الكتاب يستطيع أن يكتب ما يفهم وأن يقول أحياناً كلاماً يدل على شيء . وهو إنما يستطيع هذا حين يحس ويشعر ، ويريد أن يصف ما يحس ويشعر ، أى حين يكون صادقاً في وصف نفسه لا كاذباً عليها ولا واصفاً لها بما ليس فيها . وآية ذلك أنك ستقرأ هذا الفصل فتفهمه أو تفهم منه شيئاً كثيراً ؛ لأن نقدي إياه قد آذاه وأمضه ، فأحس شيئاً من الألم ، وأجرى هذا الألم قلمه بما كتب ، فكان صادقاً في وصف نفسه وإعلان ألمه ، ومن هنا كان مفهوماً . وهو إذاً يستطيع أن يكون مفهوماً حين يكون صادقاً . ومن هنا تستطيع أن تتبين العلة الصحيحة في أن فلسفته في الجمال والحب لا تفهم ولا تدل جملتها على شيء ؛ ذلك لأنه لا يحس هذه الفلسفة ولا يشعر بها ولا يصف جمالاً يخلبه حقاً ، ولا يذكر جأً بعث قلبه على الخفوق ، وإنما هو يكذب على نفسه حين يزعم لها حب الجمال وفهمه ، ويكذب على قلبه حين يزعم له الخفوق بألم الحب ولذته ، ويكذب على الناس حين يزعم لهم أنه يصدر فيما يكتب عن حس وشعور . هو متكلف ، وهو يعرض لما لا يعلم ، وهو يصف ما لا يحس . ومن هنا تورط في سخف القول وهراء الحديث . ولكنه على كل حال يستطيع أن يكتب شيئاً يفهم إذا لم يكذب على نفسه ولم يصفها بما ليس فيها . فإذا كان لى أن أقدم إليه وإلى أمثاله من الناس الذين يعشقون القديم على غير علم به ولا فهم صحيح له نصيحة ، فهمي أن يصدقوا حين يكتبون ، فقد كان القدماء صادقين حين يكتبون ؛ ومن هنا فهمنا القدماء ، ولم نفهم هؤلاء السادة « المتقادمين » .

قدرت في نفسى كل هذه الأشياء ، فأثرت أن أنشر فصل الرافعي وأنا مع ذلك معتنر إلى القراء من نشره ؛ لأنى لم أعدهم أن أنشر مثل هذا الحق في صحيفة الأدب . ومع ذلك فإنى واثق بأن كثيراً من القراء سيشكرون لى نشر هذا الفصل ، لأنهم سيضحكون منه كما ضحكتم ، وسيستعينون به على قضاء ساعة لا تخلو من فكاهة وتسلية . وما رأيك في رجل يزدرينى ثم يكتب هذا الفصل الطويل فلا يدل به إلا على أن الله قد ملأ نفسه غلا وحقداً وخوفاً من النقد وذعراً ! وما رأيك في رجل يفلسف في الجمال والحب ، أى يضع نفسه بين الفلاسفة بل بين كبار الفلاسفة ، فلم يفلسف منهم في الجمال والحب إلا قليلاً ، ثم لا تمنعه فلسفته أن يكون طفلاً ، فيتحدثانى ويطلب إلى أن أكتب كتاباً

ككتابه أو كفصل من كتابه . أستغفر الله ! ومتى أبيع لمثل من الضعفاء أن ينهض لتقليد الرافعي ! أعترف بأني عاجز عن أن أتق بكتاب ككتاب الرافعي أو بفصل كفصول الرافعي ؛ لأن الله لم يرد أن أكون غامضاً غموض الرافعي ، ولا كاذباً على نفسي وعلى الناس كذب الرافعي ، ولا عابثاً بحمال هذه اللغة عبث الرافعي ، ولا متسولاً على الناس في المدح والثناء تسول الرافعي ، ولا حاقداً على الناقدين حقد الرافعي . أبي الله على كل هذه الحسنات ؛ فليس غريباً أن يعجزني كتاب الرافعي ، بل فصل من فصوله ، بل جملة من جملة . ستضحك حين تقرأ هذا الفصل ، ستضحك حين ترى الرافعي يعتب عليّ في غيظ وحقد . إني لم أسمه حين خطأتني في نقد هيكل لاستعمال كلمة « مهوب » ! ولقد أحب أن يعلم الرافعي أنني لم أسمه لأنه لم يكن أول من دلني على هذا الخطأ ولا آخرهم ، وإنما سبقه إلى ذلك هيكل نفسه ، وروى لي في ذلك شعراً ، ثم دلني على هذا الخطأ الأستاذ « وحيد » في مقال نشرته له « السياسة » وراح لي إلى هذا الخطأ تلميحاً ظريفاً . فإذا كنت لم أسم أحداً فلم يكن ذلك نفاسة على الرافعي ولا جحوداً لعامة باللغة ، وأنا الذي يقول في الفصل الماضي : إن الذين يحسنون العلم باللغة كما يحسنها هو قليلون .

ستضحك حين تقرأ هذا الفصل فترى الرافعي قد انتهى به الغرور والعجب إلى حيث خيل إليه أنه أغضبني ، وأني كنت أسمع كلامه فتبتلعني ثيابي ، وأني اقتلعت نفسي من المجلس اقتلاعاً ، بل فررت منه مرتين : تركته عند « عزمي » مرة وفررت إلى هيكل فتبعني ، فتركت له « السياسة » كلها وأخطأ حين فسر هذا الاقتلاع بأنه أثر الخوف أو ما يشبهه . ولو فسر به شيء آخر يشبه استئصال الضل واستبطاء الحركة لوفق لبعض الصواب . وأخطأ حين قدر أن ثيابي كانت تبتلعني وم تبتلعني ثيابي !

لقد يكون من الحق على الرافعي لو أنصف نفسه أن يعلم أنني من قوم قد بلوا السفهاء فأحسنوا بلاءهم ، وصبروا لهم واحتملوا منهم شراً كثيراً لاضجرين ولا متخرجين ولا مستخفين في ثيابهم . وإن رجلاً يحتمل من السفهاء مثل ما نحتمل منذ امتحن الله مصر في أخلاقها هذه الأعوام الأخيرة لخليق ألا يضيق صدره إن زاده الله على هؤلاء السفهاء واحداً ، أو يبسم ثغره إن نقص الله من هؤلاء السفهاء واحداً .

أحب أن يعلم الرافعي أني لا أضيع بالسفهاء ذرعاً، وقد أرى في سفههم سبيلاً إلى اللهو والتسلية . وأحب أن يعلم الرافعي أني بعيد كل البعد عن أن يغضبني فصله هذا أو يؤذيني ، وأنى إن أشفق على أحد من هذا الفصل فإنما أشفق على كاتبه ؛ لأنه كتبه وهو محموم أو كالمحموم ، وأشفق على قارئه لأنه سيقراً نكراً من القول هو إلى هذيان الحمى أقرب منه إلى كلام العقلاء . ولقد تقدمت الناس من قبل الرافعي فلم أصانعهم ولم أرفق بهم ، وفيهم ضيق الصدر ، وفيهم من لا يحتمل النقد ولا يسعه ، فلم أجد منهم هذا الألم ولا هذا السخط ولا هذا الشيء الذي يذهب على الرجل بعقله وصوابه . ويحك ! وما عليك أن يقول الناس في كتابك إنه جيد أو ردىء إذا كنت مقتنعاً بأن كتابك جيد ! ويحك ! وفيما تسأل الناس آراءهم في كتابك إذا كنت ضيق الصدر بهذه الآراء ؟ ويحك ! وفيما تغشى الناس في بيوتهم ودور أعمالهم ! وفيما تلح عليهم بالبريد مرة وبالبرق مرة أخرى ، وفيما ترسل إليهم الوسطاء وتتوسل إليهم بوجوه الناس ، ليتصدقوا على كتبك بكلمة ، إذا كنت لا تستطيع أن تقبل هذه الكلمة كما يريد صاحبها أن تكون ؟ ! ويحك ! أالمدح وحده تسلك هذه السبل وتصطنع هذه الوسائل وتتكلف هذه المشقات ! وما قيمة المدح يكره عليه صاحبه ! وما قيمة الثناء يبذله الرجل ليتخلص من ملح ثقيل ، كما يبذل الرجل درهماً في غير إحسان ولا حب للإحسان ولكن ليتخلص من هذا السائل الذي يتبعه في الطريق أو يأخذ عليه السبيل ! أفي هذا الثناء تطمع ، فإن ظفرت به فأنت سعيد ، وإن لم تظفر به فأنت كهذا السائل الملح يؤيسه العطاء فيتبع مانعه بالشتم والسب ؟ ! ويحك ! إنك تذكر قوماً قرءوا كتابك وأثنوا عليه . أوائت أنت بأنهم قرءوه ؟ أوائت أنت بأنهم فهموه ؟ أوائت أنت بأنهم أثنوا عليه ؟ ألم يخطر لك أنهم إنما ذادوك عن أنفسهم وألقوا إليك طرفاً من الثناء ليكفوك عن اتباعهم والإلحاح عليهم ؟ صدقتي ، فأقسم ما أريد بك إلا الخير ، وما أكتب هذا إلا مشفقاً عليك رفيقاً بك ناصحاً لك . إن الذين يخيل إليك أنهم برضون عن كتابك لم يقرأه أكثرهم ولم يفهمه واحد منهم ، ولم يخلصوا في الثناء عليك ، وإن على هؤلاء الناس لوزراً غير قليل ؛ فهم يشجعونك على الإيغال في السخف ، ويبعثون في نفسك غروراً وإعجاباً بما كان ينبغي أن تستخزي له وتستحي منه .

رحم الله حفى ناصف ! إن لك معه قصة لم أنسها بعد ، قصة توسط فيها البريد وتوسط فيها البرق ، وتوسط فيها بعض الناس ، لينتزع من الرجل ثناء على كتاب من كتبك ، أحسبه « حديث القمر » .

رحم الله حفى ناصف ! لقد لقيته ذات يوم ، فإذا هو متبرم بك ساخط عليك ، يرسلك ويرسل كتابك معك إلى الشيطان ، وإن بين الأساتذة الأحياء لمن شهد معى تبرمه وسخطه فى القطار بين القاهرة وحلوان .

لا تقل إذاً أثنى على فلان وفلان ؛ ورضى عنى فلان وفلان ؛ فليس لهذا الثناء ولا لهذا الرضا قيمة ، ولكن قل نقدنى فلان وفلان ، وعابنى فلان وفلان ؛ فإن أصدق الناس فى نصحك والإخلاص لك هم الذين ينقدونك لا الذين يحمدونك . إن الذى يحمذك إما أن يكون كاذباً عليك ، وإما أن يكون متخلصاً منك ، وإما أن يكون محبباً لك قد صرفه حبه عن عيوبك . فأما الذى ينقدك فهما يكن سبب النية ومهما يكن مسرفاً فى ظلمك والجهور عليك ، فهو يدلك على عيوب أنت خلتق أن تمتحنها فإن تكن فىك اجتهدت فى أن تبرأ منها ، وإن لم تكن فىك حمدت الله واجتهدت فى ألا تتورط فيها . كن عاقلاً وخف حامدك أكثر مما تخاف ناقدك .

كن عاقلاً ، واعلم أن الثناء الخالص الذى لا يشوبه النقد إنما هو كالماء أذيب فيه كثير من السكر ، وتوشك إن أسرفت فى شربه أن يأخذك الغثيان ، وخير لك وأصلح لصحتك أن تضيف إلى هذا الماء والسكر عنصراً ثالثاً يحول بينك وبين التوى . فما كان لك ولا للناس نفع قليل أو كثير فى أن تنىء لهم من حين إلى حين رسائل أحزان أو شيئاً يشبه رسائل الأحزان ...

أما بعد ، فإنى أقوم مقام هيكل فأشكر ثناءك عليه وإكبارك إياه ، وأؤكد لك أنه ليس فى حاجة إلى هذا الثناء لينشر ما تبعث إليه من الفصول . وأؤكد لك مرة أخرى ، وقد أكد لك هيكل نفسه ، أنه لا يستطيع نشر هذه الفصول إذا لم أرد أنا نشرها ما دام إلى أمر صحيفة الأدب . ثم أؤكد لك أن رئيس تحرير « السياسة » يؤثر نقدى إياه على حمدك له ، لأن رئيس تحرير السياسة يؤثر الليمون على السكر الخالص . ثم أنصح لك ألا تدخل بينى وبين هيكل فتضطر نفسك إلى ما لا تحب . أحسبك لا تطمع فى أن أرد على ما فى فصلك هذا من رد على ما نقدتلك به ؛ فأنت لم ترد إلا بشتم وسب . وما زلت أقول إن

هذا دليل على أن كتابك ليس جيداً . وما زلت أقول إنى أفهم القرآن وغيره من الآثار الأدبية القديمة والحديثة ، وإذا فعجزى عن فهم كتابك دليل على أن كتابك ردىء .

أما « السحاب الأحمر » فسأحدثك عنه ، ولكن حين أريد أن أحدثك عنه ، وكما أريد أنا وقواعد النقد ، لا كما تريد أنت وتهالكك على الثناء .

• • •

أرجو أن يتقبل الدكتور أحمد زكى أبو شادى منى أجل الشكر لهذه الأبيات التى تفضل فأرسلها إلى يثنى فيها على حديث الأربعاء ، والى أعترى إليه من نشرها ، لا لشيء إلا لأنى أرى الشاعر قد أسرف فى حسن الظن بى ، وغلا فى الثناء على ، حتى حال بينى وبين نشر أبياته هذه ، فأنا أحتفظ بها عندى ، وأرجو أن أوفق لتصديق ظن الشاعر بى ورأيه فيما أكتب . وإذا كنت قد نصحت للرافعى بالألا يسرف فى حب الثناء وإذاعته بنوع خاص ، فأنا خليق أن أنتصح بما أنصح به للناس ، وأعيد للشاعر شكرى ، وأرسل إليه تحيىى الخالصة .

ولدى كتب أخرى أحب أن أنشرها اليوم ، ولكن ضيق المكان يضطرنى إلى أن أرجئها إلى الأسبوع الآتى . فلينتظر أصحابها فلن تهمل .

١ - أسلوب الأستاذ وحيد

٢ - مجلة الجديد للأستاذ محمود عزى

١ - سألتني منذ أسبوع كاتب أديب عن رأيي في أسلوب الأستاذ وحيد ، وقد كنت أريد أن أقول في هذا الأسلوب كلمة ، وكنت أرجئ هذه الكلمة من وقت إلى وقت حتى سألتني هذا الأديب ، فرأيت أن أجيبه في هذا الحديث . ولكن الأستاذ وحيد تعجل الأمر وسبقني إلى الإجابة ، فوصف نفسه بما أراد له تواضعه واقتصاده وجبه للاعتدال .

وليس من شك في أن للأستاذ وحيد أن يجيب من شاء بما شاء وكيف شاء . وليس من شك في أني أعرف له رفقه بي وأشكر له ضنه بوقتي وأقدر له تواضعه . ولكن هذا كله شيء ، وحتى أن أتناول أسلوب الأستاذ وحيد بكلمة في هذا الحديث شيء آخر . وأنا شديد الحرص على هذا الحق شديد الضن به . فليعذرني الأستاذ إذا لم أكتف بجوابه ، وليعذرني إذا حرصت على أن أعلن رأيي في أسلوبه .

ليس من الحق أن أمر هذا الأسلوب « ضئيل بثيل » كما يقول صاحبه ، وإنما الحق أنه جليل بليل ، أو عظيم نظيم ، أو خطير بطير ، أو ما شاء الأستاذ وحيد من هذا الإتياع الذي يحسن أحيانا ويسوء أحيانا ، والذي يجيده الأستاذ وحيد كما يجيد غيره من ألوان التكلف اللغوي لإجادة يحسد عليها حقاً . ولقد قلت الكلمة ، وكنت أريد ألا أقولها إلا بعد تحفظ واحتياط ، وبعد أن أقدم بين يديها المقدمات ؛ لأنني لا أريد أن أسوء الأستاذ . وإذا كنت لا أريد أن أسوءه فليس ذلك لأنني أريد أن أجامله أو أصانعه ، وإنما هو لأنني آراه خليقاً ألا يساء ، بل آراه بالثناء حريئاً بريئاً ! .

قلت الكلمة في غير تحفظ ولا احتياط . فلأفسرها ليحلم الأستاذ وقراؤه أني لم أرد بها شراً . وإنما أردت بها حقاً الخير .

الأستاذ وحيد ، أو قل أسلوب الأستاذ وحيد ، ظاهرة أدبية غريبة في

هذا العصر ، غريبة من وجوه عدة . فالناس لم يألفوا الكتابة على هذا النحو ، وإنما ألقوا أن يرسلوا النثر لإرسالاً مع الطبع ، فيكتبون كما يفكرون وكما يتكلمون . وإذا أرادوا أن يتكلفوا الإحسان ويستزيدوا من الإتقان اجتهدوا في اجتناب التكلف ، وأحسنوا تخير ألفاظهم على أن تكون سهلة جزلة ، وحرصوا على أن تكون أساليبهم مستقيمة لا ملتوية ولا معوجة : وبعبارة مجملية . ألفت الناس في هذه الأيام ألا يعوقوا القارئ بالتفكير في ألفاظهم وأساليبهم عن التفكير في آرائهم ومعانيهم ، لا أستثنى من هؤلاء الناس إلا قوماً لم يرزقهم الله حظاً من المعنى ولم يتح لهم أن يكونوا من ذوى الآراء ، وقد قضى عليهم أن يكونوا كتاباً ، فهم يتكلفون إجادة اللفظ وتعقيد الأسلوب والتحدث إلى الآذان حين عجزوا عن أن يتحدثوا إلى القلوب والعقول . أما الأستاذ وحيد فليس واحداً من هؤلاء ؛ لأنه لا يكتب ليبهز الناس بلفظ أو يسحرهم بأسلوب . وهو لا يرى نفسه كاتباً كبيراً ، ولا يزعم لنفسه مكانة ممتازة بين أهل الأدب . وهو لا يريد أن يروعك باللفظ ولا أن يسحرك بالأسلوب ، وهو لا يكتب ليكتب ، وإنما يكتب لأنه يريد أن يقول لك شيئاً . وقد يكون هذا الشيء عظيماً فيطيل فيه إطالة حسنة ، وقد يكون هذا الشيء يسيراً فيوجز فيه إيجازاً بديعاً . وليس هو إذاً من عبید الألفاظ ، وإنما هو من أهل الرأي ، ولكنه مع ذلك يعنى باللفظ والأسلوب عناية خاصة لا يشاركه فيها أحد . وقد يكون من العسير جداً أن يشاركه فيها إنسان ؛ فأنت لا تقرؤه في سهولة ويسر ، وأنت مضطر إلى أن تحتمل شيئاً من العناء قليلاً أو كثيراً لتفهم عنه وتصل إلى ما يريد . أما منذ حين فقد كنت تحتمل هذا العناء في أسلوب الأستاذ وحيد ، فقد كان هذا الأسلوب شديد الالتواء ، فيه تعرج وانعطاف وفيه انثناء وانحناء . وقد كنت تجد الضمائر فتبحث لها عن المراجع ولا توفق لها إلا بعد شيء من الجهد . ولو أنك من الذين يقرءون اللاتينية واليونانية القديمة لشبهت لك جمل الأستاذ وحيد في طوره الأول بجمل هاتين اللغتين اللتين يريد منطوقهما أن يكثر فيهما التقديم والتأخير ، حتى إن فهمهما يصبح أقرب إلى حل المسائل الحسابية منه إلى فهم الكلام المؤلف .

كنت أفكر كثيراً في اللاتينية واليونانية حينما كنت أقرأ فصول الأستاذ وحيد في طوره الأول . وكنت « أنبى » كلام الأستاذ وحيد كما « يننى » الطلاب

جملهم اللاتينية حين يريدون أن يترجموها ، ، أو قل حين يريدون أن يفهموها ، ومعنى هذا البناء في اصطلاح الذين يدرسون اللاتينية واليونانية هو هدم الجملة التي وضعها الكاتب وإقرار الألفاظ في مواضعها كما يريد الفن ، بحيث يوضع المبتدأ في أول الجملة ثم يليه الفعل ثم يليه المفعول وما يشبهه على النحو الطبيعي . كنت أبني جمل الأستاذ وحيد فأرتبها كما يريد النحو ، لا كما يريد فن الأستاذ . وكنت أجتهد في تلمس النكت الفنية التي حملت الأستاذ على أن يقدم ويؤخر ويدور بمعناه دوراناً يتعب القارئ ويشق عليه ، فكنت أظفر بهذه النكت أحياناً وأخطئها أحياناً أخرى ، ولكني كنت أجهد في الحالين لذة وفكاهة ، وكنت أقول في نفسي إن عقل الأستاذ وحيد عقل لاتيني ركب في شخص عربي .

ولعلني أذكر أن كثيراً من الناس كانوا يجدون ما كنت أجهد من المشقة في فهم الأستاذ وحيد ، وكانوا يجدون ما كنت أجهد من الفكاهة واللذة في تحليل جملة كما نقول نحن ، أو في « بنائها » كما يقول طلاب اللاتينية واليونانية . ولعلني أذكر أنني حاولت تقليد الأستاذ وحيد واجتهدت في ذلك فلم أظفر بشيء ، ولم يقدر الله لي هذا الفوز ، ولكنه قدره لغيري ، فاستطاع اثنان أو ثلاثة أن يقلدوه فيحسنوا تقليده ، ولكنهم كانوا مقلدين ، أي متكلفين لا يصدرن عن طبع ولا يجرون مع سجيبة ، فلم يتح لهم جمال الصنعة الوحيدة الحرة .

ومهما أنس فلان أنسى مقالا نشرته للأستاذ وحيد في حوار الأحرار الدستوريين ، أراد صاحبه الجحد فكان آية الفكاهة ، وكان عنوانه : « ما قول فئة ما قولها ؟ » وقد أراد كتاب « السياسة » جميعاً يومئذ وأنا منهم أن يردوا على الأستاذ وحيد ، فأعياهم ذلك ولم يوفق له واحد منهم ثم انتدب صديقنا الأستاذ إبراهيم دسوقي أباطة فأجاب الأستاذ وحيد بمقال عنوانه : « ما قول فئة ها قولها » . ولقد اتقن الأستاذ دسوقي أباطة تقليد صاحبه يومئذ حتى خدعني عن نفسه ، وحتى خيل لي أن وحيداً قد رد على وحيد . ولست أدري أكان جاداً أم مازحاً ذلك الذي زعم لي أن الأستاذ وحيد قد أعجب بهذا الفصل حين قرأه واعترف بأن في « السياسة » قوماً يحسنون الكتابة أو اعترف بشيء يشبه هذا . ولكنني قلت : إن أسلوب الأستاذ وحيد ظاهرة غريبة في هذا العصر .

ويجب أن أتم تفسير هذا الرأي ، فليست غرابة أسلوبه في التقديم والتأخير والتعريف والتنكير والتأنيث والتذكير وإرجاع الضمير ، بل هي في ذلك كله وفي شيء آخر ، في تخير اللفظ الغريب الذي لم يألفه الناس أو لم يسمعه ، فتراه يبحث عن ألفاظ لم يسمع بها أحد من قبل ، وتراه يوفق هذه الألفاظ في معاجم اللغة فيسرع إلى اصطناعها وإذاعتها ، ويكره قراءه على أن يعرفوها ويصطنعونها . ثم لا يكتفى بالغوص على الألفاظ الغريبة ، وإنما هو يحرص على الصيغ والأشكال أيضاً ، فيستعمل الصيغ القياسية إذا كان الناس قد ألفوا الصيغ السماعية ، ويلجأ إلى السماع إذا كان الناس قد ألفوا القياس . وأكبر ظني أنه يكدر نفسه ويشق عليها في البحث عن هذه الألفاظ والصيغ . وأكبر ظني أنه يرى هذا المثل الأعلى في الفن من جهة ، ويراها وسيلة إلى نشر اللغة وإذاعتها من جهة أخرى . وأكد أقدر أنه يكتب كما يكتب الناس أول الأمر ، ثم يترجم هذه اللغة السهلة المألوفة إلى لغته الغريبة النادرة . على أن أسلوب الأستاذ وحيد قد تطور في هذه الأيام الأخيرة تطوراً شديداً ، تطور في شكله وصورته كما تطور في معناه وموضوعه وغايته ، فاستقامت الحمل ، واستقرت الألفاظ في مواضعها ، وقلت الضمائر ورجعت إلى مراجعها المألوفة ، وعرف العرف ونكّر المنكر ، ثم اشتد البحث عن اللفظ الغريب والصيغ النادرة ، فقربت المسافة بين الأستاذ وحيد وبين أصحاب الرجز من الأعراب ، كروبة والعجاج وذى الرمة والشماخ ومن إليهم . وإلى هذا التطور في الشكل والصورة تطور الأسلوب في الموضوع والغاية ، فقصده الأستاذ وحيد إلى الهزل وافتن في المزاح ، وكان هذا الأسلوب كان قد خلق لهذه الغاية ؛ فإن الذين يحبون الأستاذ والذين يكرهونه والذين يشاركونه في الرأي والذين يخالفونه فيه والذين يحملونه وواضحاً جلياً والذين يحملونه عويصاً بويصاً ، كل هؤلاء يقرون لأسلوبه في هذه الأيام، وبعبارة أدق في هذه الأسابيع الأخيرة، بالظرف وخفة الروح . نعم ! خلق أسلوب الأستاذ وحيد للفكاهة لا للجد . وليس هذا غريباً ؛ فإنك لا ينبغي لك أن تكلفني مشقة التأويل والتحويل وجهد التقديم والتأخير إلا إذا كنت تكافئني على هذه المشقة وتثيبي على هذا الجهد . وقد تعودنا ألا نرى في الجلد مكافأة ولا ثواباً ، وإنما المكافأة الحلوة والثواب اللذيذ هو هذه الفكاهة تسليك وتلهيك وأنت محزون مشغول ، وتحملك على أن تسبغ

الجد ضاحكاً وإن كان مرّاً ممعناً في المرارة . وأى الناس يستطيع أن يجحد ظرف الأستاذ وحيد في استكشاف كلمة « الألبان » و « الفنخير » و « الفشوش » ! وأى الناس يستطيع أن يجحد ظرفه حين يفسر هذه الكلمات على نحو ما تفسرها معاجم اللغة ، ولكنهم يتخذ سعداً موضوعاً لهذا التفسير ! وأنا أريد أن أعود إلى الألبان بعد حين . وأى الناس يستطيع أن يجحد ظرف الأستاذ وحيد في هذا الإيجاز البديع الذى يوفق له أحياناً توفيقاً غريباً ، فيكتب المقال لا يتجاوز السطر والسطرين وإن فيه لشيئاً كثيراً ، وإن القارئ ليقرأ فإذا هو قد حفظه عن ظهر قلب . ولقد يستطيع الناس أن يقولوا في الأستاذ وحيد ما يشاءون ، ولكنهم لن يستطيعوا أن ينكروا أنه مرسل الأمثال في هذه الأيام . أليس هو الذى أرسل هذا المثل البديع « أما ألبان ! »

وقد قلت إنى أريد أن أعود إلى « الألبان » فأنا أخالف الأستاذ وحيد في ترجمتها إلى الفرنسية ، لا لأن هذه الترجمة خاطئة ، فهي ترجمة حرفية صحيحة ، بل لأنها لا تؤدى في الفرنسية ما نفهم من اللفظ العربي ، فنحن لا نفهم من لفظ الألبان كثير اللعب ، سواء أراد الأستاذ وحيد أو لم يرد ، وسواء أرادت المعاجم اللغوية أم لم ترد ، وإنما نفهم رجلاً يسرف في اللعب المضحك ، ويسرف فيه حتى يسلى ويلهى ويبعث على الإغراق في الضحك . وواضح أن لفظ Grand joueur لا يؤدى هذا المعنى . وما رأى الأستاذ وحيد فى أن نترجم هذه الكلمة بلفظ pitre فهو فيما أرى أوفق الألفاظ للدلالة على ما نفهمه من لفظ « الألبان » ، فهو يدل بالدقة على ما يفهمه الناس من لفظ « بلياتشو » . أليست هذه الترجمة أدق وأوفى ؟ !

واختيار لفظ الألبان هذا مظهر لذوق الأستاذ وحيد ، ويجب أن نعرف بأن هذا الذوق رقيق دقيق ، أو قل هو دقيق بقيق . فأنت تجد في القاموس ألفاظاً كثيرة مشتقة من اللعب تدل على هذا المعنى نفسه ، تقول رجل تلعب وتلعب وتلعب وتلعب بفتح التاء وكسرهما . وللكلمة وجوه كثيرة كلها غريب وكلها قوى ، ولكن أقربها إلى الظرف والفكاهة هذه الصيغة التى اختارها الأستاذ وحيد ، صيغة « الألبان » . ولعل زيادة الألف والنون هى التى جعلت هذا اللفظ خفيفاً سائغاً محبباً إلى الآذان جارياً على الألسنة .

ولست أريد أن أتترك أسلوب الأستاذ وحيد دون أن أذكر هذه البطاقات

Billets التي أخذ يرسلها منذ حين إلى الأخبار يضمها أبناء فكاية عن سعد، وهي تذكر ببطاقات أنطوان التي يرسلها إلى « الجورنال » كل يوم من ملاعب التمثيل .

وجملة القول في أسلوب الأستاذ وحيد أنه ظريف كل الظرف إذا ذهب به الكاتب كما يذهب الآن مذهب الفكاية والمزل . فأما إن قصد به إلى الجلد فذلك شيء آخر .

* * *

ولندع أسلوب الأستاذ وحيد على كره منا لننتقل إلى مجلة « الجديد » . وأؤكد لعزى أنى شديد الرغبة في أن أتحدث عن « الجديد » ، وشديد الحرص بنوع خاص على أن أقرأه وأتدبره ؛ فقد يكون « عزى » صديقاً لي ، ولكني لأفكر في صداقته حين أكتب ، وإنما أفكر في شيء آخر يصل بينه وبين الذين يقرؤونه من أحيائه وأعدائه ، وهو أنه خفيف الروح جذاب شيق التفكير ، وأى الناس لا يجب أن يقرأ فصلاً تظهر فيه خفة الروح ، ويظهر فيه تفكير شيق قوى ! .

لو أنى أردت أن أميز عزى من الكتاب السياسيين - فعزى لا يتشدد بالأدب ولا يتمدح بأنه أديب ، ولا يلصق نفسه بالأدباء إلصاقاً - لميزته بخفة روحه ، وميله إلى الطرافة والابتكار : ولعل أحسن ميمز له ولشخصيته الكتابية بنوع خاص هو اسم مجلته « الجديد » ، فعزى جديد حين يتكلم ، جديد حين يكتب ، جديد حين يفكر ، هو جديد في لفظه ومعناه .

وما رأيك في هذه الثقافة « البيضاء المتوسطة » التي تجدها مرات في مقدمة مجلته ، والتي يترجم بها اللفظ الفرنسي : Culture Mediterannee ، يريد ثقافة الأمم التي عاشت حول البحر الأبيض المتوسط . أراد أن يعبر عن هذه الثقافة تعبيراً موجزاً شاملاً فجعلها بيضاء متوسطة ، كما أن الناس جعلوا البحر أبيض متوسطاً .

هذا تعبير مترجم ، وهو جديد كعزى . ولست أخفي على عزى أنى أقبل لفظ « الثقافة » وأقرأه وأعين على إذاعته واستعماله ، ولكني لا أحب هذه « البيضاء المتوسطة » . وأستطيع أن أسمى ثقافته البيضاء المتوسطة هذه ثقافة يونانية رومانية . فقد يكون من الحق أن الحضارة نشأت في مصر ونقلها الفينيقيون

إلى اليونان ، ولكن هناك حقاً آخر لاشك فيه قد يغضب المتعصبين للشرق ، ولكن هذا لا يغير منه شيئاً؛ هذا الحق هو أن الثقافة البيضاء المتوسطة ليست شيئاً آخر غير الثقافة اليونانية اللاتينية في عصرها القديم والحديث . فلنسمها إذاً بهذا الاسم . فهو صحيح ، وهو خفيف على السمع ، وهو برىء من التكلف الذى نجده فى هذا البيضاء والتوسط . ولكن عزمى جديد يشذ عن المؤلف دون أن يشذ عن هذا الشذوذ ! وهو يفكر بالفرنسية ، فإذا كتب فى العربية فهو إنما يترجم إليها . ولعلك تذكر له « منطق الأشياء » « وطبيعة الأشياء » يريد أن يترجم من الفرنسية *La logique des choses. La nature de choses* . ولعلك تذكر له « المعلومة الأولى » و « المعلومة الثانية » يريد أن يترجم

La donnée التى هى ترجمة فرنسية للكلمة اللاتينية *Data* . كل شىء عند « عزمى » جديد ، وقد يغرق أحياناً فى الجدة فيجعل على نفسه سبيلاً ، ولكن الإنصاف يقضى بأن نقول إنه لا يتكلف هذا تكلفاً ، لا يقصد إليه حباً فى البدع ، وإنما هو مضطر إليه اضطراراً ، كأنه قد فقد طبيعته القديمة فى التفكير والتعبير ، واستبدل منها هذه الطبيعة الفرنسية والحديدة . هناك خطأ فى التعبير يمسك ويثقل عليك حين تلقاه ، وهناك خطأ آخر يملك على الابتسام ، وربما بعثك إلى الضحك والإغراق فيه ، ومن هذا الخطأ اللغوى المضحك الخفيف ، خطأ عزمى الذى يضطر إليه حين يترجم عن الفرنسية . على أنى لا أريد أن أطيل فى هذه الملاحظات العرضية ، فلنهمج على الموضوع هجوماً ، ولنهى عزمى بهذه الحملة المصرية الراقية التى كان المصريون وما زالوا فى حاجة إليها .

ولكن ما موضوع هذه الحملة ؟ كنت أحب أن يكون الأدب من موضوعاتها ، لتكون مجددة فى الأدب كما هى مجددة فى السياسة وفى غيرها من فروع الحياة . ولكنى لم أر إشارة إلى الأدب فى مقدمة عزمى ، أذلك لأنه لا يتكلف الأدب ولا يدعى العلم به ؟ ولكنه لن يكتب مجلته وحده ، ولن يعوزه الأعوان على التجديد فى الأدب ، وإذا فليفتح عزمى للأدب باباً فى مجلته ، فليست حاجة الناس إلى الأدب أقل من حاجتهم إلى السياسة وما يشبهها .

وهل يغضب عزمى إذا أخذته بشىء كنت أحب ألا آخذه به ، ذلك أنه يذكر الصلات بين مصر وغيرها من البلاد العربية ، فيذكر الحوار واللغة

وفعل التاريخ . وما فعل التاريخ هذا ؟ وما الذى يريده عزى ؟ أيريد الفتوح
واتصال العلاقات السياسية ؟ ولأكن صريحاً ، ولنسأله أين الصلات الدينية ؛
ولم لا يذكرها ؟ ولم يدججها إدماجاً فيما يسميه فعل التاريخ ؟

ولألاحظ ملاحظة أخرى على عزى . فهو يريد أن يكون التعليم الأول
في مصر مدنياً خالصاً لا صلة بينه وبين الدين . وهذا رأى جديد له أنصاره
ومؤيدوه ، ولست أناقش عزى في حسنه أو قبحه ، ولكنى ألفت عزى إلى أن
تحقيق هذه الفكرة يستلزم تحقيق فكرة أخرى ، وهى أن تكون الدولة مدنية
ليس لها دين رسمى ، فأما أن تكون الدولة مسلمة أو مسيحية ويكون التعليم
مدنياً خالصاً ، فذلك شيء لا يستقيم فى « منطق الأشياء » ! .

أضف إلى هذا أن عزى معتدل فى السياسة ؛ فهو يريد أن تتحقق آمالنا
السياسية على اختلافها فى تطور هادئ ، ولكنه متطرف فى غير السياسة ،
فهو يريد ثورة اجتماعية خلقية . ولعل هذا هو الذى حمله على أن يطالب بالتعليم
المدنى دون أن يطالب بالفصل بين الدولة والدين . ولست أخفى على عزى أنى
أكره الثورة الاجتماعية كما يفهمها هو وكما يصفها كُرهمى للثورة السياسية ،
ولا أستطيع أن أتصور بلداً يثور أهله على أخلاقهم وعاداتهم ونظمهم الاجتماعية
دون أن يثوروا على نظمهم السياسية أيضاً فليست النظم السياسية شيئاً مستقلاً
عن النظم الأخرى ، وإنما هى حلقة من حلقات هذه النظم . ولولا اضطراب
فى نظمنا الاجتماعية والخلقية لما اضطربت نظمنا السياسية ؛ ولا أكاد أفهم
فى وضوح هذه الحياة الدستورية البرلمانية التى يريدها عزى لمصر ، على أن
تكون مرنة تتشكل بمقدار مالنا من رقى أو انحطاط . فما رأى عزى فى الدستور
الذى ينظم حياتنا الآن ، أملائم هو لهذه الحياة أم مخالف لها ؟ أكثر هو
علينا أم قليل ؟ أى حاجة هو إلى أن ينقص أم فى حاجة إلى أن يزداد ؟
أفهم أن عزى كاتب سياسى ، وأفهم أن الكتاب السياسيين يحبون المرونة ،
ويؤثرون العبارات التى تضطرب بين الوضوح أو الغموض . ولكن عزى يكتب
للمستنيرين ، أى لقوم يحبون أن يفهم بعضهم بعضاً ، وإذا فليكتب لهم لغة
العقليين لا لغة السياسيين . ولقد أريد أن تكون آراء عزى مبسطة فى شكل
أوضح وأجلى مما بسطت فى المقدمة .

ومهما يكن من شيء فلن يجد عزى من هؤلاء المستنيرين الذين يكتب

لهم إلا عوناً وتأييداً . وليس معنى هذا أنهم سيشاركونه في كل رأى ، وإنما هم يؤيدونه ويعينونه حتى حين يخالفونه في الرأى . وأنا أعلم أن صاحب « الجديده » سيكون جديداً من هذه الناحية ، فلا يفضيه نقد ، ولا يسوئه خلاف . وعلى هذه القاعدة أتقبل مجلته ، وأعده بأن أكون أحد المجددين فيها متى أذنت لي الظروف .

•••

لدى كتب تختلف طولاً وقصراً من الأدباء : حسن بهجت ، وشديد محمد رضوان ، وصادق راشد ، وكلها حول نقد الأستاذ الرافعى . فأنا أشكر لهم هذه الكتب ، وأعتذر لآلهم لأنى أريد أن أغلق هذا الباب . أما كتاب العقاد فسأشره فى الأسبوع الآتى ، إرضاء للأديب صادق راشد والعقاد نفسه ، إذا كان هذا يرضيهما .

في الشعر

الملاح التائه - لعل عمود طه

أعود الآن إلى هذا الحديث بعد أن صرفتني عنه الحياة وخطوبها أعواماً إن لم تبلغ العشرة فليست تنقص عنها إلا قليلاً . وأريد أن أمضي في هذا الحديث كما كنت أمضي فيه من قبل ، حرّاً طليقاً ، لا أقيد نفسي بزمان ، ولا بمكان ، ولا بلون من ألوان الأدب ، ولا بفن من فنون البحث ، إلا أن يكون هذا الشيء الذي ألزمته فيما مضى ، وأحب أن التزمه فيما يقبل من هذا الحديث ، وهو ألا أتجاوز به الأدب العربي إلى غيره من الآداب .

ولكن الأدب العربي واسع ، بعيد الأطراف مختلف الفنون متباين الأزمنة والأمكنة ، فلا على أن أتقل بهذا الحديث من عصر إلى عصر ، ومن بيئة إلى بيئة ، ومن فن إلى فن ، لا أتبع في ذلك إلا ظروف القراءة وأهواءها ، وظروف القراءة غير المنظمة ، ولا المضطربة ، ولست أكره ذلك ولا أشفق منه ، ولعل أن أجد فيه شيئاً من الخير لهذا الحديث ، فإن في الاختلاف والتنوع لذة غير مجهولة ، وقد يكون النظام والاضطراد والمحافظة الدقيقة ، على اختلاف الموضوعات وتشابه فنون الحديث ، ومن الأمور التي إن أعجبت في الكتب فهي ثقيلة مملولة في الصحف ، وحسب الصحف أنها تصدر في نظام واضطراد ، فلا أقل من أن يختلف ما تشتمل عليه ويتنوع ويلهى بعضه عن بعض ، ويريح بعضه من بعض .

وليس من اليسير على أن أستأنف هذا الحديث ، وأن أمضي فيه كما كنت أمضي فيه من قبل بعد أن طال العهد وبعد الأمد ، ودفعت إلى أعمال مختلفة أنستني مذهبه وأسلوبه إلى حد بعيد ، فقد احتاج إلى شيء من التجربة والمران لتستقيم لي طريقه على ما أحب ، أو على قريب مما أحب ، وعلى ما يرضى القارئ أو على ما لا يسخطه ويسلمه إلى السأم أو يضطره إلى النوم . وما أعرف أنني شعرت بالحاجة إلى أن أستأنف هذا الحديث كما أشعر بها الآن ، لا لأنني

فرغت لتحرير هذه الصحيفة وإصدارها في حياتنا والحمد لله على الخير والشر ما نستطيع أن نتحدث عنه في الصحف ، وأصدقائي وأصحابي والذين يتصلون بي ويختلفون إلى يعلمون أني شديد الميل إلى استئناف هذا الحديث منذ زمن بعيد ، ومنهم من كان يدفعني إلى ذلك دفعاً ، ومنهم من كان يردني عن ذلك رداً ، بل لأن حياتنا الأدبية في هذه الأعوام قد تعقدت بعض التعقد ، واختلطت أمورنا بعض الاختلاط ، وظهرت فيها فنون من الإنتاج لم تكن موجودة أو لم تكن ظاهرة الوجود قبل عشرة أعوام . وصرفت أنا عن هذه الحياة إلى أعمال التعليم والإدارة في الجامعة حيناً ، ثم إلى أمور السياسة والجدال في مشكلاتها حيناً آخر . حتى لقد كان يمر بي العام وأكثر من العام لا أقرأ شيئاً من أدبنا الحديث ، أو لا أكاد أقرأ منه شيئاً . إنما هو الانصراف المطلق إلى الأدب القديم حين كنت أدرسه في الجامعة ، والانصراف المطلق إلى السياسة حين أعمل في السياسة ، والإلمام بالآداب الأجنبية ألتبس فيها من حين إلى حين من الغذاء العقلي والفني ما لا بد منه للرجل المثقف الذي يريد أن يعيش عقله وقلبه من جهة ، وأن يلتقي الناس فيتحدث إليهم ويفهم عنهم من جهة أخرى حتى انقطعت الصلة أو كادت تنقطع بيني وبين حياتنا الأدبية المعاصرة . وكنت شديد الضيق بذلك ، كثير التبرم به والشكوى منه ، ولكن كتابنا وشعراءنا كانوا أشد مني بذلك ضيقاً وتبرماً وأكثر مني سخطاً على ذلك وإنكاراً له ، وكانوا يظلمونني ، فيسرفون في الظلم ، ويقضون على فيشتطون في القضاء . يزعمون أني أتعمد الإعراض عنهم والغض منهم وأكره إنصافهم والتحدث عن آثامهم ، وشهد الله ما أعرضت ، ولا هممت بالإعراض ولا غضضت من أحد ولا هممت بالغض منه ولا كرهت إنصاف آخر ، ولا رغبت عن أن أؤدي إليه حقه . إنما هي حياة ثقيلة كريمة فرضتها عليّ الظروف فرضاً واحتملتها لأنني لم أكن أستطيع شيئاً آخر . وكان كتابنا وشعراؤنا يتأولون هذا الصمت عن آثامهم ، فيسرفون في التأول ويتجاوزون الحق . ومنهم من كان يتجاوز الخلق الكريم في التفسير كأنما هم يظنون أن الحياة لعب ، نصرفيها كما نشاء وتدبرها كما نحب ، وإن الكتاب إذا انتهى إليك لم تكده تأخذه حتى تنظر فيه ولم تكده تبدؤه حتى تتمه ، ولم تكده تفرغ منه حتى تناله بالنقد أو التقرير ، ثم ترسل ذلك إلى صحيفة من الصحف ، فإذا هو منشور وإذا

صاحب الكتاب راض عنك ، أو ساخط عليك ، ولكنه ظافر بحقه منك على كل حال ، لأنك لم تهمله ، ولم تسلمه إلى الإغضاء ، أو الإهمال ، أو إلى التجاهل والنسيان .

ومثل هذا الظن إنما يخطر للذين فرغ بالهم وخلت حياتهم مما لا تخلو منه حياة بعض الناس . ولكن ماذا ؟ أراي دفعت إلى شيء من القول لم أكن أريد أن أدخل فيه وأكبر الظن أنها العدوى قد أصابتنى من صديقي المازني، فلأعد إلى نفسي ولأخذ فيما أردت أن أتحدث فيه .
ولأعلن مسرعاً إلى كتابنا وشعرائنا أني سأبذل ما أستطيع من الجهد ، لأفرغ لهم بعض الوقت منذ اليوم .

فأقرأ ما كتبوا وما يكتبون ، وأتحدث إليهم وإلى قرائهم وقرائي بما أرى في آثارهم وأنا أعلم حق العلم أن هؤلاء الكتاب والشعراء الذين كانوا يكرهون مني الصمت ، وينكرون على السكوت ، ويتهمونني بالإعراض والإغضاء ، ويسرف بعضهم فيتهمني بالحسد ، وبما هو شر من الحسد ، سيتمنون لو أني مضيت في الصمت وأغرقت في السكوت وسيقولون في أنفسهم وسيقول بعضهم لبعض ليتنا ما أثرناه ولا دعوانه ، إذن لا سترحنا منه ، كما كنا مستريحين ، ولأرحنا من أنفسنا ، كما كنا نريجه ولمضى كل منا لشأنه . . . ! ولكن ماذا يريدون وقد كرهوا الصمت ، فسأمنحهم الكلام ، فأما إن كرهوا الكلام فلن أمنحهم الصمت ، ولكن سأمضي إن شاء الله فيما قصدت إليه ولم على "العهد-وما عرفتنى مخلفاً للعهد قط- ألا أحلهم شططاً وألا أتعمد الإساءة إلى أحد منهم ، أو أتجاوز الإنصاف مهما تكن الظروف ، وأنا أعلم أن بين قوم منهم وبينى إحناً وصورفاً ، ولكن أقسم لأعرضن عن هذه الإحن والصورف ، ولأمتنعن عن أن أخلى بينها وبين ما يجب من الإنصاف والقسط ، حين يكتب الكاتب وينظم الشاعر ، ثم يأتي الناقد فيعرض لما نظم هذا أو كتب ذلك . ولكن ماذا ؟ ! يظهر أن سلطان المازني عظيم ، وأن التخلص من عدواه ليس بالشيء اليسير ؛ فقد بدأت هذا الحديث بعنوان ولم أصل بعد إلى هذا العنوان ، وإنما أنا أدور حول الموضوع - أستغفر الله - بل أنا أدور بعيداً عن الموضوع دون أن أدنو منه فضلاً عن أن أصل إليه . ولو أني جاريت نفسي ومضيت أملي ما يمر بها من الخواطر

لقلدت المازني تقليداً تاماً ، ولأتممت هذا الفصل قبل أن أبلغ الملاح التائه ، ولاضطرت أن أعد القارئ والشاعر بنقد هذا الديوان البديع في فصل آخر يذاع بعد أسبوع . ولكني لا أريد أن أقلد المازني ولا أريد أن أدور حول النقد ، فصلا كاملا دون أن أبلغه ؛ ولهذا خادعت نفسي عن نفسها ، وبدأت النقد على غير شعور منها ولا التفات . فهأنذا قد وصفت الملاح التائه بأنه ديوان بديع ، وإذا فقد سجلت على نفسي رأياً من الآراء وحكماً من الأحكام . ولا بد لي من أن أحتمل تبعه هذا الرأي وأبين أسباب هذا الحكم ، ومن أن أحتمل تلك التبعة وأبين هذه الأسباب في هذا الفصل نفسه ، لا أنتظر ولا أضطر القارئ إلى الانتظار . فإلى اللقاء يا صديقي المازني ؛ فقد أتأثر بأسلوبك ، وقد أدور كما تدور في الأسبوع المقبل ، إن شاء الله ، حول كتاب من النثر أو ديوان من الشعر . أما الآن فإني أهدي إليك التحية الصادقة ، وأودعك لألقى « الملاح التائه » .

وأنا مشوق جداً إلى لقاء الملاح التائه ، فلم أكن أعرفه قبل أمس ، ولست أدري ألقيته أم لم ألقه ، فما أكثر من ألقى من الناس ، ساعة من نهار أو ساعة من ليل ، ثم نفترق فكأنني لم أعرفه . لم أكن أعرف الملاح التائه لا من قرب ولا من بعد ؛ فقد كنت أسمع اسمه ، وكان يقال لي إنه مهندس ، يقرض الشعر ، وكنت أحب ذلك وأرضى عنه ؛ لأنني أحب أن يعنى العلماء بالأدب والفن ، وأن يفرغوا لهما من حين إلى حين ، ويستريحوا إليهما من عناء الحياة وجهد العلم . وكنت إذا سمعت الناس يُعجَبُونَ بهذا المهندس الشاعر ، وسمعتهم يعجبون بشاعر آخر طيب ألقاه من حين إلى حين ، أبتسم في نفسي وأحس شيئاً من الرضا ؛ لأنني أرى العلماء مقبلون على الأدب ، فيسبقون فيه الأدباء الخالصين إلى حد بعيد ، ويجمعون لأنفسهم تفوقاً في الأدب ، وتفوقاً فيما يعالجون من علم أو فن ، على حين لا يستطيع الأدباء أن ينهضوا بأدبهم إلا متعثرين . ولكنني على ذلك كله أعترف ، وباله من اعتراف مؤلم بأنني لم أقرأ لهذا المهندس الشاعر قبل أن يصل إليّ ديوانه قليلا ولا كثيراً . فكنت إذاً أجهله جهلا تاماً ، أجهل شخصه ، وما زلت أجهله إلى الآن ، وأجهل فنه ، ولكنني بدأت أعرفه منذ أمس ، وأنا سعيد بهذه المعرفة كل السعادة ، مغتبط بها أحسن الاغتباط ؛

لأنها أرضت نواحي من نفسى كانت فى حاجة إلى أن ترضى ، ولأنها أسخطت نواحي من نفسى كانت فى حاجة إلى أن تسخط . وأنا أريد أن أكون صريحاً ، فقد سبق العهد منى بذلك . فلو أنى قلت لمهندسنا الشاعر أو لشاعرنا المهندس إن معرفته أرضتني من كل وجه لكذبت عليه ، ولو أنى قلت له إن معرفته أسخطتني من كل وجه لكذبت عليه أيضاً . ولكنى عرفته فرضيت ، وسخطت ، وأنا سعيد بهذه المعرفة التى أتاحت لى هذا المزاج الذى أحبه من الرضا والسخط .

فأما أن معرفتى لشاعرنا المهندس قد أرضتني فلأن شخصيته الفنية محبة إلى حقاً ، فيها عناصر تعجبني كل الإعجاب وتكاد تفتنني وتستوييني ، فيها خفة الروح ، وعذوبة النفس ، وفيها هذه الخيرة العميقة ، الطويلة العريضة ، التى لاحد لها ، كأنها محيطة لم يوجد على الأرض . هذه الخيرة التى تصور الشاعر ملاحاً تائهاً حقاً ، التى تقذفه من شك إلى شك ، ومن وهم إلى وهم ، ومن خيال إلى خيال ، التى لا تستقر به على حقيقة حتى تزعجه عنها إزعاجاً وتدفعه عنها دفعاً ، وتقذف به إلى حقيقة أخرى لا يكاد يدنو منها ويتبينها بعض الشيء حتى يراها أشد هولاً وأعظم نكراً ، وإذا هو يهرب منها ويجد فى الهرب ، وإذا هو يلتمس جبلاً يعصمه من الماء فى هذا البحر الطاغى فلا يجده ، أو قل لأنه لا يكاد يجده ويستقر عليه مستريحاً بعض الشيء مما احتمال من عناء وتكلف من جهد ، حتى يبلغ الماء قمته ، ويوشك أن يغمره كله ، وإذا صاحبنا مفلت هارب يلتمس جبلاً آخر . ولولا أن له جناحين قويين يطير بهما فيبعد فى الطيران ، ويرتفع بهما في الارتفاع ، لغمره البحر واحتواه الماء ، ولانتهى إلى قرار من الظلمة والهلكة لم يصل إليه الشعراء بعد .

لقد صحبت الملاح التائه فى قصيدة سماها « الله والشاعر » فأحسست كل هذا الذى صورته لك آنفاً ، ورأيت رجلاً لا هو بالشاك المطمئن إلى الشك ، ولا هو بالمستيقن المطمئن إلى اليقين ، ولا هو بالمنكر المستريح إلى الإنكار ، وإنما هو رجل مضطرب حقاً ، مضطرب أشد الاضطراب ، يؤمن بالقضاء والقدر ، ثم يثور بالقضاء والقدر ، يرضى أحكام الله ثم يجادل فيها ، يشكو ثم يستسلم ، ويستسلم ثم يشكو . رجل حائر دائر هائم لا يستطيع أن يستقر . وأكبر ظنى أنه لو استقر لكان أشقى الناس ؛ فهو سعيد بحيرته ، مغتبط بهيامه

مبتهج بهذا التيه الذى دفعته إليه نفس طموح جداً لأنها نفس شاعر ، عاجزة جداً لأنها نفس لإنسان .

لست أنسى أنى ذهبت فى بعض أيام الصيف مع جماعة من الأصدقاء نستريح فى مدينة « فونتنبلو » وكان بين هؤلاء الأصدقاء رجل أحب شئء إليه أن يخرج للترهه ، فيمضى فى غير طريق ويسعى على غير هدى ، وكان إذا خرجنا معه إلى الغابة لم نلبث أن نسمع منه هذه الجملة : « هلم نضل فى الغابة ساعات » . وكان سعيداً كل السعادة حين يضل . ولكن غابة فونتنبلو على سعتها واختلاطها محدودة لا بلبث الضال فيها أن يهتدى . أما الغابة التى يألفها شاعرنا المهندس فليست محدودة لأنها ليست فى الأرض ولا فى السماء ، وإنما هى فى الكون ، وأهى الكون الذى هو أكبر من الأرض والسماء . فإذا ضل فيها شاعرنا فليس إلى أن يهتدى من سبيل . والواقع أن لم يهتد ، وأنه إن مضى على حاله هذه فلن يهتدى أبداً . وأكبر الظن أنه يحسن الإحسان كله إذا وضع فى هذه الصحراء التى يهيم فيها ، أو فى هذه الغابة التى يضل فيها ، أعلاماً يهتدى بها فى الظلمات . وأكبر الظن أنه يجد هذه الأعلام لو تعمق فى قراءة الفلسفة وفى قراءة طائفة من الفلاسفة بنوع خاص . وليس عيباً على الشاعر أن يقرأ ولا أن يكثر القراءة ، وإنما يعيب الشاعر ألا يقرأ أو ألا يقرأ إلا قليلاً .

ولعل شاعرنا المهندس إذا قرأ وأكثر القراءة حمى شعره من بعض ما قد يعاب به . فشاعرنا يلتقى فى بعض الطريق مع جماعة من الشعراء والفلاسفة . وأكبر الظن أنه يلقاهم مصادفة ، ولعله أن يكون قد قرأ لبعضهم شيئاً . ولكن المحقق أنه لا يسعى إليهم ، ولا يعتدى عليهم . فلو أنه قرأ وأكثر القراءة ونظمها ، وقيد ما يستخلصه منها ، لظهر فى شعره ما يدل على أنه قد سعى أو لم يسع إلى هذا الفيلسوف أو ذاك . ولما استطاع أحد أن يظن به السعى أو الاعتداء .

ومن الكتاب من يقول إن شاعرنا تأثر بأبى العلاء ثم يضيق بهذا التأثر . ولست أدرى أن تأثر شاعرنا بأبى العلاء حقاً أم تأثر بيرون أم تأثر بهما جميعاً وبقوم آخرين غيرهما أم لم يتأثر بأحد ، وإنما لى من لى من الشعراء والفلاسفة مصادفة وعلى غير قصد ولا عمد . وأحس أنا فى قصيدة أخرى سماها « غرفة الشاعر » روحاً « لموسيه » ، ولكنى لا أدرى أهو روح الذى قرأ فتأثر أم هو

روح الذى أحس فتألم ، فشكا ، فلقى موسييه فى هذا كله أو فى بعضه .
ولست أتردد فى الرضا عن هذه القصيدة والحب لها والإعجاب بها . ولست
أكره أن تشاركنى فى هذا الرضا وأن تشاطرنى هذا الحب والإعجاب ، فاقراً
معى هذه القصيدة وقف معى عند بعض أبياتها وقفات قصاراً :

| | |
|---------------------------|------------------------------|
| ل وما زلت غارقاً فى شجونك | أيها الشاعر الكئيب مضى الـ |
| ر وللسهد ذابلات جفونك | مسلماً رأسك الحزين إلى الفكـ |
| فى ارتعاش تمر فوق جبينك | ويد تمسك البراع وأخرى |
| سك يطغى على ضعيف أنينك | وفم ناضب به حر أنفا |

* * *

| | |
|---------------------------|-------------------------------|
| ل ولا يزدهيك فى الإبراق | لست تصغى لقاصف الرعد فى اللـ |
| ت ودب السكون فى الأعماق | قد تمشى خلال غرفتك الصمـ |
| حب يهفو عليك من إشفاق | غير هذا السراج فى ضوءه الشا |
| بل تبكى الحياة فى الأرقام | وبقايا النيران فى الموقد الدا |

* * *

| | |
|---------------------------|-----------------------------|
| وحطمت من رقيق كيانك | أنت أذبلت بالأسى قلبك الغضـ |
| ل وما زلت سادراً فى مكانك | آه يا شاعرى لقد نصل اللـ |
| سى لتلك الدموع فى أجفانك | ليس يمنو الدجى عليك ولا يا |
| جى وهلاً فرغت من أحزانك | ما وراء السهاد فى ليلك الدا |

* * *

| | |
|----------------------------|-----------------------------|
| فى الكرى غطة الخلى الطروب | فقم الآن من مكانك واغنم |
| لك نهار الأسى وليل الخطوب | والنفس فى الفراش دفناً ينسـ |
| لمتَ فيها من الضنى والشحوب | لست تُجزى من الحياة بما حمـ |
| ف وليست للشاعر الموهوب | إنها للمجون والختل والزـ |

هذه الصور المتتابعة المختلفة حسان كلها ، ولكنها بعيدة إلى حد ما عن المؤلف
من حياة شعرائنا الشرقيين ، إلا أن يكونوا مترفين قد ألفوا حياة الغرب وكلفوا بالسهاد
فى غرفة يضطرب فيها نور ضئيل شاحب ، وتفنى فيها بقايا الجذوة فى الموقد ؛ وكل
هذا يألفه الغربيون ، وهو يذكر بموسييه تذكيراً قوياً . وبعض الناس يعيب شاعرنا

« بتغريب » الشعر . أما أنا فأحمد له هذا النوع وأراه تشریفاً للشعر العربي ورياضة للذوق الشرقى واللغة العربية على أن يسيغا ما لم يتعودوا أن يسيغاه من قبل . وإذا كان لى أن آخذ الشاعر بشيء فهو ما قدمته من أن الأمر يختلط في شعره على القارئ فلا يدري ألقى زملاءه الغربيين والشرقيين مصادفة أم عن عمد وسعى .

وواضح جداً أنى لا أريد ولا أستطيع أن أقول لشاعرنا كل ما يعجبني أو كل ما يغضبني من شعره ؛ فذلك أطول مما تسعه هذه الصحيفة ، ولكنى قلت له بعض ما يعجبني ، وقليل مما يسوعنى . وأريد أن أضيف إلى ما يعجبني في شعره ، أنه حلو الأسلوب جزل اللفظ ، جيد اختيار الكلام ، وأن لألفاظه ومعانيه رونقاً أخاذاً تألفه النفس وتكلف به وتستزيد منه ، وأن في شعره موسيقى ، قلما نظفر بها في شعر كثير من شعرائنا المحدثين ، وأنه قد استطاع أن يلائم ، إلى حد بعيد ، لا بين جمال اللفظ وجمال المعنى فحسب ، بل بين التجديد والاحتفاظ باللغة في جمالها وروائها وبهجتها وجزالتها . كل ذلك ظاهر في أكثر ديوانه لا أكاد أستثنى منه إلا هذه القصائد التى قيلت في المناسبات العامة ولم يُوحها الشعور الطبيعى لنفس الشاعر . فشاعرنا ترجمان الطبيعة ، وترجمان الإنسان إذا اتصل بالطبيعة وضل في فيافها أو فتن بجمالها ، ولكنه ليس شاعر الجماعات ولا ترجمانها ، شاعرنا مغن ، شخصيته أقوى من بيئته ، وليس قصاصاً بيئته أقوى من شخصيته . وأظنه يسمح لى الآن أن أغاضبه بعض الشيء وأن أغاضبه في غير رفق ولا لين ؛ فهو حريص على الموسيقى ، وهذا واجب عليه وأداؤه مشكور له ، ولكنه يحرص على الموسيقى فى الوزن أكثر مما يحرص عليها فى القافية ، وأظنه يسىء فى القافية كثيراً . وليس يعنى أن يجد له عذراً عند أصحاب القوافى ، أو لا يجد ، ولكن الذى يعنى أن القوافى يجب أن تلائم السمع ، وما أظن أن هاتين القافيتين تأتلفان لمكان الواو الساكنة من إحداهما ، والباء الساكنة من الأخرى وانظر إلى هذين البيتين :

روحك فى روى تبث الحياه نزلت دنيائى على نورها
فإن جفاها ذات يوم سناه لاذت بليل الموت فى قبرها

وأخرى ألوم عليها الشاعر لوماً غير رفيق ، وهى تقصيره فى ذات النحو أحياناً وفى ذات اللغة أحياناً أخرى . ولن يعدم الشاعر من يعتذر له بمذهب من مذاهب

النحو أو بشاهد من الشواهد الشاذة ، ولكنى أكره للشعراء المحيدين أن يحتاجوا إلى مثل هذا الاعتذار . وانظر إلى قوله :

إن كنت في شكواى بالمذنب فنك يا رب أخذت الأمان
فالباء في خبر « كان » التى لم يسبقها نفي غريبة نابية ثقيلة على الأذن . ولأسأل
الشاعر بين قوسين : متى وكيف وأين أخذ الأمان من ربه ؟

وانظر إلى قوله : • يعرق حد السيف من لحمه •

فالذى أعرفه أن العظم هو الذى يعرق إذا ما أخذ ما عليه من اللحم ؛ فأما اللحم
فإنما يشق أو يقطع أو يمزق ، أو ما شئت من هذه الأفعال التى تلامك . ومثل
هذا التقصير فى موسيقى القافية وفى النحو واللغة كثير ، لا أحب أن أقف عنده
فأطيل الوقوف ؛ لأنى لا أريد أن أكون شريراً ، وإنما أكتفى بلفت الشاعر إليه
ليصلحه فى الطبعة الثانية ، وليتقى مثله فيما يستأنف من الشعر .

وأحب بعد هذا كله أن أخاصم الشاعر فى بعض مذهبه فى الشعر ، فهو
يغلو فى الخيال أحياناً حتى يجاوز المألوف ، ويتورط تورطاً فاحشاً فيما عاب
النقاد به أبا تمام .

فهو يجسم ما لا سبيل إلى تجسيمه ؛ وليس بذلك بأس إذا لم يسرف فيه الشعراء
وإنما ألما به إلاماً . أما شاعرنا فيغلو فيه غلواً فاحشاً . وما رأيت فىمن جسم الليل
حتى جعل له أوصالاً وعروقاً وأجرى فى هذه العروق دماً . وليت شعرى كيف
يكون دم الليل : أجامد هو أم سائل ، أناصع هو أم قائم ، أخفيف هو أم ثقيل !
وليت شعرى كيف تكون حال الليل إن سفك سافك دمه : أيموت أم يتجدد له
الدم فتتجدد له الحياة . وليت شعرى كيف تكون أوصال الليل . ومن المحقق أن
هذه الأوصال والعروق تستتبع لحماً وعظماً وجلداً وما يتصل بهذا كله . أليس
يوافقنى الشاعر على أن هذا كثير ، وعلى أن هذه القطعة التى جسم فيها الليل قد
شوّهت هذه القصيدة الجميلة التى سماها « ميلاد شاعر »؟ بلى ! وأحسبه سيلغنها
فى الطبعة الثانية . وأنا أحب أن يمضى فيما أتقن من الوصف والتصوير ، ولكن كما
تعوّد أن يصف ويصور ، وفى رشاقة وخفة لا فى ثقاقل وإلحاح .

وأريد بعد هذه الملاحظات السريعة أن أثنى على الشاعر أجمل الثناء ، وأن

أقول له رأي في صراحة لا سبيل فيها للغموض والالتواء . فهو شاعر مجيد حقاً . ولكنه ما زال مبتدئاً ، وهو شاعر مجيد حقاً ولكنه في حاجة إلى العناية باللغة وأصولها وتعرف أسرارها ودقائقها ، فلا ينبغي للشعراء الذين يستحقون هذا الاسم أن يكون علمهم باللغة يسيراً محدوداً . وأنا واثق بأن شاعرنا إن عني بلغته ونحوه وقافيته وتونحي ما ألف من خفة التصوير ورشاقته ودقته ، فسيكون له شأن في تاريخ الشعر العربي الحديث .

في الشعر

وراء النمام - للدكتور إبراهيم ناجي

كان موضوع الحديث يوم الأربعاء الماضي مهندساً ، وموضوع الحديث اليوم طبيب . فما زلنا إذاً بين العلماء الذين لم يصرفهم العلم عن الأدب - أستغفر الله - بل الذين أغراهم العلم بالأدب فأقبلوا عليه وزاحموا فيه أصحابه الذين أنفقوا فيه حياتهم ، ووقفوا عليه جهودهم . زاحمهم مزاحمة الموفق المنتصر الذي لم يظفر من النجاح بحظ قليل .

ويظهر أنا لن نفرغ من العلماء الذين أحبوا الأدب وكلفوا بالشعر إذا فرغنا من الحديث عن ديوان شاعرنا الطبيب ؛ فغيره وغير صاحبه المهندس من غدى عقله بالعلم ، وقلبه بالشعر وقدّم إلى الناس من نتائج علمه ما ينفعهم ، ومن نتائج شعره ما يرضيهم من الغناء . وكم أتمنى أن أرى بين الأدباء من لا يزهدهم الأدب في العلم أو من يغريهم الأدب بالعلم ؛ فإني أستطيع أن أتصور عالماً يستغنى بالعلم ولا يحفل بأن يشارك في الأدب أو يكون بين المنتجين من الكتاب والشعراء ، ولكني لا أستطيع أن أتصور أديباً يستغنى عن العلم ويستقل بالشعر أو النثر استقلالاً تاماً - كما يقول أصحاب السياسة - دون أن يحتاج إلى معونة العلم ، ومعونته الدقيقة التي تدفعه إليها الضرورة الملجئة كلما هم أن يكتب أو ينظم الشعر . بل أنا أزعج أن هؤلاء الأدباء الذين يغترهم الأدب ويزدهيمهم ويغنيهم بنفسه عن العلم ، يدفعون إلى الإنتاج الرديء دفعاً ؛ لأنهم يجهلون العلم فيجهلون الحياة التي يجب أن تكون موضوعاً لأدبهم منظوماً كان أو مثوراً . ولكن لندع الاستطراد ولنعد إلى شاعرنا الطبيب لنهدى إليه أبجل التحية وأحسن الثناء ، ولنعرف له هذا البلاء الحسن الذي أبلاه في خدمة آلهة الشعر في وقت قل فيه الخدام المخلصون لهؤلاء الآلهة ، كما كان يقول اليونان ، أو لهؤلاء الشياطين ، كما كان يقول العرب . على أننا إن أثبتنا على شاعرنا الطبيب لحسن بلائه وصدق نيته في العناية بآلهة الشعر أو شياطينه ، ووقفنا عند ذلك ، نظلّمه أشنع الظلم ، ونجور عليه أقبح الجور . فليس الدكتور إبراهيم

ناجى رجلا حسن البلاء صادق النية في حب الشعر فحسب ، وإنما هو فوق هذا كله موفق إلى حد بعيد فيما حاول من إرضاء الشعر وأصحابه ، موفق فيما قصد إليه من المعاني ، موفق فيما اصطنع من الألفاظ وموفق فيما اتخذ من الأساليب . معانيه جيدة تصل أحيانا إلى الروعة ، وإن كانت تنهى إلى الابتذال . وألفاظه جيدة قد يعظم حظها من المتانة والرصانة ، وقد تكره أذن السامع على الالتفات والإعجاب والشعور بهذه اللذة الموسيقية التي يشعر بها الناس أحيانا بأذانهم ، وإن لم تصل إلى عقولهم . وأساليبه جيدة أيضاً عظيمة الحظ من الصفاء ، لا يفسدها العوج ولا يفسدها الالتواء في كثير من الأحيان ، وإن كنا سنقف مع الشاعر وقفات عند ألفاظ لا تخلو من خطأ ، وأساليب لا تبرأ من عوج ، ومعانٍ لعلها تبعد عن الصواب . ولكن الذي يطالب الشاعر بالإجادة المطلقة في الألفاظ والمعاني والأساليب يكلفه شيئاً عسيراً لا يتاح إلا لجماعة معدودين من الشعراء ، الذين ميزهم النبوغ وسما بهم إلى حيث لا يكاد يرق إليهم النقد إلا في مشقة وجهد وعسر شديد .

ونحن نكذب شاعرنا الطبيب إن زعمنا له أنه نابغة ، بل نحن نكذبه إن زعمنا له أنه عظيم الحظ من الامتياز ، وإنما هو شاعر مجيد تألفه النفس ، ويصبو إليه القلب ، ويأنس إليه قارئه أحيانا ، ويطرب له سامعه دائماً . فإذا نظرنا إليه نظرة الناقد الخلل الذي يريد أن يقسم الشعر أنصافاً وأثلاثاً وأرباعاً ، كما يقول الفرنسيون ، لم يكذب ثبوت لنا أو يصبر على نقدنا ، وإنما يدركه الإعياء قبل أن يدركنا ، ويفر عنه الجمال الفني قبل أن يفرّ عنا الصبر على الدرس والنقد والتحليل .

هو من هؤلاء الشعراء الذين يحسن أن يُقرءوا في رفق ، لأنهم قد فطروا على رقة لا تحتمل العنف وشدة الضغط . هو من هؤلاء الشعراء الذين يحسن أن نستمتع بما في شعرهم من الجمال الفني ، كما نستمتع بجمال الوردة الرقيقة النظرة ، دون أن نشط عليها بالتقليب والتعذيب . هو شاعر هين ، لين ، رقيق ، حلو الصوت عذب النفس ، خفيف الروح ، قوى الجناح ، ولكن إلى حد . لا يستطيع أن يتجاوز الرياض المألوفة ، ولا أن يرتفع في الجو ارتفاعاً بعيد المدى ، وإنما قصاره أن ينتقل في هذه الرياض التي تنبت في المدينة أو من حولها ، والتي لا تكاد تبعد عنها كثيراً . وهو إذا ألمّ بمحديقة من الحدائق أو جنة من الجنات لا يجب أن يقع على أشجارها الضخمة الشامخة في السماء ، وإنما يجب أن يقع على أشجارها المعتدلة

الهيئة ، ويتخير من هذه الأشجار أغصانها الرطبة اللدنة التي تثير في النفس حناناً إليها ، لا إكباراً لها ولا إشفاقاً منها . هو شاعر حب رقيق ، ولكنه ليس مسرفاً في العمق ، ولا مسرفاً في السعة ، ولا مسرفاً في الحب الذي يحرق القلوب تحريقاً ومزق النفوس تمزيقاً . شعره أشبه بما يسميه الفرنجة موسيقى الغرفة منه بهذه الموسيقى الكبرى التي تذهب بك كل مذهب ، وتهم بك فيما تعرف وما لا تعرف من الأجواء .

شعره كهذه الموسيقى التي يفسدها الفضاء الطلق وتضيق في الميادين الواسعة ، وتوجد كل الجودة وتحسن كل الحسن حين تغلق الأبواب ، وترخي الأستار ، ويخلو النجى إلى النجى ، ويفرغ الصنى للصنى ، ويتمتع الحبيب بقرب الحبيب . وهذا فيما أظن هو أعظم ما بينه وبين شاعرنا المهندس من الفروق ؛ فالأستاذ على محمود طه مهياً لأن يكون جباراً إن عني بفضه وفرغ له وجدّ في طلب الإجابة والإتقان . أما الدكتور إبراهيم ناجي فهياً لأن يكون هذا الشاعر الوديع الذي لا يتعبنا ويعيننا ، ولا يكلفنا فوق ما نطبق من المشقة والجهد ، وإنما يريحنا إن تعبنا ويرفه عنا إن شقينا ، ويثير في نفوسنا هذه الأغاني الهادئة الودعة التي تهيننا لأحلام جميلة عذاب . صوته يرنّ في آذاننا ونفوسنا زنباً حلواً على حين يدوى صوت صاحبه في آذاننا ونفوسنا دويّاً يخرجنا عن أطوارنا .

ثم في شعر الدكتور ناجي بعد ذلك هتات أحب أن يلتفت إليها ، ويعنى بإصلاحها عناية شديدة متصلة . فلست أعرف شعراً أشد حجة إلى أن يبرأ من العيب من هذا الشعر الوداع الذي يمتاز بالرقة والرفق ، والذي يتحدث إلى النفوس الحزونة ، والقلوب المكلومة ، والضمائر التي تريد أن تستريح .

وأول هذه العيوب شيء من التكلف والحرص الظاهر على إقامة الوزن ، أو على إقرار القافية ، أو على مجازاة جماعة من الشعراء والمفكرين . وسأعرض بعد قليل للتكلف الذي يتصل بالوزن أو الذي يتصل بالقافية ، ولكني أريد قبل ذلك أن أقف وقفة قصيرة جداً عند هذا التكلف الذي يتصل بمجازاة الشعراء والمفكرين ، والذي يجعلنا نحس في بعض القصائد أن الشاعر لم ينظمها إلا ليقال إنه نظمها في هذا الموضوع أو ذلك ، أو يجعلنا نحس أن الشاعر قد نظمها وهو غريب عن موضوعها أو غريب عن هذا النحو من النظم ، لم يهيا له وما ينبغي أن يشق به أو يدفع نفسه إليه . وانظر إلى هذه القصيدة التي سماها الشاعر « قلب راقصة »

فقد تُعجب كثيراً من الناس وتروقه ، ولعلها تُعجب الشاعر نفسه وتروقه ، ولكنى أؤكد للشاعر والذين يُعجبون بهذه القصيدة من شعره أنها على ما قد يكون فيها من جمال اللفظ وحسن الانسجام أحياناً ليست شيئاً ، فليس فيها جديد ما ، وإنما هي كلام مألوف قد شبع الناس منه حتى كاد يدركهم الملل . كان جديداً في أواسط القرن التاسع عشر حين أخذ بعض الكتاب والشعراء يحسن شيئاً من الإشفاق على الراقصات ، وعلى بنات اللهو ، وحين جعل « ألكسندر دوماس » العطف على هؤلاء النساء والرتاء لخالهن بدعا من البدع وفتناً من فلسفة الأدباء ، ثم كثر هذا الكلام وشاع وملاً الأفواه والأسماع حتى زهد الناس فيه وانصرفوا عنه . وفي القصيدة وصف للحانة لا جديد فيه ولا طريف . ولعل الشاعر يحس ذلك ، وهو على كل حال يضطرننا إلى أن نحسه في بعض شعره . فانظر إليه كيف يتندى القصيدة :

| | |
|--------------------------|--------------------------|
| أمسيت أشكو الضيق والأينا | مستغرقاً في الفكر والسأم |
| فضيت لا أدري إلى أين | ومشيت حيث تجرني قدمي |
| فرايت فيما أبصرت عيني | ملهي أعيد ليهبج الناسا |
| يجلون فيه قرائح الحسن | ويبيع فيه اللهو أجناسا |
| بغرائب الألوان مزدهر | وتراه بالأضواء مغمورا |
| فقصدته عجلا ولي بصر | شبه الفراشة يعشق النورا |

أترى في هذا الكلام معنى جديداً؟ بل أترى في هذا الكلام معنى مألوفاً صور للناس في هذه الصورة الطريفة الرائعة التي ينتظرها الناس من الشعراء حين يتحدثون إليهم بالمعاني المألوفة؟ كلا! إنما أحس الشاعر ضيقاً وسأماً ، فخرج يمشى ليسرى عن نفسه الحم . فأبصر مكاناً مضيئاً من أمكنة اللهو فدعاها الضوء ، فدخل إلى هذا الملهى .

هذه هي المعاني التي اشتملت عليها هذه الأبيات الستة ، لا جديد فيها كما ترى ولا غرابة ، ولا جديد في الألفاظ والصور التي أدى بها هذه المعاني ، بل دفع فيها الشاعر إلى شيء من التكلف أو من الخطأ أو إلى شيء لا أدري ما هو ، ولكنه لا يحسن من الشعراء . فانظر إليه وقد أمسى يشكو الضيق والأين وهو مستغرق في الفكر والسأم . فأما الضيق والسأم فقد نفهمهما من الشاعر ، وقد نفهم أن يشكو التعب ولا سيما إذا كان طبيياً قد أنفق ساعات طويلاً يلقى المرضى ويفحصهم ، ويصف لهم الدواء ، ويسمع منهم ما لا يجب الشعراء أن يسمعوه . ولكن الذي

لا يستقيم للشاعر المجيد هو الاستغراق في الفكر والسأم معاً . فالفكر لا يسأم ،
والسأم لا يفكر ؛ لأن التفكير يشغل صاحبه حتى عن الضيق ، والتعب ، والسأم .
ولأن السأم لا يمكن صاحبه من التفكير ، ولا يخلى بينه وبينه . وعلى كل حال
فقد أمسى الشاعر ضيقاً متبسبباً مغرقاً في السأم والتفكير ، فخرج لا يدري إلى أين ،
ومضى حيث تجره قدمه . فانظر إلى هذه الصورة التي لا تلام شعراً ولا تلام لغة .
فالقدم لا تجر صاحبها ، وإنما تحمله ، وتحمله متثاقلة مكدودة إن لم يتح لها
النشاط ، وإنما يجر صاحب القدم قدمه إذا خرج فاتراً مكدوداً لا يقوى على
المشي . ولكن الشاعر أراد قافية تلام السأم ، فجعل قدمه تجره ، على حين كان
ينبغي أن يجرها هو . فإذا لاحظت أن « السأم » نفسها قلقة في موضعها لا يستقيم
مع التفكير ، ولا سيما بعد أن ذكر الضيق والأين ، عرفت إلى أين ينتهى تكلف
النظم بالشعراء المجيدين أحياناً !
ثم انظر إلى قوله :

فرايت فيما أبصرت عيـني ملهى أعمد ليهيج الناسا
فالشطر الثاني كله لا معنى له ، ولا امتياز فيه . و « فيما أبصرت عيني »
غريبة لأنها تشعر أن هذا الملهى كان شيئاً ضئيلاً ضائعاً بين ما رأى من الأشياء .
وأكبر الظن أن هذه الأنوار المتألقة التي تعلن عن الملهى خليقة ألا تجعله ضئيلاً
يستخفى بين الأشياء التي ترى ، بل عظيمًا يصرف عما حوله من الأشياء . ولكنه
أراد أن يقيم الوزن ، فأكره على هذه الجملة إكراهاً . وأراد أن يقيم الوزن والقافية
فأكره على قوله : « أعمد ليهيج الناسا » . فالملهى لا يُغدّ لشيء آخر ، ولكن « الناس »
كلمة تلام « الأجناس » ، وتعقد معها شيئاً من النظام ، فاحتال الشاعر لهذه
الكلمة حتى جعلها قافية ! !

وانظر إلى كلمة « الحسن » في البيت الذي يأتي بعد هذا وإلى ما بينها وبين
« عيني » من هذه الملازمة الغريبة التي يتورط فيها شعراؤنا المعاصرون كثيراً . ثم
انظر إلى قوله :

◦ بغرائب الألوان مزدهر ◦

فسرى أنه رفع « مزدهر » هذه ، وكان الخير في نصبها لأن الملهى منصوب ،
فكان يحسن أن تقع منه موقع النعت ، ولكنه قطع الكلام واستأنفه لا لشيء إلا
ليلائم بين « مزدهر » هذه وبين قوله في البيت الذي يليه : « ولي بصر » .

أترى إلى كل هذه الألوان من التكلف كيف دفع الشاعر إليها في غير حاجة لولا أنه يريد أن يقول الشعر فيما لا يستقيم له أن يقول الشعر فيه .

وامض في قراءة القصيدة ، فستنتقل من كلام مألوف إلى كلام مألوف ، وستمر بضعف لتتجاوزه إلى ضعف آخر ، حتى تصل إلى هذين البيتين الغريبيين حقاً :

يا للقلوب الملتقى اثنين لا يعلمان لأبما سبب
جمعهما الدنيا غريبين فتألفا في حلوة عجب

فالملاءمة بين « اثنين » و « غريبين » ثقيلة في نغمتهما . ولكن ما رأيك في الشاعر الذي يلتقي صاحبه ويلج في لقاءها ، حتى إذا ظفر به أراد أن تضرب له موعداً وألح في ذلك حتى فعلت ، ثم التقيا بعد انتظار وخوف يشبه اليأس ، ثم هو بعد ذلك لا يدري لم يلقاها كما أنها لا تدري لم تلقاه ؟ .

هذا كبير ، لا مصدر له إلا أن الشاعر تكلف ما لا يحسن ، ودفع نفسه إلى موطن لم يتعود الاضطراب فيه .

وانظر بعد ذلك إلى هذين البيتين :

عجباً لقلب كان مطعمه طرباً فجاء الأمر بالعكس
وأشد ما في الكون أجمعه بين القلوب أواصر البؤس

فقوله « جاء الأمر بالعكس » كلمة خرجت من الأزهر الشريف ، ولست أدري كيف اهتدت إلى شاعرنا الطيب . وهي على كل حال من أشد الكلام نبواً في الشعر ومنافاة للجمال الفني . ولكن انظر إلى قوله « وأشد ما في الكون أجمعه » فكيف تقرأ « أجمعه » أتضم العين أم تكسرهما ، فأنت إن ضمنت أرضيت القافية وأغضبت النحو . وأنت إن كسرت أغضبت سيويوه وأرضيت الخليل !

ومثل هذا الخطأ ومثل هذا التكاف كثير جداً في الديوان ، وكان الشاعر يستطيع أن يتقيه وأن يبرأ منه لو أنه لم يخرج نفسه عن طورها ، ولم يعرض لما لا ينبغي له أن يعالجه من الموضوعات ، ولو أنه غنى باللغة والنحو . وهذه النواحي التي يهملها المحدثون حين يكتبون أو ينظمون ، يحسبون أنهم يجددون ، وأن التجديد يبيح لهم أن يعذبوا اللغة وأن يمسخواها ، ويجهلون أو يتجاهلون أن أجمل المعاني وأروعها

يفسد أقيح الفساد إذا لم يؤدّ في لفظ مستقيم جميل . وما أشدّ ما كنت أحب للشاعر أن يعرض عن هذه الفكرة الغريبة التي لا تستقيم للعقل ، وهي أن الحنان قد يعظم حتى يتجسم ويصبح شخصاً . في هذا المعنى الغريب نظم الشاعر قصيدة لا أريد أن أعرض لها لأنني أرى هذا المعنى نفسه يفسدها إفساداً . فالحنان يعظم حتى يلاّ القلب ويغمر النفس ، ويؤثر في حياة الإنسان ، فأما أنه يتجسم فيصبح شخصاً ، فهذا كلام قد يفهمه الشعراء ، ولكن فهمه عسير على النقاد .

وهناك أبيات يهمل الشاعر فيها المعاني إهمالاً قبيحاً يضطره إلى التناقض في اللفظ ، ويلقى في أنفسنا أن الشاعر لا يحفل بمعاني الكلمات . فانظر إلى قوله : « تخطر والأنظار تحدو الركاب » . فكيف تخطر على حين أنها راكبة ! ولنلاحظ أن كل شيء بعد هذا صريح في أنها كانت ماشية ، إنما أراد الشاعر أن يقول إنها تخطر والأنظار تتبعها ، فجاء بكلمة « الركاب » هذه ليقيم بها الوزن والقافية ، حتى إذا بلغ مأربه منها نسياناً تاماً ومشي مع صاحبه المشية . وهو في قصيدة أخرى يقول « ورسا رحلى على أرض الوطن » . والرحل لا يرسو ، وإنما يحط ، وقد حطه الشاعر نفسه في مكان آخر ، إنما ترسو السفن . وأظن أن الملاح التائه ، يعرف ذلك ، وإن كانت سفينته لم ترس بعد .

وانظر إلى قوله :

مرت الساعة والليل دنا والهوى الصامت يغدو ويروح

فنحن في الليل ، أو نحن في المساء غير بعيد من الليل ، ولكن الهوى الصامت يغدو ويروح ، والغدو لا يكون إلا في الغداة ، لا في الليل ولا قريباً من أول الليل ، وإنما أراد الشاعر : يذهب ويحییء ، فظن أن الغدو والرواح يؤديان معنى الذهاب والحییء . وكان يستطيع أن يقول ، يمضى ويحییء . ولكنه محتاج إلى « يروح » لمكان القافية في البيت الذي يأتي بعد ذلك ، وهو قوله :

وتلاشت واختفت أجسادنا واعتقنا في الدجى روحاً بروح

ولنلاحظ أن كلمة « تلاشت » ، هذه ليست من كلمات الشعر ، وأنها على كل حال أقوى من « اختفت » ، فكان ينبغي أن تأتي بعدها ، لا قبلها ، وأن للشاعر وحبيبه جسدين اثنين ، لا أجساداً ، ولكن البيت يجب أن يقام على كل حال . . !

أما بعد ، فقد كنت أحب أن أعرف للشاعر إجادة رائعة في وصف القبر ، كهذه الإجادة الرائعة التي وفق لها صاحبه المهندس . ولكن الدكتور إبراهيم ناجي ، كما قلت ، شاعر هادئ ، قوى الجناح إلى حد بعيد ، ولكنه لا يروع .

أما بعد مرة أخرى ، فإني آسف أشد الأسف لهذا الإلحاح ، ولكنني مضطر إليه ، فشاعرنا في حاجة إلى أن يُعنى بلغته . ولو أني ذهبت أحصى ما لاحظته من الضعف أو الخطأ ، لتجاوزت الحد الذي يطيقه هذا الحديث . وأنا بعد هذا كله أتمنى للشاعر توفيقاً ونجاحاً في ديوانه الذي سيهديه إلينا بعد هذا الديوان أكثر مما ظفر به في هذا الديوان الأول . وأحب في آخر هذا الحديث أن أسأل عن شيئين : أولهما عنوان الديوان لم أفهمه إلى الآن ! وأخشى أن يكون العنوان متكلفاً ، كما أن كثيراً من المعاني والألفاظ ومن الأوزان والقوافي متكلف أيضاً .

أما الشيء الثاني الذي أسأل عنه فإني أسوقه إلى صديقنا الصاوي الذي قدّم الديوان إلى القراء ؛ فإن في مقدمته جملة قد اختلط أمر النحو فيها اختلاطاً غريباً . ولعل لصديقنا الأديب مذهباً جديداً في تغلب المؤنث على المذكر إذا اجتمعا ، فالذوق الحديث يقتضي هذا فيما يقال ، ولكن صديقنا لم يراع هذا أيضاً ، وإنما ترك الأمر فوضي بين المذكر والمؤنث في هذه الجملة التي أروها لك :

« وكأني بإلهة الحب ”الزهرة“ وإله الشعر ”أبولو“ سارا جنباً إلى جنب يقطعان الأفلاك والأجيال باحثين عن رجل يعيش بالحب والشعر ويعيش لهما ومن أجلهما ، فهو دائماً المحب الشاعر حتى تجلي لهما من وراء الغمام ، وعندئذ تنازعتنا عليه .

فإلهة الحب تدعيه لنفسها خالصاً وإله الشعر ينسبه إلى ملكوته خالصاً ، وكيف لي أن أنسب ناجي إلى هذه دون تلك » .

أرأيت إلى أن صديقنا الصاوي قد جرى مع طبعه أول الأمر ومع طبيعة اللغة فغلب المذكر على المؤنث ، ثم لم يلبث أن غلبه الذوق الأوربي الحديث فغلب المؤنث على المذكر ، ثم لم يكفه هذا فجعل أبولومؤنثاً وأشار إليه بتلك . . ! أليس من حق اللغة على الشاعر ، ومقدم ديوانه أن يعتدرا إليها من بعض ما تورط فيه من التقصير ! وهل يأذن لي صديقي الصاوي في أن أذكره بأن « أبولو » لم يكن يجب الزهرة ، وإنما كان يجب غيرها من أخواته الإلهات القديمات !

أخلاق الأدباء

أما اليوم فأريد أن أدع الأدب شعره ونثره ، لأتحدث قليلا عن الأدباء ، وعن أخلاقهم خاصة . وواضح أنى لن أعرض ، وما ينبغي لى فى هذا الفصل أن أعرض لهذه الأخلاق الخاصة التى تقوم عليها حياة الأدباء إذا خلوا إلى أنفسهم أو اتصلوا بأصحاب مودتهم وحبهم ؛ فهذا شىء قد أعرض له حين يحتاج نقد بعض الآثار الأدبية إلى ذلك . إنما أريد أن أعرض لأخلاق الأدباء من حيث هم أدباء ، أو لأخلاقهم الأدبية إن صح هذا التعبير ، أو لهذه الأخلاق التى تقوم عليها الصلة بينهم وبين قرائهم من ناحية ، وبينهم وبين نقادهم من ناحية أخرى ، وبينهم وبين أنصارهم ومنافسيهم من ناحية ثالثة . فقد يظهر أن هذا اللون من ألوان الأخلاق الأدبية عندنا ، لا يخلو من طرفة تحتاج إلى أن تسجل ، وإلى أن تفهم ، وإلى أن يحفظها التاريخ الأدبى للذين سيدرسون حياتنا الأدبية بعد أعوام .

وأخص ما نلاحظه فى أخلاق الأدباء هذه طائفة من الخصال لا تسر ولا ترضى . وما نظن الذين سيكتبون عن حياتنا الأدبية سيعرضون لها إلا مع شىء من الابتسام الذى يصور الإشفاق والرحمة ، وشىء غير قليل من الازدراء . فأدباؤنا المحدثون ضعاف ، ولا أريد ضعفهم فى الأدب ، ولا ضعفهم فى اللغة ، ولا ضعفهم فى الشعور ، ولا قصورهم عن التصوير ، إنما أريد ضعفهم عن احتمال النقد ، وعجزهم عن الثبات للنقاد . لا تكاد تمس أحدهم مساً رقيقاً حتى تأخذه رعدة كهربائية تضطرب لها أعصابه كلها ، ويفسد لها مزاجه فساداً قبيحاً ، ثم تظهر آثار هذا الفساد وذلك الاضطراب فيما يصدر عنه من الأحاديث حين يتحدث إلى أصدقائه فى ناد من الأندية ، وفيما يصدر عنه من الفصول التى يكتبها ويذيعها فى الناس ، وفيما يصدر عنه من هذا الوحي الخبيث الذى يلقى فى روع جماعة من المنتصرين له والمحيطين به ، يدفعهم إلى أن يذيعوا ما استطاعوا الإذاعة ، ويكتبوا ما أطاقوا الكتابة ، ويقولوا ما وسعهم القول . كل هذا لأن ناقداً من النقاد قد مسهم مساً رقيقاً ، فأخذهم بقصور فى الشعور أو قصور فى التعبير والتصوير ، كأنهم قد أخذوا على أنفسهم وعلى الحياة وعلى النقاد عهداً بأنهم أكبر من الخطأ وأرق من الزلل وأعلى من النقد ،

وأرفع من أن يرقى إليهم ناقد مهما يكن . ومن يضع نفسه هذا الموضع ويرى في نفسه هذا الرأي خليق ألا يتصل بالحياة العامة من قريب أو من بعيد ؛ فهذا العهد لا يمكن أن يؤخذ على الحياة ، ولا على الناس ولا على النقاد . ومهما يكن الكاتب والشاعر مجيداً متقناً أو نابغة فذاً ، فهو إنسان ، وهو معرض للنقص ، وهو بعيد عن الكمال . وهبه قد بلغ الكمال أو دانا ، فالناس لن يؤمنوا له بذلك ، لا لأنهم أشرار يحسدونه أو ينفسون عليه ، بل لأن الطبائع مختلفة ، واختلاف الطبائع يستتبع من أجل هذا كله اختلاف الأحكام على الناس وما يصدر عنهم من الآثار والأعمال . فن السخف أن يزعم الأديب لنفسه أنه خليق أن يظفر برضا الناس جميعاً ، أو بحمدهم وثنائهم جميعاً ، أو يبرأ من سخط الساخطين ونقد الناقدين وأوم اللائمين . وأظن أن من أوليات الحياة العامة ، إن صح هذا التعبير ، أن يوطن الرجل نفسه فيها على أن يكون حظه من سخط الناس أعظم جداً من حظه من رضا الناس ، وعلى أن يكون قسطه من النقد أعظم جداً من قسطه من التقريظ . ولكن انظر إلى أدبائنا حين يعرض لهم ناقد بما لا يحبون ، وأكثرهم لا يجب إلا الثناء ، انظر إليهم كيف يستقبلون هذا النقد ضيقين به نائرين بصاحبه ، ثم كيف تفسد له حياتهم فساداً ، وتضطرب له أمورهم اضطراباً ، فإذا هم يشغلون عن الإنتاج ، وعن تقويم المعوج من آثارهم بالدفاع عن أنفسهم ، كأنهم هوجوا مهاجمة تعرضهم للخطر الذي ليس بعده خطر والموت الذي ليس بعده نشور . ومع ذلك فالأمر أيسر جداً مما يظنون ، وإنما آثار الكاتب والشاعر ملك للجمهور إذا أقيمت إليه ، يرى فيها ما يجب من رأى ، يرضى عنها إن أثارت في نفسه الرضا ، ويسخط عليها إن أثارت في نفسه السخط ، يحبها فيقبل عليها ، ويبغضها فينصرف عنها . ما ينبغي لأحد أن يجادله في ذلك أو ينكره عليه . والكاتب حري أن يكبر الجمهور أو لا يكبره ، وفي أن يرضى عن إقبال الجمهور عليه أو يزدري هذا الإقبال ، وفي أن يضيق بانصراف الجمهور عنه أو لا يحفل بهذا الانصراف . ولكن الشيء الذي لا ينبغي أن يطمع فيه الكاتب أو أن تسمو إليه نفسه ، لأن الطمع فيه لثم ، والسمو إليه اعتداء على الحرية المقدسة ، هو لإكراه الناس على أن يقبلوا عليك ويرضوا عنك ، وعقاب الناس إن هم سخطوا عليك أو انصرفوا عما تقدم إليهم من الآثار . والغريب أن الكتاب والشعراء لا يهدون كتبهم ودواوينهم إلى الناس إهداء ، وإنما هم يبيعون هذه الكتب بيعاً ، ثم هم بعد ذلك يأبون إلا أن يدفع الناس لهم

الثن نقدًا وحدها ، ولا يتحرجون من أن يأخذوا الثمن مرتين : ثمنًا يدفعه المشتري عن رضا وهو المال ، وثمنًا آخر يجب أن يدفعه عن كره وهو الحمد والثناء . وأغرب من هذا أن الكتاب والشعراء يهدون كتبهم ودواوينهم إلى النقاد أو لا يهدونها إليهم ، ثم يضيقون بالنقاد أشد الضيق إن سكتوا عنهم ، ويسخطون على النقاد أفصح السخط إن قالوا في كتبهم ودواوينهم ما لا يحبون . وهنا يتعقد خلق الأدباء بعض الشيء ، فلا يصبح ضعفاً فحسب ، وإنما يصبح ضعفاً واعتداءً معاً ، هو ضعف لأنهم لا يستطيعون أن يصبروا على الحق أو على ما يراه غيرهم حقاً . وهو اعتداء وطغيان لأنهم يزعمون لأنفسهم على النقاد سلطاناً لم يمنحوه ولا يمكن أن يمنحوه فالناقد كالكاظم والشاعر حر فيما يقول ، لا ينبغي لأحد أن ينتقص من حرية ، أو يفرض عليه ما لا يريد .

وخلُقتُ آخر من أخلاق الأدباء في هذه الأيام لا ندرى كيف نسميه ، ولكن أخص ما يمكن أن يوصف به أن أصحابه يحتاجون إلى شيء من الحياء ، فهم يهدون إليك الكتاب حتى إذا استيقنوا أن الهدية قد وصلت إليك واستقرت في يدك لم يرمحوا ولم يستريحوا حتى تعلن لإيهم - أستغفر الله - بل إلى الناس رأيك في هذا الكتاب ، فإن لم تفعل نالوك بما استطاعوا من القدح والذم ، وأخذوك بما في وسعهم من اللوم والتشهير . وإن أعلنت رأيك فلم يعجبهم ، أو لم يوافق أهواءهم ، فويل لك منهم وويل لهم من أنفسهم . وويل لك منهم لأنهم ساخطون عليك مجرؤنك بنار سخطهم تحريقاً . وويل لهم من أنفسهم لأنهم مشغولون بك وبالليل منك والنعي عليك عن أنفسهم ، وعن أديهم . وهم كذلك لا يهدون إليك الكتاب وإنما يبيعونه منك بيعاً . وهم لا يبيعونك الكتاب بثمانه الذي يباع به للناس ، وإنما يبيعونك الكتاب بثمان مستحيل ، يبيعونه بجريتك وبإخلاصك ، وبأخلاقك . يهدون إليك الكتاب ، فيحسبون أنهم قد اشتروا رأيك ، وخلقتك ، وصراحتك وفرضوا عليك أن تصبح لهم مادحاً ، وعليهم مثنياً . ألسنت ترى أن هذا الخلق خطر على الحياة الأدبية حقاً ؟ وأين يكون الحياء إذا لم يكن عند الأدباء ! وأين يكون الظرف إذا لم يكن عند الكتاب والشعراء ! وأين يكون اعتدال المزاج واستقامة الخلق الاجتماعي وهذه الدقة في المعاملة التي ترفع صاحبها عن أن يكون مشعوذاً أو عن أن يكون سئولاً ملحقاً ، أو عن أن يكون طالب صدقة ، أو عن أن يكون صاحب

عدوان وجور ، أين يكون هذا كله إذا لم يكن عند الأدباء !
أكتب هذا كله وقد وصلت إلى الأنباء بأن جماعات أدبائنا المحدثين نائرة
فائرة ، وهائجة مائجة ، وقاعدة قائمة ، في هذه الأسابيع منذ أخذ بعضهم ينقد
بعضاً ، ومنذ أخذت آراء بعض في الشعر والنثر تبدو لبعض . ولعلك تقرأ هذا
الفصل الطريف الذي أرسله إلى صديقنا حسن محمود فتري فيه كيف يفسد
ما بين الأصدقاء ، وكيف يستحيل الحب إلى بغض ، والود إلى عدا ، والإخلاص
إلى كيد ، لا لشيء إلا أن فلاناً أظهر كتاباً أو ديواناً ، فلم يحسن فيه رأى
فلان ، أو ظهر فيه رأى فلان ، ولكنه لم يكن مرضياً للكاتب أو الشاعر لأنه
لم يكن ثناء كله ولا رضاء كله . أخلاق أدباء هذه أم أخلاق صبيان يحتاجون
إلى التربية والتنشئة ! إني أكره لأدبائنا أن يطنى الغرور على نفوسهم فيفقدوا
ما يقوم النفس الكريمة من اعتدال المزاج وصفاء الطبع ، واستقامة الخلق ، والتواضع
الذي لا سبيل إلى الكمال من دونه .

وأكثر من هذا كله أن يعظم التنافس بينهم ، وأن ينكر بعضهم بعضاً ،
ويزدري بعضهم بعضاً ، ويبلغ بهم هذا أن تنقد اثنين منهم في فصل واحد ،
فإذا أحدهما ساخط عليك ضيق بك ، يقطع ما بينك وبينه من صلة ، لا لأنك
ظلمته ، ولا لأنك أسأت إليه في كتابه ، ولا لأنك استكشفت عن عيوبه ما لم
يكن يعلم ، بل لأنك قرنته إلى صاحبه ، وما ينبغي أن يكون له قرين ، وذكرته
مع غيره وما ينبغي أن يكون له شريك ، وإنما حقه عليك إذا كتبت عنه أن
تفرده بالكتابة وتختصه بالنقد وأن ترقى إليه في سمائه التي يسكنها أو نجمه الذي
يستقر فيه ، حتى إذا قدمت إليه القربان وحرقت بين يديه البخور ، هويت
من السماء أو هبطت من النجم ونظرت بعد ذلك إلى غيره من الكتاب . هذه
أخلاق لا ينبغي أن تكون للشبان فضلاً عن أن تكون للشبان الأدباء الذين يرون
أنهم نابهون وأنهم قادة الرأي وزعماء الأدب غداً أو بعد غد . أمر الأدب أهون
من هذا كله أيها السادة إن كنتم أدباء حقاً . فأنتم إنما تنتجون لأنكم مكرهون على
الإذاعة ، وآثاركم حينما تنتجونها وتذيعونها تخرج عن ملككم إلى ملك غيركم من
القراء والنقاد ، ليس لكم عليها سبيل ، ولقراءكم ونقادكم عليها كل سبيل . إن
كنتم متواضعين فقوموا ما يظهر لكم من عوج ، وأصلحوا ما يظهر لكم من فساد .
فإن كنتم مغرورين فاستمتعوا بغروركم وانظروا إلى أنفسكم في المرآة ثم امتلثوا

بها عجباً وتبها ، ولكن لا تعدوا هذا ولا تتجاوزوه إلى أخذ الناس بما تحبون أنتم ولا يحبون هم ؛ فذلك ليس لكم ، ولن يقركم أحد على أن تتطلبوه وتطمعوا فيه . ويسألني صديقنا حسن محمود عن علاج هذه العلة ، ودواء هذا الداء . وغريب أن يلتقى الصديق مثل هذا السؤال ، وغريب أن يحتاج مثل هذا السؤال إلى جواب . فليس لهذه العلة علاج إلا مقاومتها ، وهي لا تقاوم إلا بالمضى في النقد الحر الصريح الذى لا أثر فيه للميل ولا الهوى بمقدار ما يستطيع الإنسان أن يبرأ من الميل والهوى ، والذى لا أثر فيه للخوف ولا الإشفاق ؛ فليس رجلا من يكتم رأيه تخوف أو إشفاق . فكيف إذا كان مصدر هذا الخوف والإشفاق أدبياً لا يستطيع أن يبسط فيك لسانه أو أن يبسط عليك يده ، إن كان من « الفتوات » . هذا سخف لا ينبغي لصاحب الجلد من الأدب والنقد أن يقف عنده أو يفكر فيه إلا بمقدار ما يقوم معوجه ويصلح فاسده ويحاول أن يبرئ منه أدباءنا . فقد أحب أن يكون برؤهم من هذه العلة ممكناً يسيراً .

الضاحك الباكي

للأستاذ فكري أباطة

منذ أكثر من عام تفضل الأستاذ فكري أباطة فزارني في الكوكب وأهدى لي كتابه « الضاحك الباكي » ، فتلقيت زيارته شاكراً ، وتلقفت هديته شاكراً أيضاً ، ووعدت متطوعاً بقراءة الكتاب ، وإعلان الرأي فيه ؛ لأن الأستاذ لم يطلب لي قراءة ولا إعلاناً ، وإنما كان أديباً يجامل أديباً ، وصديقاً يعرف الحق لصديق .

ثم أخذت أقرأ في الكتاب منذ اليوم الأول الذي أهدى لي فيه ، ولكني لم أمض في هذه القراءة حتى صرفتني عنها هذه الصوارف الكثيرة الملحة البغيضة ، التي تصرف الناس في كل يوم عما يحبون وتدفعهم إلى غير ما يريدون . وما أكثر هذه الكتب التي تُهدى لي أو التي أشتريها ، ثم آخذ في قراءتها ، فلا أكاد أتقدم في هذه القراءة حتى أردت عنها رداً وأصد عنها صدّاً ، وأصرف عنها إلى شيء من هذا السخف اليومي الكثير الذي يملأ حياة أممنا من الناس .

ومضى عام ولم أقرأ كتاب الأستاذ ، ولكني سمعت أحداث الناس عنه ، فكان منهم المعجب الراضى ، وكان منهم المعرض المغضى . ويجب أن أعرف بأن الذين أعرضوا وأغضوا كانوا بين أصحابي أكثر من الذين رضوا وأعجبوا . ولم يكونوا يعللون إعراضهم ولا إغضائهم ، وإنما كانوا يمسون الكتاب بجملة أو جملتين ، يعلنون فيها أنهم كانوا ينتظرون من الأستاذ كتاباً خيراً من هذا الكتاب . وكنت أجد من إعراضهم وإغضائهم عزاء لي عن هذا الكتاب الذي لم أقرأه ، بل كنت أحمد الله على أني لم أقرأه لأنني أمنت بذلك أن أكتب عنه ، فأقول للأستاذ ما لا أحب أن أقوله له . على أننا التقينا والتقينا غير مرة ، فأشهد ما لقيت الأستاذ ولا سمعت صوته إلا استحييت منه ، وأحسست أن له على ديناً ثقيلاً ، وأنني قد أبطأت في أداء هذا الدين ، وأوشك أن ألتوى به على صاحبه . وما أبغض المدين حين يلتوى بالدين !

ثم تتاح لي الفرصة لأتحدث عن الأدب المصري الحديث فأذكر الشعراء وأعرض لبعض الكتاب . وأشهد ما ذكرت شاعراً ، ولا عرضت لكاتب إلا كان الأستاذ فكري أباطة بينه وبينى يسألني . بصوته العذب وطبعته الطريفة : « والضاحك الباكي ماذا تصنع به ؟ وماذا ترى فيه ! » .

فاليوم أريد أن أتحدث إلى الأستاذ وإلى غيره من القراء بما صنعت بالضاحك الباكي ، وبما أرى فيه .

قرأته قبل كل شيء ، وقرأته كله هذه المرة ، واستعدت بعض صفحاته ، ووقفت عند بعضها الآخر وقات غير قصار ، وأطلت التفكير في بعض فصوله ، حين خلوت إلى نفسي وأويت إلى مضجعي في غير ليلة من ليالي هذا الصيف الثقيل . ثم حمدت للأستاذ فضله على ، ويده عندي ، لا لأنه أهدى إلى كتاباً ، فالكتب تهدي من الأديب إلى الأديب ، وإن كنت أراني مقصراً تقصيراً شنيعاً في هذا النحو من أدب المجاملة ، ولا لأنه سعى إلى بكتابه ، فالأديب يسعى إلى الأديب ، والصديق يسعى إلى الصديق ، وإن كنت مقصراً في هذا النحو أيضاً من أنحاء أدب المجاملة . بل لأنه أتاح لي شيئاً طالما تمنيته ولم أظفر به ، وهو أن أسمع للأستاذ فكري أباطة ، وأتحدث إليه وقتاً طويلاً . فأنا من قرائه الأوفياء الذين لا يكاد يخطئهم فصل من فصوله في الأهرام أو في المصور أو في غير الأهرام والمصور . وأنا من الذين يحبونه حباً عميقاً ويكلفون بما يكتب كلفاً شديداً ، يسر النفس لحظة من لحظات الحياة ، وإن كان لا ينتهي بها إلى هذا الإعجاب الذي يملك عليها كل شيء ويشغلها عن كل شيء . وأنا كلما قرأت فصلاً من فصول الأستاذ فكري أباطة ، وددت لو طال بينه وبينى الحديث ، واتصلت بينه وبينى الأسباب ، فعرفته أكثر مما أعرفه وألفته أكثر مما آلفه إلى الآن . فقد عرفته الآن وألفته ، وبلغت من عشرته ما كنت أريد بعد أن قرأت كتابه الممتع الجميل . وليس هذا بالشيء القليل ، بل هو شيء كثير ، وكثير جداً ، إن كان هذا التعبير ما يزال يضحك القراء .

ويجب أن أعترف أيضاً بأن رأيي في الكتاب كان يختلف اختلافاً شديداً كلما تقدمت في قراءته . فأما أوله فلم يفتنني ، ولم يثر في نفسي إعجاباً ولا شيئاً يقرب من الإعجاب ، بل كنت أحدث نفسي بأن هؤلاء الأصدقاء الذين أعرضوا عن الكتاب في العام الماضي كانوا منصفين . ولكنني تقدمت في الكتاب ،

فإذا أنا مأخوذ حقاً مفتون حقاً ، يذهب في الإعجاب كل مذهب ، ويمضى في الإكبار إلى غير حد ، وإذا أنا أنكر الظلم والظالمين ، وإذا أنا أزعج نفسي أن أولئك الأصدقاء المعرضين لم يقرءوا الكتاب ، ولو قد قرءوه لأعجبوا به ، وإذا فما كان ينبغي لهم أن يقضوا عليه وهم لم يقرءوه . وكنت أزعج نفسي أحياناً أن حياة المصريين قد تطورت حقاً ، وأن شعورهم الوطني قد أخذ شيئاً من الفتور ، وأن شعورهم بالحياة اليومية وما فيها من المنافع العاجلة الملحة ، قد ملك عليهم ذوقهم وحكمهم . ولولا هذا لفستأوا بكتاب الأستاذ أشد فتنة ، ولكان له في نفوسهم أبلغ الأثر وأعظمه . وكنت أتحدث إلى بعضهم فألومه وأسرف في لومه وأزعج له أتى لا أعرف كتاباً عربياً صور ما بين المصريين والإنجليز من سوء الصلة وبعد الشقة وفساد الأمر كهذا الكتاب ، فكان يستمع لي ويقرئ علي ما أقول ، ولكنه يتسم ويقول : ولكن أتم قراءة الكتاب ثم حدثني بعد ذلك عن رأيك فيه . وما زلت أنتقل في الكتاب من قصة إلى قصة ومن حديث إلى حديث حتى أتممت منذ ساعة أو منذ أقل من ساعة ، وإذا أنا ما زلت راضياً عن الكتاب ولكن إلى حد ، وما زلت معجباً بالكتاب ولكن في اعتدال واقتصاد ، ذلك أن الكتاب مختلف حقاً ، متفاوت أشد التفاوت . فيه ما يروع حتى يملأ النفوس روعة وإعجاباً ، وفيه ما يبعث في النفس فتوراً يكاد ينتهي بها إلى النوم . ثم فيه ما يثير في النفس شكوكاً وأوهاماً ، ويبعثها على أن تسأل هذا السؤال : ماذا أراد الأستاذ بهذا الكلام ؟ وأول ما يعجبك من الكتاب حقاً هو هذه الصفحة الرائعة البارة الذي وصف الأستاذ فيها حوادث الثورة في أسبوط . فلست أعرف ، كما قلت ، كاتباً مصرياً صور ما بين المصريين والإنجليز من الشر كما صوره الأستاذ فكري أباطة . ولست أظن أن قارئاً مصرياً مهما يكن ، يستطيع أن يقرأ هذه الصفحات دون أن يثور قلبه ونفسه ودون أن يغلي دمه غلياناً ودون أن يحتاج إلى جهد عنيف ليكظم غيظه أن ينفجر ، وليمسك نفسه أن يندفع إلى ما لا يحسن الاندفاع إليه . ثم تعجبك في الكتاب ملاحظات دقيقة منتشرة تمس حياتنا الاجتماعية الخاصة في الأندية والدور . ثم يعجبك في الكتاب هذا الأسلوب الظريف الذي انفرد به الأستاذ فكري أباطة والذي وفق فيه للملائمة البريئة بين حلاوة الفكاهة ومرارة الجلد ، وبين اللغة الفصحى ولغة الشعب ، واستطاع به أن يظفر بما لم يظفر به غيره من الكتاب ، فظفر برضا الخاصة والعامة جميعاً ، وظفر بحب القراء على اختلاف ما لهم من الأهواء والتزعات

والميل . فإذا أحصيت هذه الخصال التي تعجب في الكتاب فقد يكون من الحق أن نحصى خصالاً أخرى لا ينبغي أن نمر بها معرضين . وما أشد ما كنا نحب أن نلقاها ولا نحصياها ولا نأخذ بها كاتبنا الأديب . وأول ما نلاحظ من ذلك هو هذا الاختلاف الذي أشرنا إليه . فلولا أن الكتاب يدور كله حول شخص واحد هو الأستاذ شكري لما استطعنا أن نجد فيه مظهراً من مظاهر الوحدة أو دليلاً من أدلة الانسجام . فالكتاب يوشك أن يمس كل شيء ويعرض لكل شيء . فهو يمس القلب والشعور ، وهو يمس الحياة العملية اليومية ، وهو يمس الثورة وهو يمس الحياة السياسية بعد الثورة ، وهو يمس الحياة الاجتماعية العامة والخاصة . وفي الكتاب قصص ، وفي الكتاب تاريخ ، وفي الكتاب فلسفة ، وفي الكتاب نقد ، وفي الكتاب ما شئت وما لم تشأ مما يعرض له كتاب الصحف عرضاً سريعاً مسرفاً في السرعة لا تثبت فيه ولا تدقيق . وكل هذا قد أتى في الكتاب إلقاء ، وجمع فيه جمعاً لا ينظمه إلا الزمن ، وشخص الكاتب . فأما هذا النظام الفني الذي يصل بين أجزاء الكتاب والذي يجمع السبب إلى الأثر والعللة إلى المعلول ، كما يقول أصحاب المنطق ، فلا تكاد تظفر به في الكتاب . والواقع أني لا أدري ماذا أراد الأستاذ فكري أباطة حين وضع كتابه هذا : أراد أن يصور لنا شطراً من حياته في هذا النوع الذي يسميه الناس بالمدكرات ؟ وإذا فما هذا القصص الغرامي الكثير الذي اشتدت فيه المبالغة وعظم حظه من الإسراف وامتلاً بهذه المآسى التي لا تكاد تقف عند حد ! أم أراد أن يكتب قصصاً خيالياً من هذا النوع الذي يسميه الناس رواية ؟ وإذا فما هذا التاريخ الكثير الذي ينثره الأستاذ بكلتا يديه ويفعم الكتاب به إفعاماً وأكثره أو كله معروف للناس جميعاً ! أم أراد أن يكون قاصصاً فانقلب مؤرخاً ثم انقلب ناقداً خلقياً لا شيء إلا ليضخم حجم الكتاب ؟

كل هذه أسئلة تثور في نفس القارئ إذا فرغ من قراءة الكتاب ؛ فهو يشعر بالقاص الذي يلائم بين القصص والتاريخ ملائمة مقبولة حين يقرأ حديث الأستاذ عن صاحبتيه ثروت ومريم ، بل هو يشعر بالقاص الذي يلائم ملائمة مقبولة بين القصص والفلسفة حين يرى الأستاذ شكري في هذا المأزق الحرج مضطرباً بين الوفاء لمن ماتت ، والافتتان بهذه الفتاة ذات الشباب الغض والوجه الحلو ، والقلب النبيل . ولكن القارئ يضع حين يرى شكري مضطرباً بين هؤلاء الأوانس اللاتي خطبن ، وحين يراه مضطرباً بين هؤلاء السيدات اللاتي كن يختلفن إليه

لا يصور الرجل المعتدل ولا يعطى للناس مثلاً صالحاً يمكن احتناؤه وتأثره . ومع أنى معجب بالأستاذ محب له ، فأنا أتمنى ألا يكون الشباب كلهم أو أكثرهم مثله ؛ فذلك لا ينفع مصر ؛ لأن الشذوذ قد يستحسن في بعض الأفراد ويقبل منهم ، فإذا عم أصبح خطراً مستطيراً .

أنكرت عليه الإطالة في حديث « الجارسونير » ومن كان يختلف إليها من النساء ؛ فقد أكون محافظاً مسرفاً في المحافظة ، ولكننى على كل حال لا أرى هذه الإطالة نفعاً ولا أجد فيها شيئاً جديداً ، وإنما هو حديث معاد ، كثيراً ما يتحدث به الناس في الأندية ، وما أكثر ما يكتبونه في الصحف والمجلات !

ثم ينتهى الأستاذ فكرى أباطة من كتابه إلى نتيجتين : فهو ينصح الشباب أن يتزوجوا قبل أن يبلغوا الخامسة والعشرين . وهو ينصح للشباب ألا يشتغلوا بالسياسة قبل أن يبلغوا الخامسة والثلاثين . وكلتا النصيحتين في حاجة إلى البحث ، بل كلتا النصيحتين لا ينبغي أن تقدم إلى الشباب . فكيف يستطيع الشاب أن يتزوج قبل أن يبلغ الخامسة والعشرين ، وأنت تعرف من ظروف الحياة المصرية الحديثة ما تعرف ، والخامسة والعشرون هى السن التى يفرغ فيها الشاب من درسه ، أو يكاد يفرغ منه ؟ أفترى إلى الشاب طالباً ، وزوجاً وأباً ، في وقت واحد ؟ أم ترى إلى الشاب زوجاً وأباً ، وهو قد خرج من المدرسة ، وظفر بالإجازة ، وأخذ ينتظر العمل الذى يمكنه من كسب العيش !

وشرٌّ من هذا أن تنصح للشباب ألا يشتغل بالسياسة قبل الخامسة والثلاثين . كيف استحال الأستاذ فكرى أباطة رجعيّاً إلى هذا الحد ؟ إن الخامسة والثلاثين سن يصل فيها كثير من الناس إلى أرقى ما يستطيعون أن يبلغوه من حياتهم ، وهى السن التى يكاد ينتهى عندها نشاط الشباب ، وتبدأ معها رزانة الشيوخ . أفيريد الأستاذ فكرى أباطة أن يحرم مصر نشاط الشباب المصريين ، وأن يجعلها كلها رزانة وأناة وتقديراً للعواقب وإشفاقاً من الحوادث وحساباً للغد ؟ هذا كثير ، كنت أظن أنه مقصور على الذين وضعوا نظام الجمعية التشريعية قبل الحرب ، وعلى صدق باشا وأمثاله في هذه الأيام . وما زلت أشك في أنه رأى يراه الأستاذ فكرى أباطة وهو المتطرف الذى لا يجب السياسة رزانة ولا أناة ولا هدوماً .

واللغة ، أيجوز لى أن ألقت الأستاذ إلى أنه يسرف عليها أحياناً ؟ أنا أعلم حق العلم أنه يعتمد ذلك تعمداً في كثير من الأحيان ؛ لأن أسلوبه يريد ذلك ،

ولأن فكاهته تقتضيه . ولكن في كتابه أغلظاً ما أحسب أنه قصد إليها ، وما أظن أن الفكاهة قد اقتضتها ، وإنما هو هذا الخطأ الشائع الذي يحسن بالأدباء أن يتجنبوه .

ومن هذه الأغلظ أيضاً لفظ « العواطف » نسبة إلى العواطف صفحة ١٨ واجمع لا ينسب إليه على هذا النحو وإن كان الشبان لا يحفلون بذلك في هذه الأيام . ومن هذه الأغلظ قوله « وخلع ملابسه حيث كانت الساعة العاشرة » صفحة ١٤ « فحيث » ظرف من ظروف المكان و « الساعة » زمان . ولست أدري كيف يمكن أن يحتوي المكان الزمان ، أو أن يحتوي الزمان المكان . وهذا خطأ شائع قد كثر التنبيه إليه ، ولكن الكتاب لا ينتبهون .

أما بعد فلاني أجدد للأستاذ شكري وعذري وإعجابي ونقدي ، وأرجو أن يكون كتابه المقبل خيراً من كتابه هذا، لا يثير في النفوس إلا ما ينبغي لصاحبه من الإعجاب الخالص .

عود إلى أخلاق الأدباء

لنبتسم ، ففي أخلاق أدبائنا ما يدعو إلى الابتسام ، ولنغتبط ، ففي أخلاقهم ما يدعو إلى الاغتباط ، ولنرض على كل حال ؛ فالنظر في أخلاقهم على علائها يملأ القلوب رضاً واطمئناناً . فهم ليسوا جميعاً مسرفين في الاعتداد بأنفسهم ، وهم ليسوا جميعاً مسرفين في الارتفاع على النقد والتعالى على النقاد . وهم ليسوا جميعاً ضيق الصدر ، ولا سيئ الخلق ، ولا طوال الألسنة يبسطونها في الناس بالشر حين ينبغي أن يبسطوها بالشكر والحمد والثناء . نعم ! لنبتسم ، ولنغتبط ، ولنرض ؛ ففي أخلاق أدبائنا عوج ، ولكن في أخلاقهم استقامة ، وفي حياة أدبائنا شر ، ولكن في حياتهم خيراً كثيراً . وأكبر الظن أن الذين يثيرون الحزن في النفوس ويدفعون إلى الرحمة والثناء ، وقد يدفعون أحياناً إلى السخط والضيق ، ليسوا إلا قلة ، لا ينبغي أن يحفل بها ، ولا أن يفكر فيها عندما يراد تأريخ الأدب وتصوير حياة الأدباء في هذا العصر الذي فسد فيه كل شيء إلا أخلاق جماعة من الأدباء والمتقنين أراد حسن الحظ أن تستعصى على الفساد .

قوم مسهم النقد الرفيق ، فناروا ، وحاولوا أن يثيروا غيرهم من الناس . وفسدت أعصابهم واضطرب مزاجهم ، فحاولوا أن يفسدوا الأعصاب كلها ، ويشيعوا الاضطراب في الأمزجة كلها ، ولكنهم لم يبلغوا مما كانوا يريدون شيئاً ، ولم يظفروا مما كانوا يحاولون إلا بكلام قليل ضئيل لا يقدم ولا يؤخر .

وأكبر الظن أن تبعة ما يضطرب فيه هؤلاء الناس من ضعف الأعصاب واضطراب الأمزجة وسوء الخلق ، إنما تقع على الأدباء الذين يسمونهم شيوخاً ، وإن كان الأمد بينهم وبين الشيوخة ما يزال بعيداً . وهذه التبعة تقع على هؤلاء الأدباء لأنهم أعرضوا عن النقد وأهملوه أعماماً غير قصار، فنشأ جيل من الكتاب والشعراء ينشئون وينظمون ويذيعون ما ينشئون وما ينظمون، فتنتشر الصحف، ويقرؤه الناس أو لا يقرءونه ولا يعرض النقاد له بخير ولا بشر. ومضت على ذلك الأيام، وطال على ذلك العهد، حتى خيل إلى هؤلاء الكتاب والشعراء أنهم كتاب وشعراء حقاً، وأن النقد إن

كان لم يصبهم ، ولم يمسه مساً رقيقاً أو عنيفاً ، فذلك لأنهم فوق النقد ، أو لأن النقد لم يجد إليهم سبيلاً ، أو لأنهم بلغوا من الإجادة والإتقان ما ينبغي أن يجعلهم بآمن من أن تصل إليهم أقلام الناقدين . وكذلك سيطر عليهم الغرور فلا قلوبهم وعقولهم ، وصرفهم عن العناية بالفن والحرص على الإجادة والرغبة في الإتقان ، وخيل إليهم أنهم قد بلغوا الكمال أو تجاوزوا إلى ما هو فوق الكمال . هناك آمنوا بأنفسهم ، واستيقن كل واحد منهم أنه نابغة ، وأنه آية بين أتريابه ، وأنه مظلوم في هذا العصر الذي يعيش فيه ، ويُعجَبُ الناس به ولكنهم لا يوفونه حقه من الإعجاب ، ويؤمن الناس له ولكنهم لا يوفونه نصيبه من الإيمان . ثم أخذوا يبحثون عما يحول بينهم وبين ما يرون أنهم أهل له من الإكبار والإعجاب ، فلم يتهموا أنفسهم بضعف ، ولم يظنوا بأنفسهم قصوراً أو تقصيراً ، لأنهم فوق الضعف وفوق القصور والتقصير عند أنفسهم على أقل تقدير . ولم يشكوا في أن الناس يقرءونهم . وكيف يستطيع الناس ألا يقرءونهم وهم ينزلون عليهم الآيات إذا أصبحوا وإذا أمسوا . ولم يشكوا في أن الناس يرضون عنهم ، وهل وصل الناس من الجحود والغفلة إلى حيث لا يرضون عن هذا البيان المعجز ، والسحر الذي ليس إلى تقليده من سبيل ! إنما العقبات التي تحول بينهم وبين حقهم من الشهرة هم هؤلاء الأدباء الذين سبقوهم في الزمان ، وظهروا قبلهم في ميدان الحياة الأدبية ، فاستأثروا بالشهرة وبعد الصيت ، واحتكروا ما يملكه الناس من الإعجاب والحب ، ثم ضنوا بما ظفروا به فلم يقبلوا فيه شركة ، ولم ينزلوا منه للشباب الناهض عن جزء يسير . وكان حق هؤلاء الأدباء الذين يسمون بالشيوخ على هؤلاء الأدباء الذين يسمون بالشباب أن يشكروا لهم صمتهم عنهم وإعراضهم عما يكتبون ، وانصرافهم إلى الإنتاج عن النقد . فهذا الصمت والإعراض والانصراف هي الحصائل التي هيأت لهم أن يظهروا ، وأتاحت لهم أن يعرفوا ، ومكنت لهم بين من يقرءهم ويرضى عنهم من الناس ، ولكن هؤلاء الأدباء الذين يسمون بالشيوخ لم يلقوا من هؤلاء الشباب إلا جحوداً وعقوقاً ، وإلا بغضاً ونفوراً . فقد ظن الشباب أن سكوت الأدباء عنهم حسد لهم ، وبخل عليهم بما هم أهل له من الشهرة وحسن الحديث . وما جزاء البخل إلا أن يلاموا على البخل ، وما جزاء الحساد إلا أن يعابوا على الحسد ، وما جزاء المنافسين إلا أن يصلوا منافسيهم حرباً شعواء تقصمهم قصماً ، وتهدمهم هدماً ، وتجعلهم أحاديث . وكذلك ظنت الزراير أنها صارت شواهد ،

كما يقول الشاعر القديم . وكذلك أرادت الضفدع أن تكون ثوراً ، فأخذت تنتفخ وتنتفخ ، حتى انفجرت ، كما تقول الأساطير . وكذلك اندفع هؤلاء المحققون في كلام كثير وهذيان لا حد له ، فكلفوا أنفسهم عناء سخيفاً ، وكلفوا الناس عناء سخيفاً ، وكادوا يفسدون الحياة على أنفسهم وعلى الناس . . .

أما أنا فالوم الأدباء الذين يسمون بالشيوخ ، وألوم نفسي قبل أن ألوم أحداً غيري ، على إهمال النقد والإعراض عن هؤلاء الشباب . فلو أننا مضينا فيما كنا فيه نقوم المعوج ونذل المفسدين على وجوه الإصلاح ، لاستقامت لهؤلاء الشباب ، أو لهؤلاء الذين يسمون أنفسهم شباباً ، حياة أدبية صالحة لا يشوبها الغرور ، ولا يفسدها الادعاء العريض ، ولكن لهم إنتاج أدبي أقوم من هذا الذي يملثون به الأسواق ، ويفسدون به الأذواق ، ويسبون به إلى القراء . فالتبعة التي نحملها ثقيلة حقاً ، وما أظن أننا نستطيع أن نخلص منها إلا بالرجوع عن هذا الخطأ الذي تورطنا فيه ، والإثم الذي دفعنا إليه ، واستئناف النقد كما بدأناه ، حين كانت الحياة الأدبية غضة نضرة ، وحين كان النشاط الأدبي خصباً منتجاً ، وحين كانت الإجابة الأدبية هي التي يقصد إليها الأدباء والشعراء دون الشهرة الفارغة والصيت الذي لا ينفع ولا يفيد . على أني أعود فأغضب بأن هؤلاء الشباب الذين ساء ظنهم بأنفسهم وساء ظنهم بالناس ليسوا إلا قلة لا يحفل بها ولا يؤبه لها ، وأن كثرة الذين يكتبون من الشباب أو ممن يسمون أنفسهم شباباً لا يزالون يحبون التواضع ، ويكرهون الغرور ، ويتفتنون بالنقد ، ويشكرون للنقاد عنايتهم بهم ، ولا يفرضون عليهم لوناً من النقد دون لون ، ولا يغضبون منهم أن لم يقدموا لهم من الثناء ما يتحرقون ظمأً إليه .

ولا بد من أن أذكر بعض الأسماء ، ومن أن أذكرها في الخير لا في الشر ، فقد يكون من الرفق بالمفسدين ألا نسجل عليهم ميلهم إلى الفساد وإمعانهم فيه ، وقد يكون من الرفق بهم أيضاً أن نعرض عليهم من المثل ما ينتفعون بالنظر إليه والتفكير فيه . ومن هؤلاء الذين نذكرهم بالثناء « ملاحنا التائه » فقد تناولنا ديوانه بالنقد ، ولم نصطنع في هذا النقد رفقاً ولا إيثاراً ، ولم نتردد في أن نقول لصاحبه ما رأينا أنه الحق . وكان بعض الذين يعرفون ما لم نكن نعرف من أخلاق أدبائنا الذين يسمون أنفسهم شباباً يقدرون أن « الملاح التائه » سيغضب أشد الغضب ، وسيسخط أقبح السخط ، وسينكر علينا أن نقول فيه كلمة الحق . ولكن الرجل لم يكذب يقرأ النقد حتى انتهت إلينا عنه أحاديث الرضا ، ثم أقبل بنفسه يتحدث إلينا بهذه

الأحاديث ويقبل من نقدنا ما أقنعه ، ويناقشنا فيما لم يقنعه ، وانصرف عنا كخير ما ينصرف الأديب عن الناقد، ليس في صدره غل ولا حقد ، وليس في نفسه لوم ولا موجدة ، وإنما هي المودة التي يجب أن تكون بين الرجال حين يعرض بعضهم لآثار بعض بالنقد الخالص الذي لا ميل فيه مع الهوى ، ولا انحياز فيه إلى الشهوات .

أما الأستاذ فكرى أباطة فلست أدري أشاب هو أم شيخ ، أو قل لست أدري أيرى نفسه شاباً أم شيخاً . أما أنا فأعترف له ولقرائه جميعاً وللذين يعجبون به أنني أراه شاباً ، وأراه شاباً قوى الشباب موفور النشاط، وأراه شاباً مبتدئ الشباب لم يقطع في طريقه إلا خطوات قصاراً ، فأمد الحياة الحلوة الرخية المملوءة بالأمال واللذات ما يزال أمامه بعيداً كما يشتهي بل أبعد مما يشتهي . وإذا فهو من خير المثل التي يجب أن تقدم للشباب من الأدباء ، وأن تقدم لهم من بين أنفسهم لا من بين الشيوخ . فالقراء قد رأوا ما كتبه في الأسبوع الماضي عن كتاب « الضاحك الباكي » للأستاذ فكرى أباطة ، وهم قد رأوا أنني لم أكن فيه رقيقاً ولا ليناً ، وهم قد رأوا أنني قد أخذت الأستاذ بطائفة من العيوب لم أتردد في إظهارها ، ولم أصطنع الحمايلة في تصويرها ، وتمنيت آخر الأمر أن تبرأ منها كعبه المقبلة . فلست أدري كيف أشكر للأستاذ فكرى أباطة كتابه العذب الرقيق الذي أرسله إلى ، يشكر لي ما كتبت في « حديث الأربعاء الماضي » ويشكر لي بنوع خاص ما أظهرت من العيوب التي رأيت إظهارها في كتابه ، ويقر منها ما يرى إقراره ، وينكر منها ما يرى إنكاره . أستغفر الله ! فكلمة الإنكار أقوى مما أراد الأستاذ أن يسطر في كتابه حين نبهني إلى أنه لم يسرف ولم يبالغ ، وإلى أن الحقائق أقوى وأشد مما صور في كتابه ، وإلى أنه إن كان قد أسرف أو بالغ فإسرافه ومبالغته لا يتجاوزان الصورة والشكل ، فأما جوهر الوقائع وحقيقتها ، فليس عليها بأس من مبالغة أو إسراف .

هذا المثل الذي يقدمه الأستاذ فكرى أباطة لشباب الأدباء خليق أن يعرض عليهم وخليق أن يظفر بما هو أهل له من تفكيرهم وتقديرهم . فكثير منهم في حاجة إلى أن يتعلموا منه التواضع وحسن الذوق ، وإلى أن يعلموا أن النقاد ليسوا مدينين لهم بشيء ، وأنهم هم مدينون للنقاد بكل شيء ، وأن الذين لا يؤمنون بهذه الحقيقة خليقون ألا يعرضوا للحياة الأدبية ولا يخوضوا غمارها . فليست الحياة الأدبية لعباً ولا لهواً ، وإنما هي جد كل الجدد، والجهد مر في أكثر الأحيان ، وإذا حلا فإنما حللته شيء عارض ، لا ينبغي أن يطمع فيه الأديب ، ولا أن يتخذ لسيرته الأدبية أصلاً

ومقياساً . ولولا أنى أكبر تواضع الأستاذ فكرى أباطة وأشفق على الأستاذ منه لنشرت كتابه لهؤلاء الشباب الذين تفتنهم أنفسهم ويصرفهم الغرور عن أن يروا فنهم كما هو، إذا عرفوا كيف يقرأ النقد ، وكيف يعرف للنقاد بلاؤهم عند الأدباء .

وأديب آخر لا بد من ذكره وإن كنت لم أعرض له بعد، ولكنى أذكره على كل حال ، وهو الدكتور أبوشادى . فقد بلغه أنى أريد أن أعرض لشعره فى بعض حديث الأربعاء ، فتفضل وأرسل إلى بعض دواوينه وكتب إلى يسبق النقد بالشكر مسجلاً على نفسه أنه شاكر لهذا النقد مهما يتكشف عنه من الآراء ، ومهما يكن هذا النقد مرضياً له أو غير مرض ، هذا حسن ، هذا خليق أن ينتفع به الشبان أيضاً ، هذا عهد يجب أن يكون بين المنتجين والنقاد : على المنتجين أن ينتجوا مخلصين ، وعلى النقاد أن يتقدوا مخلصين ، لا ينظم الصلة بينهم فى هذا إلا الصدق والإخلاص ، وابتغاء الحق من حيث هو حق لا من حيث إنه يسر أو لا يسر هؤلاء .

وقد نشرت « مجلة الأسبوع » ، فصلاً لكاتب أديب زعم أنه يريد أن يستكشف أسرار هذه الحركة الأدبية العنيفة التى أثيرت فى هذه الأيام ، وأن هذه الأسرار لاترضى ولا تشرف الأدباء ، وأنها ليست خالصة للنقد أو للأدب ، وإنما هى أشياء قوامها ما يكون بين الأدباء الشيوخ أو الذين يسمون بالشيوخ ، من تنافس وحسد ومن ضغينة وحقد ، إلى آخر هذه الأوهام التى ذهب فيها الكاتب الأديب كل مذهب . ولست أدري أوفق الكاتب للحق حين تحدث عن الأستاذين العقاد والمازنى ، أم أخطأه ، وأكبر الظن أنه أخطأه . ولكن الذى لا شك فيه ولا أحب للكاتب الأديب أن يشك فيه هو أنه لم يوفق للصواب حين ظن بى أنى أتأثر فيما أكتب بمنافسة أو ضغينة أو حقد ؛ فإله يشهد أنى أبعد الناس عن هذه المؤثرات ، وأناهم عن هذه الخصال ، وأنى لا أستطيع أن أعرض لكتاب من الكتب أو ديوان من الديوانين قبل أن أستوثق بمقدار ما يستطيع الإنسان أن يستوثق من أنى قد طرحت وراء ظهري كل ما يمكن أن يكون بينى وبين صاحب الكتاب أو الديوان من صلوات الخير والشر ، وقصدت إلى الكتاب أو إلى الديوان لا أبتغى غيرهما ، ولا أفكر فى غيرهما . ولست أزعم أنى أوفق من هذا لما أريد ، ولكن الذى أحققه هو أنى أحاول هذا ما وجدت إلى محاولته سيلاً . والكاتب الأديب يخطئ كل الخطأ ، ويتبرع بالإساءة إلى حين يظن أنى خبيث على رغم ما أظهر من الطيبة . فإله أدري أطيّب أنا أم خبيث ، ولكن الذى أعرفه ولا أحب للكاتب أن ينكره على هو أنى

لا أحب الخبث ولا أتخذ سبيلاً فيما أكتب من هذه الفصول التي أنقد فيها آثار الأدباء . فليحسن الكاتب الأديب ظنه حتى تقوم له ولأصحابه البيئة على أنى قد أردت بهم سوءاً ، واتخذت الخبث سبيلاً إلى نقلهم . أما قبل أن تقوم هذه البيئة فهم متجنبون . وقد يحسن التجنى من بعض الناس ، ولكنه لا يحسن من الأدباء .

• • •

وفصل آخر من أخلاق الأدباء أريد أن أعرض له في آخر هذا الحديث الذي آسف أشد الأسف لأني صرفته عما بين يدي من الكتب والداوين إلى هذه الأشياء التي ما كان ينبغي أن تحتاج إلى أن نجعلها موضوعاً للحديث . وهذا الفصل الآخر من أخلاق الأدباء هو هذا الذي ظهر منذ أسبوع بين الرسالة وبينى من خلاف ما أظن أن كثيراً من الناس قد فطنوا له أو وقفوا عنده . وأنا مع ذلك أعرضه عليهم عرضاً ليعلموا أن أخلاق الأدباء في حاجة إلى شيء غير قليل من التقويم . والخلاف الآن لا يقع بين الشيوخ والشباب ، وإنما هو يقع بين الشيوخ ، أو بين من يسمونهم شيوخاً . فالقراء يعرفون ما كان من قصة الأستاذ توفيق الحكيم ، وهم يذكرون أن هذه القصة نشرت في « الوادي » ذات يوم ، ثم لم يمض يوماً حتى ردت عليها الأستاذ توفيق الحكيم بما أصلح الأمر ، وأقر الأشياء في نصابها ورد الصلات بينه وبينى إلى خير ما كانت عليه . ولست أنكر أن هذه الخصومة بين صديقين تقوم صداقتهما على الأدب خليقة بعناية الأدباء ، خليقة بأن تصورها الرسالة لقرائها كما تحب لا تتجاوز في ذلك قصداً ولا حقاً . ولكن الذي لا أشك فيه أيضاً هو أن للصديقين اللذين وقعت بينهما هذه الخصومة على « الرسالة » بعض الحق ؛ فهما من كتاب الرسالة في وقت من الأوقات ، وأحدهما من المؤسسين للرسالة الذين أقاموها على اعتناقهم ، وأعانوها على مقاومة الخطوب وعلى أن تشق طريقها بين الصحف الأدبية كما يقولون . وأيسر ما هذين الصديقين على الرسالة من حق هو أن تعرض الرسالة لهذه الخصومة بينهما من طريق لا تفسد صالحاً ولا تكدر صافياً ، ولا ترد الأمر بينهما إلى الخلاف بعد أن كان قد انتهى إلى الوفاق . وأيسر ما لهما على الرسالة من حق أن تنشر هذه الخصومة بعد أن تتحدث إليهما أو إلى أحدهما في هذا النشر . ولكن الرسالة لم تتحدث إليهما ولا إلى أحدهما ، وإنما نقلت الفصل الذي كتبه ولم تنشر إلى أنها نقلته ، بل أعلنت في الصحف قبل صدورها أنها تنشر فصلاً ممتعاً للدكتور طه حسين ، لم تبين عنوانه للقراء مع أنها تعودت أن تبين عنوان ما يكتب فيها هو

أو غيره من الكتاب . ولست أخفى على الرسالة وقرأتها أنى لما رأيت هذا الإعلان عجبت أشد العجب ، ودهشت أعظم الدهش ولبثت ساعات أرقب الرسالة لأعرف هذا الفصل الممتع الذى كتبه ؛ فقد كنت أعلم أنى لم أكتب للرسالة شيئاً فى ذلك الأسبوع . فلما وصلت إلى الرسالة التمت هذا الفصل الممتع الذى كتبه عن غير علم ، فإذا هو قصة الخصومة بين الأستاذ توفيق الحكيم وبينى ، تنشره غير مشيرة إلى مصدره ، كأنى قد كتبه لها ، أو كأنى أرسلته إليها .

دع تقصير الرسالة فيما ينبغى من الجاملة بين الصحف مهما يكن بينها من سبيل ، وقف عند تقصير الرسالة فيما ينبغى من الجاملة بين الأصدقاء فيما ينبغى من الجدل فى الإصلاح بين المختصمين لا فى الإفساد بين الذين صلحت بينهم الأمور . والواقع الذى لا شك فيه هو أن قوماً يقرءون الرسالة ولا يقرءون الوادى قد قرءوا هذه القصة فاستيقنوا أن الأمر بين الأستاذ توفيق الحكيم وبينى قد فسد ، وكلمنى فى ذلك منهم من كلمنى ، وكتب لى فى ذلك منهم من كتب لى ، وكان أيسر آداب المودة والسعى بين الناس بالخير يقضى على الرسالة أن تنشر القصة كاملة إذا لم يكن من نشرها بد ، ليعلم الناس أننا اختصمنا ولكن الصلح قد استقر بيننا ، وأنا اختلفنا ولكننا عدنا لى الوفاق . بل أكثر من هذا أن الأستاذ توفيق الحكيم نفسه ظن أن رده لم يقنعى وأنى نشرت هذا الرد لأجمله عليه ثم عمدت لى مقالى فأعدت نشره فى الرسالة . وهذا شىء تعلم الرسالة حق العلم أنه لا يلائم أخلاقى ولا يلائم سيرتى ، ولا ينبغى لها أن تدفعنى إليه أو تدفع الناس أن يظنوه بى . رأيت مسلك الرسالة هذا فكبت فى الوادى كلمة عتاب يظهر أنها أغضبت صديقى « الزيات » فهو يرد على فى العدد الأخير من الرسالة بكلمة قصيرة جداً ولكنها ثقيلة جداً أظن أنه لا يستطيع حملها وإن كان قوياً شديداً البأس ، وأظن أنه لو فكر فيها وتدبر معانيها لأشفق فى كتابتها ؛ ولكنه أديب فتنه السجع ، وخلبه الإيجاز ، فخطا ولم يقدر لرجله قبل الخطو موضعها ، واندفع ولم يتدبر عاقبة الاندفاع . فالزيات يتهمنى بأنى أستغل حياة الحى ووفاء الوفى وتسامح الأصدقاء ، أستغفر الله العظيم ، وأستغفر حياة الزيات ووفاءه وتسامحه من هذا الاستغلال الذى لم أحس أنى أقدمت عليه فى يوم من الأيام ، وأنى أقدمت عليه بالقياس لى الزيات خاصة . وإذا لم يكن بد من الاستغلال والمستغلين فإنى أرجو ألا يكون الزيات حياً وفاقاً متسامحاً فحسب ، بل أن يكون مخلصاً صادقاً أميناً أيضاً . وإذا فانا أسأله أين يكون الاستغلال ، وأين يكون المستغلون ؟ وأنا أسأله وألح عليه فى

السؤال أن يبين لي في صراحة لا تحتل الشاك ولا اللبس ولا الغموض : متى استغلت حياتك ووفاءه وتسامحه؟ أحيان كنت أكلف نفسي ما أطيق وما لا أطيق، وأحمل نفسي من الجهد ما أحتمل وما لا أحتمل لأرضيه ولأرضي الناس عن الرسالة ، أم حين كنت أجدُّ النهار كله في عملي الخاص ، حتى إذا كان الليل وطمعت في شيء من الراحة لم أظفر بها ولم أفكر فيها، وإنما فرغت للرسالة أكتب لها الفصول أو أترجم لها الكتب لأنها في حاجة إلى ما يُكْتَبَ أو يترجم ، ولأن الزيات يريدني على أن أكتب أو أترجم ، ولأن الأصدقاء لا يريدون أن تظهر الرسالة وليس لي فيها أثر مترجم أو مكتوب ؟ أم حين كنت أفرغ من عملي الخاص، وأعود بعد الظهر لأتغدى وأستريح ، ولكن الزيات ينتظر مني فصلا للرسالة يجب أن يصل إليه آخر الساعة الخامسة أو آخر الساعة السادسة ، فلا أفرغ من الغداء إلا لأمضي في الكتابة حتى ترضى الرسالة ويرضى الزيات ؟ أكنت في هذا كله أستغل حياة الزيات الحبي أو وفاء الزيات الوفي ، وتسامح الزيات الصديق ، أم كان الذي يستغل حياة الحبي ووفاء الوفي وتسامح الصديق شخصاً آخر لا يحمل اسمي ولا يتصف بما أتصف به من الخصال ؟ عفا الله عن الأدباء ! فما أشد ما تحتاج إليه أخلاقهم من التقويم ، وما أشد ما تحتاج إليه أقلامهم من الكبح ، فهي تجمع أحياناً فتسرف في الجموح !

أما بعد فإن هذه الخصومة الأخيرة التي يثيرها الزيات وهو صديق الصبا وأخو الشباب خليقة أن تدعو إلى التفكير في هذا العهد الذي فسدت فيه الصلة بين الناس حتى ما يعرفون لمودة حرمة ، ولا يعرفون لصديق حقاً ، ولا يرجون لإخلاص وقاراً ، ولا يرفعون أنفسهم عن أن تقول غير الحق ، وتتورط في غير الصواب ، وتتهم الناس بما ليس فيهم من عيب ، لالشيء إلا لأن السجع يستقيم ، والإيجاز يحسن وقعه في السمع ويجراه على اللسان . إن مودة الأصدقاء يجب أن تكون أغلى من سمجة ، وأنفس من إيجاز . وإن احترام الرجل لنفسه ، وحرصه على ألا يقول غير الحق ورغبته في ألا يُرَدَّ الشر إليه حين يصدر عنه ، كل ذلك خليق أن يدعو الزيات إلى أن يفكر فيما كتب ، وإلى أن يعتذر مما قال . وهو على كل حال خليق أن يقطع ما بين الرسالة وبينى من صلة ، حتى يعرف أصدقاءنا الذين نهضوا معنا بتأسيس الرسالة أن لصديقهم عليهم حقاً يجب أن يؤديه إليه .

على بساط الريح

للشاعر اللبناني فوزى المعلوف

قضى شاباً لم يتجاوز الثلاثين ، ولو قد عمر لكان له في حياة الشعر العربي الحديث شأن أى شأن ، ولكان له بين الشعراء المحدثين مكان أى مكان . وكثير من الشعراء يمرون بالأرض سراعاً ولكنهم يتركون فيها آثاراً باقية طويلة البقاء ، ومنهم من يطبع بجيله بطابعه الخاص ، ومنهم من ينشئ مذهباً في الشعر يبقى ما بقي الشعر ، ولا يتأثر باختلاف الظروف وتباعد العهد وتتابع الأيام . وكان « أبو تمام » من هؤلاء الشعراء ، مر بالأرض مرّاً سريعاً ، كما يمر السحاب ، ولكنه غرس في الأرض حدائق لن يجد الذواء والذبول إليها سبيلاً . وكان « أندريه شينيه » من هؤلاء الشعراء ، مر بالأرض مرّاً سريعاً كما يمر السحاب ، واختطفته الثورة الفرنسية اختطافاً ولما يبلغ رسالته كاملة . ولكن الشعر الفرنسي لم ينس غناؤه بعد ، ويظهر أنه لن ينساه ، ما دام في الشعر الفرنسي غناء .

وفوزى المعلوف بعيد كل البعد عن أن يشبه بأبى تمام أو يقاس إلى أندريه شينيه ، ولكنه قريب كل القرب من أن يذكر معهما ، ويفكر فيه إذا فكر فيهما ، ويتحدث عنه المتحدثون إذا تحدثوا عنهما . مر بالأرض مرّاً سريعاً ، كما تمر النسمة الهادئة ، الحلوة الوديعة ، التي تحمل على هبوبها وحلاوتها وعلى دعوتها وعدوتها خصباً كثيراً ، فيه حياة للنفوس ، وفيه شفاء للقلوب ، وفيه مادة لتفكير العقول ، فتأق ما تحمل ، ثم تمضي في طريقها هادئة وادعة ، إلى هذا العالم الذي لا يرجع من يذهب إليه . أو قل إنه مر بالأرض مسرعاً كما تمر نغمة الغناء ، أو كما يمر لحن الموسيقى ، فضى إلى حيث لا يعلم أحد ، ولكنه ترك في النفوس صدى يتردد فيها حلواً لا ذعاً محرقةً معاً . لا أعرف أنى تأثرت بشاعر كما تأثرت بهذا الشاعر الشاب ، حين قرأت قصيدته على « بساط الريح » أمس ، فاهتزت لها نفسى اهتزازاً ، وأشفق لها قلبي إشفاقاً . ثم قرأتها اليوم فوجدت لقراءتها مثل ما وجدت أمس ، أو أكثر مما وجدت أمس . وما أرى إلا أنى سأقرأها وأقرأها ، وسأجد في قراءتها هذه اللذة المرة

التي يجيها الأديب حين يقرأ الشعر الجيد الرائع الجميل . بل أذكر أني وجدت هذا الأثر مرة حين قرأت منذ أعوام مقطوعات من الشعر الفرنسي نشرتها « الالستراسيون » لشاب أمريكي أحب فرنسا وتطوع للدفاع عنها أثناء الحرب ، وتغنى في شعره الفرنسي الخلو بجمال تلك الأرض التي كان يدافع عنها ، والتي تثبت خير ما ينبت في فرنسا من الكرم ، وتؤتي خير ما تؤتيه كروم فرنسا من الخمر . وكان ذلك الشاعر الأمريكي الشاب يحس أنه سيموت ، وكان يقدر أن جسمه سيمتزج بثرى ذلك الإقليم الفرنسي ، إقليم « شمبانيا » ؛ وسيغذو ما سينتبه ذلك الثرى من الكرم ، وسيشيع فيما ستؤتيه تلك الكروم من الخمر . وكان يسبق الزمان فيمزج نفسه بالفرنسيين ، وكان يسبق الزمان فيمزج نفسه بما سيلقاه الفرنسيون من النشوة والفرح ، ومن البهجة والسرور ، حين يشربون ما سيؤتيه ثرى « شمبانيا » من النبيذ .

وكنت أقرأ هذا الغناء الحزين اللاذع ، فأجد لنغمته لذة حزينة لاذعة ، كهذه اللذة التي وجدتها أمس ووجدتها اليوم حين قرأت قصيدة ذلك الشاعر اللبناني الشاب . ولست أعرف من أمر هذا الشاعر شيئاً إلا أني سمعت اسمه من أبيه الحزين حين كان في مصر أثناء الشتاء ، ثم حدثني عنه المحدثون في هذه الأيام ، حين أخذت في درس الشعر العربي الحديث . ثم حمل إلي بعض الأصدقاء قصيدته هذه ، ثم قرأت هذه المقدمة الطويلة الغريبة ، التي قدمها بين يديها بعض المستشرقين ، ثم عرضت عن هذا كله ، وأخذت أقرأ القصيدة نفسها ، فأى روح عذب ، وأى فن رائع ، وأى موسيقى خليقة بالبقاء !

وقد قرأت في المقدمة ، وقال لي الناس ، إن لهذا الشاعر مجموعات أخرى من الشعر . وأنا أرجو أن أوفق لقراءتها أو للنظر فيها ؛ فإن من الخير بل من الواجب على الذين يُعَسِّون بالشعر العربي الحديث أن يدرسوا شاعرية هذا الفتى درساً مفصلاً دقيقاً ، ليروا كيف نشأت وكيف تطورت ، وكيف انتهت بصاحبها إلى هذا الخطر العظيم من الإجادة والإيقان . ولا بد من أن أكبح هذه العواطف التي تثير في نفس عواطف الحب والحزن ، والرحمة والإشفاق . لا أستطيع أن أتحدث عن هذه القصيدة حديث الناقد الذي لا يتأثر بالعواطف والميول إلا بمقدار ، ولكن كيف السبيل إلى ذلك ؟ القصيدة كلها حزن وكلها إثارة لهذه العواطف . بل كيف السبيل إلى ذلك والشيء القليل الذي انتهى إلى من أمر هذا الشاب ، كله حزن ، وكله إثارة للعواطف . فقد نشأ هذا الفتى في لبنان حيث هذه الطبيعة الرائعة التي نجحها

ونكبرها ونكلف بها ، ونُعْجَبُ بما تفيض على أهلها من دعة وشدة ، وكرم يقوم النفس ، ويصنى الطبع ، ويبعث في المزاج حدة كلها شعر ، وكلها تأثر بالجمال . ولم يكد هذا الفتي يبلغ الشباب حتى هاجر ، كما يهاجر أبناء وطنه ، إلى طرف بعيد من أطراف الأرض : هناك في أمريكا الجنوبية حيث الحياة سهلة ولكنها لا تخلو من نشاط ، وحيث الحياة عاملة ولكنها لا تدفع إلى المادية التي تفسد القلب والذوق ، وحيث يعيش المهاجرون عيشة قوامها الأمل والذكرى ، ومزاجها الحنين الذي يؤلف بين الأمل والذكرى . هناك حيث تفتح أمام اللبناني والسوري أبواب الأمل الذي لا حد له أيضاً ، ولكن حيث لا يستطيع اللبناني والسوري أن ينسى في لحظة من لحظات حياته أنه ابن لبنان ، أو ابن سوريا ، وأن له في لبنان أمّاً وأباً وإخوة صغاراً ، وقوماً ينتظرون منه الخير ، ويرجون له الخير ، ويعشون الرسائل تحملها إليه السفن ، ويعشون نفوسهم وآمالهم تحملها إليه الريح . يذكرونه إذا أشرقت الشمس ويذكروهم إذا أشرقت الشمس ، يذكرونه إذا أقبل الليل ، ويذكروهم إذا أقبل الليل ، يناجونه في الأحلام ، ويناجيهم هو أيضاً في الأحلام . فتكون له حياة عربية خالصة ، ترده إلى بداوته الأولى ، وإن كان في بيئة كلها حضارة كأحدث ما تكون الحضارة . وهل حياة العربي إذا حلتها ورجعت بها إلى أصولها الأولى إلا حنين يختصره هذا البيت :

عُوجًا على الظلل القديم لعلنا نبكي الديار كما بكى ابن حزام
أو يختصره هذان البيتان :

هوى ناقتي خلتني وقد أوى الهوى وإني وإياها لختلفان
تحن فتبدي ما بها من صباية وأخفى الذي لولا الأسى لقضاني

حياة العربي كلها حنين تفيض به نفسه إن سكت ، ويفيض به كلامه إن تكلم ، ويفيض به شعره إن كان من الشعراء . ودع ما يقوله مؤرخو الآداب في تحليل الوقوف على الأطلال ، وبكاء الديار وتذكر الأحباب في أول الشعر ، على اختلاف العصور والمنازل ، فليس لهذا كله علة إلا هذا الحنين الذي امتزج بنفس العربي فقومها تقويماً .

عاش هذا الشاب بين الأمل والذكرى والحنين ، ومات هذا الشاب بين الأمل والذكرى والحنين ، وتغنى هذا الشاب في قصيدته هذه بأساً مهلكاً ، وحزناً محرقةً ، لا مصدر لها إلا الأمل والذكرى والحنين .

وارحمنا للغريب في البلد النا زح ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده ولا انتفعا

والقصيدة التي أريد أن أتحدث عنها قصة يسيرة ولكنها رائعة في سيرها، قصيرة ولكنها بارعة على قصرها، تلخيصها سهل ولكنها لا تحتمل التلخيص، لأن جمالها لا يأتي من جملتها وإنما يأتي من تفصيلها، وهو لا يأتي من خلاصتها، وإنما يأتي من هذا الشرح الذي بسطت به هذه الخلاصة تبسيطاً وعرضت فيه عرضاً جميلاً. فالشاعر قد طار في الجودقائق، ثم هبط الأرض. هذا كل شيء، هذه هي الفكرة التي أوحى القصيدة إليه، فكرة من أيسر ما يخاطر للناس، ولكن انظر في الوحي الذي صدر عنها فستراه رائعاً حقاً. والغريب أن الشاعر لم يطل في وصف الطيارة التي صعد بها الجو، ولم يغرب في هذا الوصف، ولم يأت فيه بشيء يمكن أن يوصف بأنه جديد. ولعله كان عريباً بدويّاً، حين خيل إليه أن في صدر الطيارة جنّاً تحت الخيل. ولكن جمال القصيدة لا يأتي من الوصف، وإنما يأتي من هذا الخيال الفلسفي الساذج الذي يرقى بالإنسان في فلسفة مألوفة قديمة ليس فيها ابتكار إلى روحيته العليا في غير تكلف ولا احتمال بلهد في التصعيد الطويل.

وقد قسمت القصيدة أقساماً وترتبت أناشيد، وألف بين هذه الأقسام والأناشيد تأليفاً طبيعياً منطقيّاً يكون وحدة منسقة بديعة التنسيق، وبُشِّت في هذه الوحدة حياة قوية جداً، وحركات تلائم ما في هذه الحياة من القوة، ثم بثت بين هذه الحياة والحركات نجوى هادئة وديعة مؤثرة تصور روح الشاعر الهادي الوادع على ما يحطم نفسه من اليأس. بدأ قصيدته بتصوير الشاعر الذي سيقص علينا قصته، فجعله ملكاً في الهواء، ثم وصف روحه الحر، وجسمه العبد، في الأناشيد الثلاث الأولى. فانظر كيف ابتدأ. ونلاحظ قبل كل شيء أنه اختار البحر الخفيف من أوزان الشعر لقصيدته، لم يغير فيه طول القصيدة، ولكنه غير القوافي بتغيير الأناشيد، والتزم في البيت الأول من كل أنشودة نوعاً من الموسيقى يهب له ظرفاً وجمالاً موسيقياً خاصاً، فيضيف أو قل يقحم بين شطري هذا البيت مقطوعتين من مقاطع البحر الخفيف هما «فاعلاتن مستعلن» ثم يضيف نفس هذين المقطعين بعد هذا الشطر الثاني فيتان المعنى ويضعان موسيقى الأنشودة أجمل وضع وأروع. فانظر كيف بدأ أنشودته الأولى:

في عباب الفضاء فوق غيومه

فوق نسره

ونجمته

حيث بث الهوى بشعر نسيمه

كل عطره

ورقته

موطن الشاعر المخلق - منذ السبده لكن بروحه لا يجسمه
 أنزلته فيه عروس قوافيه بعيداً عن الوجود وظلمه
 ملكٌ قبة السماء له قصر وقلب الأثير مسرح حكمه
 ضارب في الفضاء موكبه النور وأتباعه عرائس حلمه
 فانظر إلى هذين المقطعين القصيرين اللذين أحاط بهما الشطر الثاني من البيت
 الأول ، وكيف يتأن معناه ويحملان لفظه وينسقان موسيقاه ، تنسيقاً حلواً ظريفاً .
 ثم انظر إلى هذه الموسيقى التي تنبث في الأنشودة كلها مؤلفة من الألفاظ والمعاني
 ومن هذه الصور الغريبة التي يعرضها عليك في جرأة ، كأنها الأصوات النابية التي
 يفرضها الموسيقى عليك فرضاً لأمر يريده هو ولا تفتن له أنت وإنما تتذوقه وتحبه
 وتطمئن إليه . فهذا الشاعر الملك الذي اتخذ قبة السماء قصرأ وأديم السحاب عرشاً
 ودجى الليل طيلساناً ، والثريا صولجاناً ، ملك رائع ، لا لأنه ممكن ، ولا لأنه
 مستحيل ، بل لأنه غريب نتخيله ولا نتصوره ، نامحه ولا نكاد نتبينه . وهذا الملك
 غريب في الأرض قد أكره على أن ينشأ فيها ويعيش عليها ، وإكته يقلت منها بين
 حين وحين ، فيصعد إلى قصره في قبة السماء ، ويجلس على عرشه من أديم السحاب ،
 ويتصرف في ملكه بأمر الخيال ، وباسم الخيال ، حتى إذا رُدَّ إلى موطنه السفلى نظر
 فإذا هو عبد لكل شيء : عبد لقلبه ، وعقله ، وشعوره ، وحسه . عبد للناس وعبد
 لما يضعون من نظام وقوانين . عبد للطبيعة ، عبد لكل ما يحيط به . لا يخلص من هذا
 الرق إلا حين يعطف عليه روحه ، فيحمله على جناح خياله ، وينقله إلى ملكه الرفيع .
 كل ذلك يؤدي في ألفاظ سهلة ومعان قريبة وصور منها المألوف ومنها الغريب ،
 ولكنها كلها جميلة ، لأنها مألوفة حيناً ولأنها غريبة حيناً آخر . هذا الشاعر الحر
 العبد ، المقيد ، المطلق ، الملك ، الراعي ، حلم ولكن في اليقظة لا في النوم ، رأى
 نفسه يصعد في السماء ، على طيارة ، انظر كيف وصفها الشاعر :

هي طير من الجهاد كأن السجّج في صدرها تحث خيولا
 محممت تضرب الرياح بنعليها فشقت إلى السماء سبيلا
 ثم مدت إلى النجوم جناحين وجرت على السحاب ذيولا
 غرقت في الأصيل حيناً وعامت بعد حين تعلو قليلا قليلا
 ترتدى من دخانها بردة الليل وتلقى عن منكبيها الأصيل
 وعليها من الشرار نجوم عقدت حول رأسها إكليلا
 حلتى ، حلتى ، وألقى على الأفلاك رعباً وروعة وفضولا
 فلم تكذ هذه الطيارة ترقى به في الجو حتى أحسته الطير ، فارتاعت له
 ثم ائتمرت به ، ثم هجمت عليه لأنها ظنته مستعمراً يريد أن يملك الجو ، كما
 تعود أن يغير على الأرض . وهل يستطيع الشاعر العربي الشرق أن ينسى الاستعمار
 إن أقام في وطنه ! أليس طريد الاستعمار إن هاجر عن وطنه ! ولكن الشاعر
 يؤمن الطير ويأمن إليها ، ويطلب عندها الراحة من التعب والعناء ؛ فهو شقى في
 الأرض ، متعب بما فيها ومن فيها .

ثم انظر إلى أشودته التي سماها « رمز الألم » كيف صور فيها شقاء الإنسان
 وتعبه وسوء حظه وحاجته إلى أن يفلت من هذه الحياة من حين إلى حين ،
 ليرفه على نفسه ، حتى تتاح له الراحة الكبرى ولكن الحلم ما زال متصلا ،
 والطيارة ما زالت تصعد بصاحبها ، وهو قد بلغ الطير فأخافها ثم صالحها ،
 ولكنه عاقل يعيش في القرن المم العشرين ، ويركب الطيارة ، وهو في الوقت
 نفسه شاعر يهيم في فضاء لا حد له ، فهو يدنو من النجوم ولكنه لا يبلغها ،
 يدنو منها بقوة الخيال ، ولا يبلغها لأن العلم ما زال قاصراً عن أن يبُلِّغَه إياها .
 وقد أحبته النجوم ، فبعضها يشفق منه ، وبعضها يهزأ به . والطيارة تصعد به
 دائماً ، والحلم متصل لا ينقطع ، وإذا هو يحس من حوله حياة لم يعرفها وأشباحاً
 لا يتبينها ، وأصواتاً يتذوقها ولا يكاد يسمعها ، وإذا هي الأرواح تنكره ويأتمر
 به بعضها . أليس هو حفنة من تراب قد طفت على الجو ، وسمت إلى حيث
 لا ينبغى أن تسمو ؛ فيجب أن تُردَّ إلى أصلها ، وأن تتمزج بمعدنها من الأرض .
 ولكن روح الشاعر يواتيه فيحميه ويعطف عليه كل هذا الكون الذي ينكره
 ويثور به ، وإذا الشاعر يقضى على بساط الريح مع خير ما في الكون من
 المعاني والروح والمثل العليا ، لحظات لا سبيل إلى أن تقدر ولا إلى أن توصف ،

وإنما هي لحظات النعيم الذي يذوقه الشعراء ويبدع في تصويره الشعر ، ثم يعجز برغم هذا الإبداع عن أن يؤدي صورته كما كان يريد أن تكون صادقة صافية ملائمة لما رأى ولما أحس .

ثم ينقطع الحلم وتهبط الطيارة الأرض ، وينظر الشاعر فإذا هو قد رُدَّ إلى موطن الرق وهوى إلى حيث الشقاء والألم والذل ، وما شئت مما يجعل حياة الناس تعساً كلها ، وإذا هو لا يجد معزياً ولا معيناً إلا قلمه . أليس هو الذي يتلقى عنه وحى الشعر ؟ أليس هو الذي يسطر عنه هذا الوحي ؟ أليس هو الذي يحمل شكاته المتصلة الخالدة إلى الأجيال المتصلة الخالدة ؟ نعم ؛ ليس للشعراء صديق يعدل روايتهم حين كانوا لا يكتبون . ولولا الأقلام ما عرفنا - أستغفر الله - ما عرف شعراءنا المحدثين أحد من هؤلاء الذين سيعرفونهم بعد أن تمضي القرون والقرون . فيرثون لهم ، ويعطفون عليهم ، ولعلمهم أن يجدوا عندهم ما يسر ويرضى ، كما نجد نحن السرور والرضا عند القدماء .

لو طاعت نفسى لنقلت لك القصيدة كلها فليس فيها بيت واحد يستحق الإهمال . وأعيد الآن ما قلته من أن القصيدة لا تمتاز بالابتكار ، فليس فيها أو لا يكاد يكون فيها شيء مبتكر ، وإنما تمتاز بهذا الروح الخلو القوى الوداع الذى تكون من جمال الشعر والموسيقى وانبث في القصيدة كلها فجعلها كلها خليقة أن تقرأ وتقرأ ، ولا يزهد فيها القارئ ولا يعمل من قراءتها مهما يعدها ، بل يرغب القارئ أشد الرغبة في أن يستريح إلى هذه القصيدة حين يثقل الهم على نفسه ، ويضطرب الحزن في صدره ، ويضيق بالحياة والأحياء ؛ لأنه يجد في هذه القصيدة شريكاً له في الهم ، ومشاطراً له في الحزن ومعيناً له على الضيق . ثم لأنه لا يكره أن يحلم مع الشاعر وهو يقظان ، وأن يتخفف من جسده ويدع الأرض وأثقالها ، ويلبس بهذا الشاعر الملك في قبة السماء التى اتخذها له قصراً ، وعلى أديم السحاب الذى اتخذ له عرشاً ، ومن هذا القصر الشاهق ومن هذا العرش العالى ينظر مع الشاعر إلى الأرض ومن عليها وما عليها نظرة بريئة من الكبرياء ولكنها مملوءة بالرحمة والحب والإشفاق . ولست أزعم أن القصيدة تخلو من بعض الألفاظ التى كان الشاعر يحسن لو غيرها وأعرض عنها ، ولكن أين تكون هذه الألفاظ القليلة النادرة من هذا الجمال الذى لا حد له ولا نهاية ! لقد خسر الشعر العربى بموت هذا الشاعر الذى لم يكذب يتجاوز الثلاثين ؛

ولكن الشعر العربي الحديث قد ربح بهذه الحياة القصيرة ما أحسبه يقدره إلى الآن . ولعل مما يعزى أن يكون بعض الشعراء المصريين قد عرف لهذا الشاعر قدره ووصف قبره هذا الوصف المؤثر الرائع الذى تقرأه فى ديوان « الملاح الثائه » والذى يقول فيه الأستاذ على محمود طه قصيدته « قبر شاعر » المنشورة فى غير هذا المكان .

ومن الحق أن نسجل هنا ما سجله الشاعر نفسه من أن هذه القصيدة إنما هى من وحى فوزى المعلوف ؛ فقد قالها الشاعر بعد أن سمع شيئاً من هذه القصيدة التى تحدثت إليك عنها الآن .

في النظم

أنفاس محترقة - محمود أبي الوفا

يراه صديقنا فؤاد صرّوف وجماعة غيره من المثقفين شعراً ، وأنا آسف
أشد الأسف لأنني لا اراه إلا نظماً . وآسف أشد الأسف أيضاً لأنني مضطر
إلى أن أقول ذلك وأعلنه إلى قراء هذا الحديث . ولو أرسلت نفسي على سجيبتها
لآثرت ألا أعرض لهذا الديوان . ولكن ماذا أصنع وللنقد علينا حقوقه وتكاليفه
الثقال ، وللقراء علينا أن نصدقهم حين نتحدث إليهم فيما ينشر عليهم من
أنواع الكلام ؛ والله يعلم أنني أؤثر الرفق على العنف ، واللين على الشدة ، ولكن
الله يعلم أيضاً أنني لا أتردد في الشدة والعنف حين يدعو إليهما الحق ويقضيهما
الإنصاف . وإني لأشعر بشيء من الحزن العميق حين ألاحظ أننا كنا منذ
أعوام نقسو على حافظ وشوقي رحمهما الله ، نجادلها فيما كانا يقولان أشد الجدل ،
وننازعهما فيه أشد النزاع ، لا نكاد نسلم لها بالإجادة ولا نعرف لها بالإتقان .
ولم نكن في ذلك مسرفين ولا مخطئين ، وإنما كنا نؤدى للمثل الفنى الأعلى
حقه ، ولا نكتفى من شعرائنا بما كانوا يكتبون به ولا نرضى لهم أن يُفسد عليهم
أمرهم العُجب ويحملهم الغرور على التقصير أو القصور . كنا كذلك منذ
أعوام ، أما الآن فقد أصبح الرضا بسيراً ، وأصبح كل كلام منظوم شعراً ،
وكل كلام مرسل نثراً ، وكل شيء مطبوع في مجلد أو سفر من الأسفار
أدبياً ، وأصبح الجدل في ذلك أو الإنكار له إثمًا من الآثام ، وذنباً من الذنوب
العظام ، يوصف بالحسد حيناً وبالمنافسة حيناً آخر ، وبالقسوة والغلو حين
يحسن بك الظن ويصدق فيك الرأي وترتفع عند الأدباء عن مظان الريب
والشكوك .

وكنا خليقين أن يكون تشددنا مع الشعراء والكتاب في هذه الأيام أكثر
منه في الأعوام الماضية ، فالمفروض أننا نتقدم ولا نتأخر ، وأنا نرق ولا نهبط ،
وأن المثل الأعلى في كل شيء ، يرق ويعظم ويبعد بمقدار ما يعظم حظ الناس

من الحضارة والرقى . ولا بد من أن نلتمس العلة لهذا الضعف الذى أصاب الذوق الفنى حتى أفسده أو كاد يفسده إفساداً تاماً . وقد ذكرت فى غير هذا الفصل شيئاً من الأسباب التى دفعتنا إلى هذا الضعف ، وقلت إنا قد أهملنا النقد لإهمالا ، وأعرضنا عنه إعراضاً ، فنشأ جيل من الأدباء ، يكتبون وينظمون ولا يشعرون بمراقبة النقد ، فيخيل إليهم أنهم يجيدون ، ثم ينتهى الأمر بهم إلى شئ من الغرور البغيض . ولكن هناك علة أخرى لهذا الضعف لم يبق من الممكن أن نهملها ، أو نعرض عنها ، لأنها شديدة الخطر حقاً على الفن والذوق والخلق جميعاً ، وهى حرص السياسة على استغلال الأدب والأدباء . ومن الأشياء التى لا تقبل الشك ، وإن كنت أكره أشد الكره أن أعرض لها أو أطيل فيها ، أن هذا العهد السياسى الذى نعيش فيه قد أحس أن الأدب المعروف والأدباء المعروفين لا يميلون إليه ، ولا يرضون لأدبهم أن يكون له صورة ومرآة . وأراد مع ذلك أن يكون له أدب وأدباء ، وأن يكون له شتر وشعراء ، فجاء ذلك وأنفق جهداً غير قليل ، وإذا ميول تظهر ، وأهواء تلتقى ، وأنباء تذاع فى الصحف وجماعات تؤلف ، وأندية تنظم ، ومحاضرات تلقى ، وأصوات كثيرة ترتفع وما كانت تسمع من قبل ، وإذا أدب جديد ، أو أدب يوصف بأنه جديد ، قد أخذ يدنو من الناس ويتقرب إليهم ، ويتملقهم بألوان من أسباب الملق ، فيبلغ من بعضهم ما يريد ويعجز عن أن يبلغ من أكثرهم شيئاً . ولولا هذه الظاهرة لظل كثير من الناس الذين يسمون أنفسهم أدباء أو شعراء مشغولين بما كان يشغلهم قبل هذه المحنة السياسية من فنون الجلد والحزل ، وألوان الاضطراب فى كسب الحياة . وأنا أعترف بأنى لا أعرف أبا الوفا ، ولست أذكر أرايته قبل اليوم أم لم أراه . ولست أذكر أنى قرأت له شعراً قبل اليوم . ولعل سمعت من نظمه البيت أو البيتين ، فلم أقف عند ما سمعت ولم أفكر فيه . ثم ثارت منذ حين نائفة عن شاعر مجدد يسمى أبا الوفا ، إيه أصدقاء يجربونه ويعطفون عليه ، وله قوم آخرون يكبرونه ويعجبون به ، وأخذت الصحف تنشر من أبناء أولئك وهؤلاء شيئاً كثيراً . كنت أسمع به وأقف عند بعضه حائراً حيناً ومنكراً حيناً آخر . ثم يعظم الأمر ويتسع حتى يصل إلى رئاسة مجلس الوزراء ، وإذا صدق باشا يرقى إلى الأدب أو الأدب يهبط إلى صدق باشا ، ثم نسمع أن أبا الوفا قد سافر إلى باريس ليلقى الأطباء ، فلا ننكر من ذلك شيئاً ،

ولكننا ننكر هذه الضجة المتكلفة التي ثارت حول هذه الرحلة للاستشفاء في باريس .

ثم أدع هذا كله فيما كنت أدع من أمور الأدب الحديث والأدباء المحدثين حتى إذا عدت إلى التفكير في هذا الأدب وفي هؤلاء الأدباء رأيت بين يديّ دواوين كثيرة ، منها هذا الديوان الصغير الذي يسمى بالأنفاس المحترقة .. فأنكر العنوان ، ولا أسيغه ، ولا أفهم ما يراد به إليه ؛ فأنفاس الناس كلها محترقة ، وأنفاس الحيوان كذلك ، فلو قد سمى الناظم ديوانه الأنفاس ليس غير ، لكان في هذا الاسم ما يغني . ولعله أراد أن يقول الأنفاس المحترقة ، فأخطأ الوصف . على أنني لم أطل الوقوف عند العنوان ، وإنما أخذت أنظر في الديوان ، فإذا مقدمة لصديقنا فؤاد صروف ، أعجبنى أولها ، وأدهشني آخرها . أولها كلام في الشعر مستقيم وإن كان الخلاف في بعضه كثيراً شديداً متصلاً ، وإن كان مذهب الأستاذ صروف فيه محتاجاً إلى كثير من التحقيق والتدقيق . فليس من الحق فيما أظن أن تحكيم العقل في الشعر يفسده . ولعل جماعة من كبراء الشعراء الفرنسيين وغير الفرنسيين ، لا يقبلون الشعر إلا إذا سيطر عليه العقل وأخضعه لسلطانه المنظم ومنطقه المستقيم . وليس من الحق فيما أظن أن إرسال النفس على سجيبتها يصلح أمر الشعر الحديث في الأمم المتحضرة التي لا ترى الشعر ضرورة من ضرورات الحياة العادية ، وإنما تراه لوناً من ألوان الترف العقلي والشعوري . ولكن الغريب من أمر صديقنا صروف أنه ينتهي من مقدمته إلى هذه النتيجة ، وهي أن صاحب الديوان شاعر من غير شك ، وأن شعره خليق بالإذاعة والبقاء . وأنا آسف أشد الأسف لا لأني لا أرى رأي الأستاذ ولا أقره عليه ، بل لأني أعتب على الأستاذ أن يقضى في أمر الشعر والأدب كما يقضى في أمر الطبيعة والرياضة والكيمياء . ولست أتردد مهما أكن قاسياً عند كثير من القراء في أن أعلن أن صاحب الديوان لا يستطيع أن يرقى بديوانه هذا إلى منزلة الشعراء ولا أن يجلس معهم على مائدة « أبُلون » ؛ فالأمد بينه وبين ذلك بعيد إلى أقصى غايات البعد . والأدباء أحرار في أن يرفعوا صاحب هذا الديوان إلى حيث يريدون من منازل الشعر ، يتأثرون في ذلك بما يريدون ، فهذا لن يغير من الحقيقة الواقعة شيئاً ، وهو أن هذا الديوان يخلو من الشعر خلواً تاماً . بل أنا أذهب إلى أبعد

من ذلك ، ولا أكره هذه القسوة ، وسيكرهها كثير من القراء ، فأزعم أن هذا الديوان على خلوه من الشعر ، لا يخلو من سوء النظم وفساده واضطرابه الذى لا يطاق . ولولا أن الظروف السياسية التى أشرت إليها قد حملت جماعة من الناس على أن يشيدوا بأمر صاحب الديوان ويسرفوا في ذلك إسرافاً شديداً ، لما استطاع كلام كهذا الكلام أن يوصف بالشعر ، أو أن يرقى إلى مرتبة الكلام الذى يوصف بجودة النظم واستقامة الوزن وحسن الانسجام . فأنت تستطيع أن تقرأ الديوان من أوله إلى آخره دون أن تظفر فيه ببيت واحد ، فضلاً عن مقطوعة ، فضلاً عن قصيدة ، يثير في نفسك هذا الرضا الذى يثيره الشعر العالى ، أو يبعث في نفسك هذه اللذة التى يبعثها الفن الجميل . إنما هى معان بعضها مبتذل أشد الابتذال ، وبعضها مألوف لا جمال فيه ، وبعضها مأخوذ من الشعراء المتقدمين والمعاصرين أخذاً بريئاً من الاحتياط ، وبعضها فيه استهتار وتكلف للمجون الذى لا يلائم الذوق الأدبى الممتاز في هذا العصر الذى نعيش فيه . يريد الشاعر أن يكون حائراً ، لأن من الشعراء من تملك الحيرة أمره ، فيتكلف في الحيرة كلاماً لا يغنى ولا يدل على شيء . فانظر إليه كيف يقول في هذه القصيدة :

والليل كم فيه سر يدمى فؤاد الصريح
 كأنما الليل قس يغرى بسود المسوح
 واهاً وواهاً لقلبي واهاً له من جريح
 لم يَدْرِ سهماً رماه أتاه من أى ريح
 ولست أدري أنا كيف يكون تخريج هذا البيت عند النحويين ، كما
 أنى لست أدري أين الشعر فى السهم الذى يأتى من أى ريح ؟ !
 يا طير من أى دوح أنا وفى أى دوح

ولاحظ الدوح بفتح الدال والدوح بضمها فى بيت واحد لا لشيء إلا
 لتستقيم القافية

الأرض لم يبق فيها من موطن للصريح
 من لم يغنّ لموسى غنى لعيسى المسيح
 وهذا المعنى كما يعرف الناس جميعاً علائى ، قد كثرت نسبته إلى صاحبه

أبي العلاء حتى تحدثت به العامة على قلة عنايتها بالأدب والأدباء .
يا روح من أين جئت من حيثما جئت روجي

وقيف من هذا البيت فسترى فيه فساد النظم صارخاً حقاً ، فلا بد من أن تمد كسرة التاء في «جئت» حتى تجعلها ياء ليستقيم وزن الشطر الأول . ثم انظر إلى ابتذال اللفظ وسخفه وانحرافه عن الصواب في قوله « من حيثما جئت روجي » هذا هو الكلام الفارغ حقاً .

سر الحياة الأليم بوجي به واستريجي
ولكن روجه لم تبج بهذا السر الأليم ليستريح . فإن كان هذا السر هو ما تحدثت به الناظم في قصيدته كلها فهو سر معروف ، قد اؤتمن عليه أكثر من اثنين .

وأراد الناظم أن يتحدث عن الإيمان فلم يقل شيئاً . فانظر إلى هذه القصيدة أو المنظومة التي يعجب بها الأستاذ فؤاد صروف . والظريف أن الناظم أراد أن يكون كالأستاذ العقاد - وما الذي يمنعه من ذلك؟! - فقدّم بين يدي منظومته تلخيصاً للفكرة التي نظمها يحسبه واضحاً وهو غامض أشد الغموض ؛ فهو لا يرى أن الإيمان نقيض الكفر ، وإنما يرى أن الإيمان مرادف الحياة . فكل حي مؤمن سواء أكان كافراً أم مؤمناً . وعلى ذلك فآدم لم يقترف خطيئة ولا إثمًا حين عصى الله ، وأكل من الشجرة ، وإنما رغب في الحياة الحرة المستقلة . فإذا كنت قد فهمت من هذا شيئاً فأنت رجل عظيم الحظ من الذكاء حقاً . أما أنا فلا أفهم من هذا الكلام إلا أنه ضرب من اللغو ، يريد صاحبه أن يزعم لنفسه فناً من فنون الفلسفة ، فيه خروج على ما ألف الناس من أحكام الدين . وأعوذ بالله من أن أدخل فيما بين الرجل وبين ربه ؛ فأنا لا أبيع ذلك لأحد . وإنما ألاحظ أن حب الامتياز قد يدفع الناس إلى سخف كبير . وانظر إلى المنظومة نفسها ، فهي آية من آيات الفلسفة التي لا تمتاز بشيء كما تمتاز بالفراغ والقدرة على إحراج الصدور :

قوة لم تتح لقلب جبان تلك في المرء ، قوة الإيمان
تتجلى في جميع قوى الكو ن شيوع الأرواح في الأبدان
لكأني أرى الحياة وإياها ها سميين ، أو هما تويمان

أول المؤمنين بالله حقاً هو ، في الأرض ، كان أول بان
يا ضياء الحياة بوركت فيها بل تباركت يا يد العمران
إلى أن يقول :
ليت شعري ماذا أراد بنا الخالق إلا سيادة الأكوان

رب فم ابتعثت رسلا ولو شئت لأغنت إرادة الإنسان
أفصح الحسن مستهلاً فما حجة هذا الجمال للترجمان
لا أرى آدمياً عصى الله لكن شاء أن يستقل بالسلطان
يكره الحر أن يعيش على السجـن ولو كان سجنه في الجنان
أرأيت ! أراد آدم أن يكون مستقلاً بالسلطان لا يخضع لأمر الله ،
ولا يذعن لإرادته ، وهو حين أراد ذلك لم يعص الله ، ولم يخرج عن أمره ،
وإنما أراد أن يكون له شريكاً ونداً ليس غير . وأكبر الظن أن الناظم قد اختلط
عليه آدم وإبليس ، أو أنه لم يختلط عليه شيء ، وإنما عقد الأمور على نفسه
تعقيداً ، وزج بنفسه في مشكلات لم يخلق لها ولم تخلق له .
وتستطيع أن تقرأ « ضحية العيد » وأن تقرأ حديث الناظم إلى فيكتور هوجو .
فليس المهم أن يفهم فيكتور هوجو ، أو أن يفهم هذا الشاعر الفرنسي ،
وإنما المهم أن افهم فيكتور هوجو كتاباً يقال له البؤساء ، وأن بعض هذا الكتاب
قد ترجم إلى العربية ، وعرف صاحبنا أنه ترجم ، وصاحبنا بائس فهو يتحدث
إلى صاحب البؤساء ، وهو يتحدث إليه حديثاً لا يستطيع أن يرقى إليه ، لأنه
خال من الشعر كل الخلو . والغريب الذي لا أستطيع أن أفهمه ولا أن أسيغه
ولا أن أعود نفسي على أن تطمئن إليه ، أن بين المثقفين قوماً يقرءون هذا
الكلام ويذيعونه في الناس على أنه شعر ، ويشجعون الشباب على أن يذهبوا
مذهب صاحبه ، ويتأثروا بخطواته فيما ينظمون .
ولست أريد أن أطيل عليك بالتحليل والتعليل ، ولا بالتقد والملاحظة ،
فكل الديوان يشبه هذا الكلام أو هو أقل منه حظاً من الجودة . ولكن لا بد
من أن أقف بك عند أشياء لا ينبغي أن تمر دون أن تعرض عليك .
فانظر إلى قصيدته - أستغفر الله - ! إلى منظومته التي سماها « مجمع
الأصفياء » ولست أريد أن أفسرها فهي تفسر نفسها ، ولا أن أنقدها فهي

تنقد نفسها ، وإنما أروها لك لتضحك ليس غير :

هذا هو المجلس لا تذكروا شبيهه في الصفو لا تذكروا
رأيت فيه كيف أضحت لنا حقيقة مرثية عبقر
كان زكى باشا إلى جنبه زعيم سوريا الحر شهنذر
وكان هرأوى الرقيق الدقيق واللغوى صادق عنبر
ويوسف الآثار عنوانها الأملعى العالم الأكبر
والعالم الدكتور عيسى الذى يتم عنه المعجم المشر
والعلم المفرد فى عصره خطاط مصر السيد الأشهر

• • •

عباقر الفصحى وأحلامها والأعين اللاتي بها تبصر
انتظم الصفو بهم معشراً من خير ما ازدان به معشر
فى مجلس يجرى به صفوه كما جرى فى البخنة الكوثر
يتابع الضحك به بعضه كالموج ذى تطوى وذى تنشر
فنكتة فى ضحكة تختنى وضحكة فى نكتة تظهر
يرسلها صاحبها لفظة كأنها من فسه السكر
يا من رأى من قصفنا وصفه فظننا كنا به نسكر
لا تأمن فى عصبه عمرها لم يستخف حلمها مسكر
والله فى ليلتهم ما احتسوا إنمأ ولا طاف بهم منكر
نوع من اللهو البرىء الذى يروى عن الأملاك أو يؤثر
يمر ذكر منه فى خاطرى فأثنى فى حلم أخطر
وينشئ للجو مثل الشذى لهذه الذكرى التى أذكر
يا دار « كيلانى » التى أشرقت وضوات من أوجها الأقر
لله هذا الضوء من مظهر لولاك ما كان له مظهر

أرأيت إلى هذا النظم البديع ؛ وأيهما أقرب إلى الإجابة : هذا الكلام أم منظومات النحو والفقه والعروض ؟ !

وانظر إلى منظومة أخرى سماها « القبلة » ، ولست أريد أن أروها لك ، فأنا أرقى بهذا الحديث عن رواية هذا الكلام الذى هو مجون الشوارع أدنى منه إلى الأدب الرفيع . وماذا يعنى الناس من أن الناظم يحسن التقبيل ، ومن أنه

يمنح القبل الطوال والقصار والقبل الصامته وذات الصوت ، وأين الروحية التي يتلمسها الأستاذ فؤاد صروف في هذا المجون !

أما الأغلاط النحوية والصرفية والأغلاط التي تتصل بالوزن وإقامة النظم فأكثر من أن تحصى . وأنا أعطيك منها أو من بعضها أمثلة تدل على سائرها ؛ لأنني لا أحب أن يضيع وقتك ووقتي في مثل هذا الإحصاء . فانظر إلى قوله :

هذي جوانح صب في حبكم مستهام
نسجتها مروحة لما براها الغرام

وأظنك توافقني على أن الشطر الأول من البيت الثاني يخالف سائر البيتين في الوزن . وانظر إلى قوله :

هيئ لي جواً إذا ما طلعتُ لم أجد في سمائه إلاك
ودع هذا الذوق الذي يبيح له أن يطلب إلى صاحبه أن تهبي له جواً
الحب ، وقف عند هذه الضمة التي يجب أن تمتد حتى تصير واواً ليستقيم الشطر الأول من هذا البيت .
وانظر إلى قوله :

أنا منك وأنت مني روحاً فلين إلى روعي فذاك
فلا بد من أن تمتد كسرة الكاف في « منك » حتى تصبح ياء ليستقيم وزن الشطر الأول . ولا بد من أن تمتد فتحة الياء من « إلى » الأولى ليستقيم وزن الشطر الثاني .

والغريب أن الناظم قد تعلم النحو والعروض في الأزهر .
أما الأغلاط النحوية . فانظر إلى منظومته التي يشكر بها إخوانه ، وإلى هذه الأبيات الثلاثة التي تبتدى بهذه الجملة « كى أرى الناس » يريد كى أرى الناس بفتحة على الياء ، لأن الفعل ينصب بعد « كى » فيما أظن . وللناظم ذوق فني لا نظير له بين الأذواق ، يكفي أن تجده وتتعجب به في هذا البيت :

إذا تحدثت سال الظرف من فه وإن يحدثت تراه مطرق الرأس
ومن الناس من يتحدثون فيسيل الظرف من أفواههم ، ومنهم من يتحدثون فيسيل اللعاب من أفواههم ، وقوم آخرون يتحدثون فيسيل الشهد من أفواههم ، وكل هذا شعر في هذه الأيام ! ! .

وانظر إلى هذا البيت الطريف .

لغة البلايل أين تذهب بين هدهدة الهداهد
 فإذا لم تعجبك هذه الهاءات والبدالات فالتمس لنفسك ذوقاً حيث شئت .
 أراني قد أطلت وأسرفت في الإطالة . ولكنني لا آسف على ذلك ؛
 فقد يجب أن يعنى الأدباء بأدبهم أكثر من هذه العناية التي أظهروها إلى الآن .
 وقد يجب أن يغلق الأدباء أبواب الشعر ويقطعوا أسبابه على الذين لا ينبغي
 لهم أن يلجوا من هذه الأبواب ويتصلوا بهذه الأسباب . فقد يقال إن مصر
 تدعى لنفسها زعامة الأدب العربي في الشرق . وهذا الادعاء يفرض على مصر
 واجبات ، أولها أن تكون حذرة دقيقة متحرجة ، ترتفع بالأدب وبالشعر خاصة
 عن الإسفاف والابتذال ، وإلا فهي ضحكة الشرق العربي كله .
 وبعد ، فللناظم ديوان آخر تفضل بإهدائه إلى وهو الأعشاب ، ولم أقرأ
 هذا الديوان بعد ، وسأقرؤه إن شاء الله . ولكنني لن أتحدث عنه إلا إذا وجدت
 فيه ما يستحق الثناء .

في الشعر

الجداول

للشاعر اللبناني إيليا أبي ماضي

لست أدري أيرضى أصدقاؤنا اللبنانيون أم يغضبون إن رأيت أن أثر جبالهم الجميلة في الشاعر الذي أتحدث عنه اليوم ضعيف جداً . فالذين كتبوا عنه ينبتوننا بأنه لبناني المولد ، ولكنه لم يبلغ الحادية عشرة حتى هبط مصر ، فأقام فيها يدرس إلى التاسعة عشرة ، ثم ارتحل إلى أمريكا فأقام فيها إلى الآن . وهؤلاء الذين كتبوا عنه يلاحظون أنه أصنى الشعراء والكتاب اللبنانيين والسوريين المهاجرين إلى أمريكا لغة ، ويخيل إليهم أن إقامته في مصر هي مصدر هذا الصفاء . أما أنا فأسف أشد الأسف لأنني مضطر إلى أن ألاحظ أن صفاء لغته هذا الذي أعجب « كغمير » وزميله الأستاذ طه الحميري لا يخلو من شيء كثير يفسده ويباعد بينه وبين ما ألفناه من صفاء اللغة ونقاها عند الكتاب والشعراء الذين ينشئون ويعيشون في مصر ولبنان وغيرهما من بلاد الشرق العربي . ولست أزعج أن لغة الشاعر رديئة أو منكرة ، ولكنها تقارب الرداءة أحياناً حتى توشك أن توغل فيها إبعالاً . وليكن مصدر ذلك ما يكون ، ولكنه شيء واقع لا نستطيع إلا أن نلاحظه ونسجله آسفين . ذلك أن الشاعر مجيد حقاً خصب الذهن نافذ البصيرة ذكي القلب متقن الفهم لما يريد أن يقول ، موفق إلى إجادة التصوير لما يجب أن يصور ، فكان خليقاً أن تواتيه مع هذه الخلال نعمة صافية عذبة تعينه على إظهار ما في شعره من قوة وروعة وجمال ليس إلى الشك فيها من سبيل . ولعل الشاعر نفسه آنس الضعف في لغته . ولعله حاول أن يصلحه فلم يستطع . ولعله لما استيأس من هذا الإصلاح لم يجد بداً من أن يتخذ هذا الضعف مذهباً ، ومن أن يدافع عنه دفاعاً ويذود عنه ذباداً ،

فقال في فاتحة الديوان الذى أريد أن ألم به في هذا الحديث :

لست منى إن حسب ت الشعر ألفاظاً ووزنا
خالفت دربك دربي وانقضى ما كان منا
فانطلق عنى لثلا تقضى همماً وحزنا
واتخذ غيرى رفيقاً وسوى دنياى معنى

فمن المحقق أن الشاعر لا يقول شيئاً في هذا الكلام ، لأن الشعر لا يستقيم ولا يوجد ولا يمكن تصوره بغير الألفاظ والوزن . وآية ذلك أن الشاعر نفسه قدم لنا في ديوانه هذا ألفاظاً موزونة ولم يقدم لنا كلاماً مثوراً في غير وزن ، ولم يقدم لنا معاني في غير ألفاظ . وآية ذلك أيضاً أن الشاعر في هذه الفاتحة نفسها يطلب إلى قارئه أن يقرأ ديوانه ، وأن يكرر القراءة ولا يزهّد فيها ولا يشفق من تكرارها ، ويزعم له أن الصوت لا يدل على شيء إذا لم تسمعه الأذن . وإذا فاللفظ ليس من الضعة وضالة الشأن بحيث يريد الشاعر أن يقول في هذه الأبيات التي رويها لك . وهناك بدعة يباح فيها كثير من الناس ؛ وهى أن الجمال الفنى في الكلام نثراً وشعراً يأتي من المعنى وحده دون أن يكون للفظ أثر فيه . وهذا كلام إن استقام لأصحاب المنطق والفلسفة فهو لا يستقيم لأصحاب الأدب والفن ، لأن صناعتهم بطبيعتها تريدهم على أن يتخذوا اللفظ نفسه مظهراً لهذا الجمال الذى يفتنون به ويحرصون عليه . ومهما يكن حظ الشاعر من إجادة المعنى وتصحيحه وتحقيقه والبعد به عن الخطأ والارتفاع به عن الإحالة ، فهو لن يظفر من إعجاب الناس بحظ قليل أو كثير إلا إذا استطاع أن يجلو لهم هذا المعنى في لفظ إلا يكن رائعاً خلاباً فلا أقل من أن يكون صحيحاً مستقيماً بريئاً من الفساد . ولست أذهب مذهب الذين يرون الجمال الشعري في اللفظ وحده ولا يحفلون بالمعنى ، لأنهم يلتمسون هذا الجمال في الموسيقى ، ولأنهم يجدون الجمال في غناء الطير وحفيف الورق وهفيف النسيم وفي خريير الجداول وهدير البحر ؛ ولا يجادون لهذه الأصوات كلها معنى . لا أذهب هذا المذهب فقد يكون فيه كثير من الحق ، ولكن فيه كثيراً من الغلو أيضاً . ولعل الخير أن نذهب في ذلك مذهب أوساط الناس ، فنقول كما يقولون : إن الكلام يجب أن يدل على شيء وإلا كان لغواً ، ويجب أن يكون صحيحاً مستقيماً وإلا كان ثقيلًا على الأذن نابياً عن المزاج . وعلى هذا النحو نخالف الشاعر فيما ذهب إليه من ازدراء اللفظ والوزن ، ونخالف

الكاتب الأديب الذي قدّم هذا الديوان إلى القراء فيما ذهب إليه من الإعراض عما قد يكون في هذا الديوان من خطأ في اللغة أو اضطراب في الوزن ، ويحتفظ بالمقاييس التي احتفظنا بها دائماً في نقد ما ينتج الكتاب والشعراء : صحة المعنى واستقامته وطرافته ، وجودة اللفظ ونقاؤه وارتفاعه عن الركاكة والإسفاف على أقل تقدير .

وقد يكون من العسير أن نتعلق بكثير من الخطأ على الشاعر إيليا أبي ماضي في معانيه التي قصد إليها في هذا الديوان ؛ فهو مصحح للمعاني كما قلنا ، لا يحيل أو لا يكاد يحيل ، ولا يتورط أو لا يكاد يتورط في هذه المعاني الفاسدة التي تلتوى على العقل ، وإن كنا قد نجد من ذلك شيئاً في الديوان بل في الفاتحة نفسها ، فقله :

كلما أفرغت كأسى زدت في كأسى دنا

معنى فاسد لا يستقيم ، ذلك أنه يريد أن يقول إن خمره لا تنقص بالشرب أو بالاستهلاك ، كما يقول أصحاب الاقتصاد ، إنما تزداد وتربو . فانظر إلى هذه الصورة المستحيلة التي صور فيها هذا المعنى المستقيم :

كلما أفرغت كأسى زدت في كأسى دنا

فالكأس جزء ضئيل من الدن ، أو قل إن الكأس تحتوى جزءاً ضئيلاً مما يحتويه الدن ، فكيف يمكن أن يزداد الدن في الكأس ؟ !

وللشاعر مثل هذا الخطأ في تأدية المعاني الصحيحة في نفسها . فانظر إلى هذا البيت :

ثم انتبهت فلم أجد في مخدعي إلا ضلالى وفراشى ومخدعى

يريد أن يقول : إنه انتبه فلم يجد إلا مخدعه وفراشه وضلاله ، ولكن وزن البيت لم يستقم له ، فأضاف إليه كلمة أقامته ولكنها أفسدته إفساداً وهي قوله « في مخدعى » فهو إن وجد ضلاله وفراشه في مخدعه لم يستطع أن يجد مخدعه في مخدعه ! ! وتستطيع أن تعود إلى فاتحة الديوان فسترى فيها معنى مستقيماً لو أحسن الشاعر أداءه ، ولكنه عجز عن هذا الأداء ، فأغلق معناه إغلقاً وجعله لغزاً من الألغاز . وذلك حين يقول :

كل نور غير نو رٍ مرّ بالأعين وسنى

يريد أن يقول إن النور ظلمة إذا لم تره العيون . فانظر إليه كيف التوى به اللفظ والتوى عليه ، فعقد معناه تعقيداً ، وأغلقه إغلقاً ، وجعل من العسير جداً على قارئه أن يصغى إليه مهما يتكلف من الجهد في إجابته إلى هذا الإصغاء . ولكن الشاعر على هذا كله مصحح لمعانيه محقق لها ، لا يكاد يفسدها أو يخطئ فيها . وابتكاره

في المعاني التي اشتمل عليها هذا الديوان قليل جداً لا يكاد يحس ، ولكن شخصيته قوية ، فهو يتناول المعاني والأغراض التي سبقه إليها الشعراء المتشائمون والمسرفون في الشك من القدماء والمحدثين ، فينفخ فيها من روحه القوي ، ويكاد يفرض شخصيته فرضاً . فشاعرنا متشائم مسرف في التشاؤم ، يزدري الناس وأخلاقهم ونظمهم وآراءهم في أنفسهم ، وغرورهم بما تخدعهم به الحياة ؛ فهو يذهب في تصوير هذا كله مذهب أبي العلاء والخيام وشوبنهاور وغيرهم من المتشائمين ، لا يكاد يأتي بمعنى لم يسبقوه إليه ، ولكنك مع ذلك تقرؤه فلا تحس فيه أخذاً ولا سرقة ، ولا تتأذى فيه بالتقليد ، وشاعرنا أثيرٌ مسرف في الأثرة أحياناً ، بعيد كل البعد من أبي العلاء حين يقول :

فلا هطلت على ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا

شاعرنا بعيد كل البعد عن هذا الإيثار ، تستطيع أن تقرأ قصيدته « بردى يا صعب » فسترى أنه لا يحفل بالنجم الذي لا يهديه ، ولا بالنهر الذي لا يرويه ، ولا بشيء من الأشياء إلا أن ينتفع به ويفيد منه لنفسه خيراً . وشاعرنا على أثرته هذه متعجل للذاته . تستطيع أن تقرأ قصيدته « تعالى » فسترى أنه لا يحفل من الحياة إلا بما تستطيع أن تمنحه من لذة ، وأنه لا يقنع بالوصف ولا بالأحاديث ، وإنما يريد أن تسقيه الخمر أولاً ، ثم تصفها له بعد ذلك ؛ فأما أن تصف له الخمر ولا تسقيه إياها فهذا كلام لا يعنيه . وشاعرنا مع هذا كله صاحب حكمة وزهد وحرص شديد جداً على المساواة ، يكاد يبلغ به الاشتراكية أو ما هو أبلغ من الاشتراكية في إلغاء الفروق بين الناس . تستطيع أن تقرأ قصيدته « الطين » فسترى أنه بلغ من ذلك ما لم يبلغه كثير من الشعراء المحدثين في الشرق العربي . ثم هو فوق هذا كله وقبل هذا كله صاحب شك لا يؤمن بشيء ولا يطمئن إلى شيء . بقية هو من هؤلاء القدماء الذين كانوا يجيبون عن كل سؤال بهذا الجواب المتواضع البديع : لا أدري . . . وقصيدته « الظلام » آية في هذا الشك ، وفي الضيق والإشفاق منه والاضطرار إليه مع ذلك ، ولست أغلو إن قلت إنها خير ما في هذا الديوان .

فأما إذا قصدنا إلى نقد هذا الديوان من جهة ألفاظه وأوزانه فنحن بعيدون كل البعد عن مثل هذا الرضا ، ونحن مضطرون إلى كثير من التحفظ ، وإلى كثير من السخط ، وإلى كثير من الضحك أحياناً . . .

فالشاعر لا يحفل بالموسيقى ، لا في وزنه ، ولا في قوافيه ، ولا في ألفاظه . ولعل

أوزان الشعر تختلط عليه أحياناً فيلأثم بينها ملاءمة لا تستقيم . فقصيدة « الطين »
التي كنا نشئ منذ حين على معانيها وحسن تصويرها للمساواة ، من أردأ الشعر العربي
قافية وأنباه عن السمع والذوق ، ولعل عنوانها كان يحتاج إلى شيء من الذوق . ولكن
انظر إلى مطلع القصيدة :

نسى الطين ساعة أنه طين ن حقيق فصال تيباً وعربد
فهو كما ترى قد اختار الدال الساكنة قافية لهذه القصيدة ، وسكون الدال ثقيل
ينقطع عنده النفس ، فإذا طال وتكرر في قصيدة غير قصيرة ضاق به السامع ضيقاً
شديداً . ولكن الشاعر يضيف إلى هذا الثقل الطبيعي أنقالاً أخرى . فانظر إليه كيف
يضيف سكوناً إلى سكون وانقطاع نفس إلى انقطاع نفس ، في هذا البيت :
لك في عالم النهار أمان ورؤى والظلام فوقك ممتد
فهذه الدال المدغمة لا تطاق ؛ وأنت إن قبلتها على إدغامها كلفت نفسك جهداً
ثقيلاً ، وأنت إن خضفت الإدغام أفسدت اللغة لإفساداً بغيضاً . وانظر إلى هذا البيت
أيضاً :

أنت مثلي من الثرى وإليه فلماذا يا صاحبي التيه والصد
فالصد هنا « كمتد » هناك ، ولكن قصر الكلمة هنا يزيدنا ثقلاً إلى ثقلها .
وانظر إلى هذا البيت :

وأرى للنّمال ملكاً كبيراً قد بنته بالكدح فيه وبالكد
أست ترى أن قافية هذا البيت توشك أن تكون رطانة أعجمية ! أحب أن
يتدبر الشبان من الشعراء هذا المعنى ! فالدال من الحروف التي تكسب القافية متانة
ورصانة وجمالاً إذا تحركت بإحدى الحركات الثلاث ، فإذا سكنت منحت القافية
ثقلًا ثقيلًا لا يقبله السمع ولا يطمئن إليه الذوق . فانظر إلى قصيدة الحطيئة
مطلعها :

- ألا طرقتنا بعد ما هجعوا هند
- واقرا القصيدة إلى آخرها فسترى أن قافيتها من أمثن القوافي وأرصنها . ومثل ذلك
يقال في مطولة طرفة • نخولة أطلال ببرقة نهمد
- وفي مرثية دريد بن الصمة لأخيه :
- أرث جديد الحبل من أم معبد
- وفي قصيدة البحري التي يمدح فيها المتوكل :
- لعج هذا الحبيب في الهجر جداً

ومن المظاهر المؤلمة لضعف الذوق الموسيقي عند الشاعر قصيدته « الأشباح الثلاثة » فهي من جيد الشعر إذا نظرت إلى معناها وأغراضها وفلسفتها . أراد الشاعر أن يصور فيها أطوار الحياة من الطفولة والشباب والشيخوخة ، فترأى لنفسه طفلاً وشاباً وشيخاً ، وتحدث إلى نفسه في هذه الأطوار حديثاً كله حكمة وعظة ، ولكنه اختار لها وزناً قلما يقصد إليه الشعراء وهو البحر المتدارك . فقرأ معى هذه الأبيات ، فستلاحظ ما فيها من الضعف الموسيقي الذي يدعو إلى الضحك حين يجب الاعتبار ، وستلاحظ في الوقت نفسه شيئاً من فساد النحو عند الشاعر يغنيننا عن أن نضرب لك الأمثال مما في الديوان من خطأ لا يحتمل من شاعر مجيد :

| | |
|----------------------|----------------------|
| ما بالك منكشاً كدا | قم نلعب في فيء الشجر |
| ونهر الأغصن والعمدا | ونذود الطير عن الثمر |
| أو نصنع خيلاً من قصب | أو طيارات من ورق |
| ومدى وسيوقاً من خشب | ونجول ونركض في الطرق |

فكل هذه الأفعال قد وقعت في جواب الأمر ، ومن حقها أن تجزم . ولكن الشاعر لا يحفل بهذا الحق ، وليته أعرض عنه إعراضاً تاماً فرفعها كلها واتمس لنفسه علة عند أصحاب العلل من النحويين ، ولكنه جزم حين استقام الوزن على الجزم ، ورفع حين استقام الوزن على الرفع ، فأخضع النحو للعروض ، أو قل لم يحفل بالنحو ولا بالعروض . . . !

فإذا أردت العبث الذي لا حد له بالموسيقى الشعرية فاقراً قصيدة « المجنون » فسترى أنها جنون كلها . أراد الشاعر أن يتخذ لها الرجز وزناً ، وأن يلعب في قوافيها بعض اللعب ، وأن يفرق بين كل جماعة من أبيات الرجز بييتين من الهزج . وظاهر بعد ما بين هذين البحرين طولاً وقصراً وهدهوءاً واضطراباً . ولكن الشاعر قد يكون عمد إلى ذلك عمداً ليحكى جنون المجانين ! على أنك لا تستطيع أن تمضى في القصيدة حتى ترى الشاعر قد اختلط عليه الأمر بين الهزج ومجزوء الكامل ، فأحدث هذا في القصيدة اضطراباً لا حد له . ومصدر هذا كله أن الشاعر لا يحسن علم الألفاظ والأوزان ، ولا يريد أن يحفل بالألفاظ والأوزان ، وهو يريد مع ذلك أن يقول الشعر . ولست أدري كيف يستقيم هذا للعقل ؟ ولكنني حائر حقاً في أمر هذا النحو من الشعر وهذا الفريق من الشعراء . قوم منحوا طبيعة خصبة ، وملكات

قوية ، وخيالاً بعيد الآماد ، وهم مهينون ليكونوا شعراء مجوّدين ، ولكنهم لم يستكملوا أدوات الشعر ، فجهلوا اللغة أو تجاهلوا ، ثم اتخذوا هذا الجهل مذهباً . فأصبحنا من أمرهم في شك مريب ، لا نستطيع لأنفسنا أن نغري الناس بقراءتهم لأننا إن فعلنا أغريناهم بالخطأ ورغبتناهم فيه ودفعتناهم إلى ما هم مدفوعون إليه بطبعهم من الكسل والقصور والتقصير .

على أن هذا النحو من الضعف لم يكن شائعاً مألوفاً في مصر ، بل لم يكن شائعاً مألوفاً في بلاد الشرق العربي ، ولكنه أقبل عليها من مهاجر السوريين في أمريكا ، فتأثر به الشباب بعض الشيء في غير مصر ، ثم أخذوا يتأثرون به في مصر نفسها . وما الذي يمنهم أن يتأثروا به وهو مريح لا يكلف تعباً ولا عناء ؛ وهو في الوقت نفسه يخيل إلى الشبان أنهم يقلدون الشعراء الغربيين ويجددون في الأوزان والقوافي ويخرجون على التقاليد فيعتون بالمعاني دون الألفاظ !

ما أشد حاجة الأدب العربي إلى جماعة من النقاد أشداء في الحق حراس على سلامة هذه اللغة وحماتها من الفساد الأجنبي ! وما أثقل الحق الذي يجب أن ينهض به هؤلاء النقاد إن وجدوا ! وما أشد ما يمضى من الحزن حين أرى هذا الفساد الأجنبي يسعى في أدبنا المصري الحديث الذي كان إلى أعوام قليلة بآمن من هذا الفساد !

ملاحظات

وحياتنا الأدبية في هذه الأيام هي موضوع هذه الملاحظات . فقد يكون من الخير أن يقف النقاد عند هذا الأثر الأدبي أو ذلك ، لنقده وتحليله ، وبيان ما فيه من إجابة وإتقان ، أو من ضعف وتخاذل وإسفاف . ولكن من الخير أيضاً أن يقف النقاد عند الحياة الأدبية العامة من حين إلى حين ، يبينون ما فيها من هذه المظاهر المشتركة التي تدل على الضعف أو على الفساد أو على سوء الاتجاه ، لعل وقوفهم عندها وتبيينهم إياها ، أن ينبه الأدباء إلى ما فيها من شر ، ويحملهم على الجهد في تجنبها والتخلص من أوزارها الثقالة . وربما كانت هذه الأيام موافقة لمثل هذا النحو من الملاحظات . فالتناس يخرجون فيها من الصيف الذي يدعو عادة إلى الراحة والهدوء ، ويسعون فيها إلى الخريف والشتاء اللذين يدعوان عادة إلى العمل والنشاط والجهد والإنتاج .

فإذا أظهر النقاد قراءهم على مواطن الضعف في الحياة الأدبية قبل أن يقدموا على الإنتاج أو على التحصيل أو قبل أن يستأنفوا نشاطهم الأدبي الجليد ، فقد يكون في هذا خير لهم ولهذا الحياة الأدبية نفسها . وقد لاحظت في الأحاديث الأخيرة الماضية أن الثقافة في مصر ضعيفة أشد الضعف ، ففترة أشد الفتور ، وأن هذا الضعف نفسه يحول بين الأدباء وبين الإنتاج القيم والجهد الأدبي الحصب .

ولكن الثقافة شيء مشترك بين المنتجين والمستهلكين في الأدب ، كما يقول أصحاب الاقتصاد . فالأديب لا يستطيع أن ينتج إنتاجاً حسناً إلا إذا كان مستكملاً أدوات هذا الإنتاج ، والثقافة الواسعة العميقة المنوعة هي أهم هذه الأدوات . والمستهلك لا يستطيع أن يقرأ ، ولا أن يفهم ولا أن يدق ، إلا إذا كان على حظ من ثقافة تؤهله للقراءة والفهم والنوع .

ومن المحقق أن ثقافة القراء في مصر ضعيفة ضيقة ، بعيدة كل البعد عن أن تكون عميقة أو منوعة ، وأن الأدباء يلقون من ذلك شراً عظيماً ، فهم يعلمون أن قراءهم قليلون ، وأن ثقافة هؤلاء القراء أضعف وأضيق من أن تعينهم على قراءة الآثار الأدبية الراقية حقاً . وهم من أجل ذلك يعرضون عن الإنتاج حيناً ويقبلون عليه

أحياناً ، ولكن بعد أن ييسروه ويسرفوا في تيسيره ليلامّ ثقافة القراء ، وقد يهبطون به إلى أدنى درجات اليسر ليلامّ عقول القراء الذين لا حظ لهم من ثقافة ، أو الذين لهم حظ من الثقافة قليل . ويختلف ذلك باختلاف طبيعة هؤلاء الأدباء ؛ فن أكبر منهم الأدب وأبى أن يتنذله ابتغاء المال ، يسره تيسيراً معتدلاً ليفهمه المستثيرون ، ومن اتخذ منهم الأدب وسيلة إلى الكسب وإلى الكسب الذي لا يحدّ إلا بالحدود الممكنة ، ابتذل أدبه ابتذالاً ، وهبط به إلى حيث يسيغه أكبر عدد ممكن من الناس . كل هذا حق ، ولكن هناك حقاً آخر من الإثم إهماله والإعراض عن ذكره ، وهو أن القراء ليسوا وحدهم مقصرين في ذات الثقافة ، وليسوا وحدهم ضعاف الحظ من العلم بما ينبغي أن يتعلمه المتحضرين في هذا العصر ، وإنما الأدباء المنتجون أنفسهم يشاركون القراء في كثير من هذا الضعف وذلك التقصير . فكثير جداً من أدبائنا يكتبون بثقافة محدودة ، بل بثقافة ضيقة أشد الضيق ، تواتيهم طبيعة خلقت لتكون خصبة منتجة فيكتبون بما تعطيهم ، ويحسبون أن فطرة هذه الطبيعة وحدها فيها الغناء وأنها دليل على أنهم ناهيون ، وأن غيرهم هو الذي يحتاج إلى أن يتعهد طبيعته تعهداً ، ويكتسب الأدب اكتساباً . فأما هم فقوم موهوبون ، كما يقال ، ليسوا في حاجة إلى قراءة ، ولا إلى تعلم ، ولا إلى درس ، وإنما يكفي أن يصرفوا نفوسهم نحو معنى من المعاني ، أو غرض من الأغراض ، وأن يهبثوا أقلامهم لتسطير ما ستمليه عليهم هذه النفوس ثم إذاعته في الناس . وما دام الناس يقرءون ما يذاع فيهم وما دامت ثقافتهم ضيقة تحول بينهم وبين المراقبة الدقيقة لما يذاع ، فالأدباء يستطيعون أن يكتبوا ، ويستطيعون أن يذيعوا في غير تحرج ولا حساب .

هذا أزهري قد تعلم أوليات النحو والفقه ، وأطرافاً من هذه العلوم التي تلتقي في الأزهري ، ثم قرأ الصحف والمجلات ، فخيّل له أنه يستطيع أن يحاكي ما فيها من النثر أو يقلد ما فيها من النظم ، ثم جرّب نفسه فانتهى إلى شيء من النثر والنظم ، ثم قرأ ما انتهى إليه على جماعة مثله ليسوا أكثر منه ثقافة ، فأعجبوا به ورضوا عنه ، ثم أرسله إلى صحيفة أدبية أو سياسية فنشرته لتملأ به فراغاً أو لأنها لا ترى به بأساً ، ونظر صاحبنا فإذا له كلام منشور مطبوع يباع في السوق ، فلم يشك في أنه أديب ، وفي أنه قادر على الإنتاج ، وفي أن نفسه خصبة ، فن الإثم أن يهملها ، ثم يندفع في الإنتاج ، وينصرف عن التحصيل . وما دامت طبيعته تواتيه والناس يسمعون له والصحف تذيع ما ينتج ، فن الحماق أن يكلف نفسه جهد القراءة والتعليم والدرس .

وهذا قد خرج من المدرسة الثانوية أو لم يكده يخرج منها أو ارتقى إلى فصل من فصول الجامعة وهو شاب يقرأ ما يذاع في الصحف . وأى شاب لا يتأثر بما يقرأ ؛ وأى شاب لا تخطر له الخواطر الحادة الحاضرة ! وأى شاب لا يحاول تسجيل ما يخطر له من الخواطر في كلام منظوم أو منشور ! لكن صاحبنا لم يكده يحاول هذا التسجيل حتى أحس من طبيعته مواتاة لينة هينة ، فإذا هو يرضى ، ثم يشتد رضاه ، ثم لا يكاد يجد تشجيعاً من أترابه أو من صحيفة من الصحف حتى ينتهي الرضا إلى الغرور ، وإذا هو كاتب أو شاعر ، يفرق الصحف والمجلات بأثاره المنظومة أو المشرورة ، ثم لا يلبث أن يجمع هذا في كتاب ، وإذا هو مؤلف أيضاً . والناس يقرءون لأن حظهم من الثقافة لا يمكنهم من التفريق بين ما يستحق القراءة وما لا يستحق . وعلى هذا النحو يكثر عدد الأدباء ، وتكثر أسماءهم في الصحف ، وتضاف إلى هذه الأسماء ألقاب ، فهذا أستاذ ، وهذا أديب كبير ، وهذا شاعر نابه ، وهذا كاتب فذ . والكاتب نفسه أو الشاعر هو أسبق الناس إلى تصديق هذا كله ، والانخداع بهذا كله ، فكيف بغيره من القراء الذين لا يعرفونه ولا يرونه ، وإنما يسمعون أنه أستاذ ، وأنه نابغ ، وأنه نابه ، وأنه ما شئت من الصفات والألقاب ! فإذا أخذت ما يكتب أو ما ينظم ، وحققت النظر فيه انتهيت إلى سخف لا حد له ، وإلى كلام فارغ ما كان ينبغي أن يقدم إلى المطبعة ولا أن يذاع بين الناس .

وشر من هذا كله أن جماعة من الأدباء أو من الذين يرون أنهم أدباء ، قد تأثروا فيما يظهر بالحياة السياسية ، وظنوا أن أمور الأدب تستقيم على ما تستقيم عليه أمور السياسة في البلاد الديمقراطية أو التي تريد أن تحيا حياة ديمقراطية . رأوا أصحاب السياسة يسعون في نشر آرائهم ومذاهبهم ، ويستكثرون من الأتباع والأنصار . ثم رأوا شيئاً قد نشر في مصر السياسية يسمى زعامة ، ورأوا جماعة من الساسة يوصفون بأنهم زعماء ، فما الذي يمنع الأديب من أن يستكثر هو أيضاً من الأتباع والأنصار وأن يكون زعيماً من زعماء الأدب ، أو من أن يكون زعيم الأدب وحده لا يشاركه في هذه الزعامة أحد ولا ينازعه فيها منازع ! ! والاستكثار من الأتباع والأنصار في الأدب معقول إذا اعتمد الأديب على آثاره الأدبية ، وعلى حب الناس لها وإعجابهم بها ، وإكبارهم لمنتجها . ولكن أصحابنا الزعماء لا يسلكون هذه الطريق ! لأن ما ينتجون من الآثار ليس من شأنه أن يثير حياءً أو إعجاباً أو إكباراً . وإذا فما لهم لا يلجئون إلى ما يلجأ إليه بعض الساسة من نشر الدعوة ، ومن الاستعانة بالمال

أحياناً! أذعُ في الصحف ما وسعتك الإذاعة أنك أديب وأديب كبير ، وأنتك زعيم وزعيم خطير ، ثم اجمع حولك طائفة من الناس يشق عليهم العيش فيسره لهم ، أو يشق عليهم الترف فأعنيهم عليه ، واقرأ عليهم بعض ما تنتج من النثر أو من النظم ، فلا أقل من أن يؤدوا إليك ثمن ما تيسر لهم من العيش أو ما تعينهم عليه من الترف ، ومن أن يكون هذا الثمن إعجاباً وإكباراً ، ثم تنقلًا بهذا الإعجاب والإكبار في المجالس والأندية ، ثم وصولاً بهذا الإعجاب والإكبار إلى الصحف والمجلات ، وإذا أنت زعيم لك أتباع وأنصار ، ولك شيعة تستطيع أن تباهى بها الزعماء . ولكن هؤلاء الأتباع والأنصار لا يلبثون أن يتأثروك ويحاولوا محاكاةك وتقليدك ، ويهشوا أنفسهم لخلافتك أو النياحة عنك . وإذا فهم مدفوعون إلى أن يحاولوا من الأدب مثل ما حاولت ، وإلى أن ينتجوا نظماً ونثراً مثل ما أنتجت . وقد كنت لهم سيداً وزعيماً ، فكأن لهم منذ اليوم ، ومع هذا كله ، مرشداً أو أستاذاً ، وصدعاً نفسك يا سيدي كما صدعتهم ، فاسمع لهم ما سمعوا لك ، وأثن عليهم كما أثنوا عليك ، وأذع لهم بين الأندية والمجالس كما فعلوا ، ثم ارق بهذه الدعوة إلى الصحف والمجلات كما فعلوا أيضاً ، فإنك إن لم تفعل خليك أن تنظر إليهم فلا تراهم ، لأن من الزعماء الأدباء من هو أسخى منك يداً ولساناً وقلماً أيضاً . وإذا فاحذر أن يغلبك هذا الزعيم على أنصارك وأتباعك وشيعتك .

وعلى هذا النحو يستبق الزعماء والأدباء ويتنافسون ويصطنعون المودة في نفوس الشبان يغروهم بكل أنواع الإغراء الممكنة . ثم ننظر فإذا في مصر جيش ضخم من الأدباء ، قد تألفوا جماعات ، وكونوا لأنفسهم مدارس على رأسها زعماء ، هم من قادة الفكر ، والمبدعين في الفن والمنتشئين للحياة الأدبية الجديدة . ولا بأس بأن يغلو الزعماء الأدباء في إرضاء الشبان من الأتباع والشيعه ، ومن أن يخيلوا إليهم أنهم يستطيعون أن يثقوا بطبائعهم الخصبه ومواهبهم النادرة ، وأن في المدارس إفساداً لهذه الطبائع وإضاعة لهذه المواهب ، وأن في الدرس المنظم تقييداً لحرية الفن . وويل للذين يقيدون حرية الفن ! فالفن لا ينبغي أن يتقيد بكتاب ، إلا كتب الزعيم ، ولا بأستاذ إلا الزعيم نفسه ، ولا بمدرسة إلا بيت الزعيم أو قهوته أو ناديه .

وكذلك يُصَرَّف جماعة من الشبان عن العلم ، ويغرون بالبطالة ، ويدفعون إلى الإنتاج الفج ، وإلى الغرور بهذا الإنتاج . وكذلك يكون لمصر جيل خطر من الأدباء ، وويل للأدب يوم تنهى أموره إلى هذا الجليل !

وفي الأمر ما هو أدعى إلى العجب والإعجاب من هذا كله . فما دامت هناك جماعات أدبية ومدارس فنية ، وما دام هناك زعماء لهم أتباع وأنصار وشيعة ، فما الذى يمنع أصحاب السياسة من أن ينتفعوا بهذا كله ، ولا سيما حين تعجزهم الظروف وتناهى بهم مذاهبهم السياسية وسيرتهم فى الحكم عن أن يصلوا إلى قلوب الشعب وعن أن يتخذوا لهم من أبناء الشعب أتباعاً وأنصاراً ، وشيعة مخلصين ، ولا سيما حين تعجزهم الظروف ، وتناهى بهم مذاهبهم وسيرتهم السياسية عن أن يستميلوا الكتّاب والشعراء الذين يستحقون هذا الاسم . أفتريد من أصحاب السياسة ألا يكون لهم أنصار من أصحاب الأدب ؟ وكيف يستقيم هذا ! وما غناء حزب سياسى ليس له كاتب ولا شاعر ولا أديب ؛ وإذا فقد يستطيع هذا الزعيم السياسى أو ذلك أن يدنو من هذا الزعيم الأدبى أو ذلك . وسائل الدنو كثيرة ، وأسبابها موفورة ، حين يكون الزعماء السياسيون مسيطرين على الحكم ، مستمتعين بما يبيحه الحكم لأصحابه من ثروة وجاه وسلطان . وكذلك تُعقَدُ محالقات بين الأدب وبين السياسة ، أو قل بين هذا الأدب المصوغ وهذه السياسة المصنوعة أيضاً . وقوام هذه المحالقات نشر الدعوة وتبادل المعونة . ونتيجة هذه المحالقات إفساد الخلق أولاً ، وإفساد الثقة ثانياً ، والإساءة إلى السمعة الأدبية لمصر ثالثاً ، وحمل الأمم العربية التى كانت تكبر مصر على أن تزدرىها وتزهدها فيها ، وتسخر من هذا اللغظ الكثير الذى يمتلئ به جوها المويوه .

ثم لا تنس أن تلاحظ هذه الظاهرة الغريبة فى هذا الجو الغريب . فما دام هناك تحالف بين سياسة متكلفة وأدب متكلف ، وما دام هناك توازن بين زعماء تلك السياسة وزعماء هذا الأدب ، فليس غريباً أن يقف الأدب من السياسة موقف الاستعطف والاستجداء ، إذا أبطأت السياسة بالمعونة أو تلكأت فى البذل ، أو بخلت بالتأييد . والواقع أن شغل السياسة كثير ، وأنه قد يصرفها أحياناً عن الأدب والتفكير فيه ، وقد يلهيها أحياناً عن هذه الجهود التى يبذلها الأدب سرّاً أو جهراً لمعونتها وتأييدها .

وإذا فليس على الأدب بأمن من أن يذكر السياسة بمكانه ، فيسعى إلى هذا الرئيس من رؤساء الوزارة ، أو يزور هذا الوزير من الوزراء ، ثم يلتقى بين يديه ألواناً من الشعر والنثر ، ويقدم إليه طاقات من المدح والثناء ، ويعرض هذه الجهود القيمة التى تبذل لتجديد الأدب وإحياء الفن ، ونشر الثقافة ورفع مكانة مصر بين الشعوب المتحضرة ، وأن هذا كله يحتاج إلى مال ، وأن هذا المال يستطيع الأدباء أن

ينفقوه ولكن بشرط أن يجدوه ، فإذا لم يجدوه فلا أقل من أن تعينهم به الحكومة كما تعين غيرهم من الناس . والحكومة لا تبخل بهذه المعونة ، فهي تعين بالمال حيناً وتعين بالوعد أحياناً . وإذا كان المال يعين على إرضاء الحاجات ، فإن الوعد يفتح أبواب الأمل ، ويعين على احتمال الحياة وأثقال الموم . وكذلك يعود تكسب الأدباء بالأدب في هذا العصر الحديث بعد أن كنا نظن أن التكسب بالأدب من غير الوجه الطبيعي قد ذهب وانقضت أيامه . فالأديب خليق أن ينشئ كتاباً أو ينظم ديواناً ، وأن يعرض ديوانه أو كتابه على الناس ليشتروه أو يهجره . والأديب خليق أن يلتبس من العمل ما يلتمسه الناس ، يعيش من عمله ويعيش من ثمن كتبه ودواوينه . ولكن الشيء الذي كان الأدباء يألّفونه قديماً وكنا نحن نضيق به ونحرص على أن يخلصوا منه ، هو أن يلتبس الأدباء حياتهم بالسؤال والاستجداء ، يلجئون إلى هذا الوزير أو إلى هذا الكبير ليعينهم على الحياة لأنهم أدباء ، كأنما الأدب أداة من أدوات العجز ، وسيلة من وسائل القصور . أو هم يبيعون الثناء بالمال فيمدحون ، ويمنحون ، أو هم يبيعون سكوتهم عن الذم بالمال ، فيذمون إلا أن يشتري صمتهم بالدرهم والدنانير ، أو بالبضائع والعروض . كل هذا كان ، وكل هذا كنا نحرص على ألا يكون . ويخيل إلى أنا كنا قد بلغنا مما نريد شيئاً لا بأس به ، ولكن الحقنة السياسية من ناحية والحقنة الثقافية من ناحية أخرى ، وهجوم الأعداء ، والقاصرين على الأدب من ناحية ثالثة ، كل ذلك جعل الكسب الأدبي شيئاً يسيراً مألوفاً في هذه الأيام . ويقال مع هذا إن الأدب يرقى ، وإن الحياة الأدبية تسرع في سبيل التجديد ، وإن الحياة الفنية تتكشف للناس عما يصلح العقل والقلب ، ويصني الطبع والمزاج . كلا ! إن حياتنا الأدبية في هذه الأيام موبوءة حقاً ، وإن الوباء الذي يفسد طبيعتها ويوشك أن يجعلها شراً خالصاً ، إنما يأتيها من ضعف الثقافة وضيقتها وقلة حظها من الغزارة والعمق ، ومن إقدام الجاهلين والمغرورين على ما لا ينبغي أن يوغل فيه جاهل أو مغرور .

النقد وأصول الحكم

ما يزال صديقي الأستاذ عوض حريصاً على أن ينظّم النقد تنظيمًا ، وبقيدته تقييداً ، ويجعل له صورة واضحة الشكل مرسومة الحدود . فالذين قرعوا فصله القيم الذي كتبه في هذا العدد من « الوادى » يرون أنه أخضع النقد لأصول الحكم ، وصور الحكومات ، فجعل نفسه ديمقراطياً ، وجعل الطناحي أرستقراطياً ، وجعلنى أنا من أصحاب الفوضى في الأدب . وأنا حريص كل الحرص على أن أكون من أصحاب الفوضى في الأدب ؛ لأننى لا أستطيع أن أتصور الأدب على غير هذا النحو ، ولا أستطيع أن أنتظر منه خيراً ، ولا أن أرجو له خصباً ، إلا إذا اعتمد على الحرية المطلقة التى لا تعرف حدّاً ولا قيداً ، ولا تخضع لنظام ولا قانون . ولكنى فى حاجة إلى أن أفهم الديمقراطية الأدبية على وجهها ، كما أنى فى حاجة إلى أن أفهم الأرستقراطية الأدبية على وجهها أيضاً . فقد نجيل إلى أن إطلاق مثل هذه الألفاظ على مثل هذا النحو يفسد معانيها إفساداً ، ويلقى فى عقول الناس صوراً مشوهة مختلطة من الأدب والنقد والديمقراطية والأرستقراطية جميعاً . وأكبر الظن أن هذه الألفاظ العامة المبهمة تلقى فى نفوس الناس فى هذه الصور المختلطة المشوهة هى التى تدعو الناس إلى الكسل وتغريهم بالتقصير ؛ لأنها تثير أمامهم مصاعب وعقبات ، لا يقدرّون على تذليلها ولا يبلغون ما وراءها ، فيكتفون بالنظر إليها ، ويحفظونها كما هى ، ثم يجرون بها أقلامهم ويطلقون بها السنتهم ويرسلونها فى الأندية والمجالس لإرسالها . فإذا سألتهم عما وراءها لم تجد طائلا ولا غناء . ولو أن الكتاب والنقاد والأدباء عامة حرصوا على تحديد الألفاظ والتدقيق فى اختارها ، والكشف الجلى الواضح عن معانيها لأراحوا القراء من عناء كثير وهم ثقيل . وما أظن أن الأدباء الذين ينشئون النثر فى أى فن من فنون الأدب وفى النقد خاصة ، ينفعون أو ينتفعون حين يرسلون الألفاظ لإرسالها فى غير تحديد ولا تحقيق ، إنما يقبل هذا من الشعراء ومن بعض الكتّاب الذين يذهبون مذاهب الشعراء ؛ لأن هذا النحو من إطلاق الألفاظ العامة المبهمة ، يثير نوعاً من

الجمال يلذ السمع والقلب والشعور ، فيه لذة لا يحفل بها العقل ، ولا يقف عندها ، فضلاً عن أن يسمى إليها .

فلندع إذاً للشعراء وأمثال الشعراء هذه الألفاظ العامة المبهمة ، ولنذهب مذهب الدقة والتحقيق حين نكتب في النقد وما يتصل به من فنون القول . وإذا فكيف تكون الأرسقراطية أو الديمقراطية في الأدب ؟ وأين تكون الأرسقراطية والديمقراطية في الأدب ؟ أتكون عند الأدباء الذين ينتجون ؟ أم تكون عند القراء الذين يستهلكون ؟ أم تكون عند الناشرين الذين يسعون ويتوسطون بين أولئك وهؤلاء ؟ فأما الأدباء الذين ينتجون فلست أعرف كيف ينظمون أنفسهم أو كيف ينظمهم غيرهم على نحو من هذه النظم المعروفة في السياسة . ذلك أن الأديب بطبعه حر ، حرّ حتى بإزاء إرادته الخاصة ؛ فهو لا يستطيع أن ينتج متى شاء ، وهو لا يستطيع أن ينتج كيف شاء ، وهو لا يستطيع أن ينتج ما يشاء ، وإنما هو رجل قوى الذهن ، واسع العقل ، خصب الخيال ، يحس ما حوله من الأشياء ويتأثر بها ، وإذا بعض ما يحس يملك عليه نفسه ويثير فيها آثاراً قوية تضطّره إلى أن يكتب أو ينظم أو يصور ما أحس على كل حال . ولست أزعّم أن إرادة الأديب ملغاة في إنتاجه إلغاء تاماً ، ولكني أزعّم أن تأثير الإرادة في هذا الإنتاج ضئيل جداً لا يكاد يذكر ، وأن المقدار اللاشعوري في إنتاج الأدب أعظم جداً من المقدار الشعوري . وقد يكون من السهل أو من الصعب أن تحلل حياة الأديب تحليلاً ، وأن ترد آثاره إلى مصادرها الأولى من مزاج الأديب وطبيعته ومن البيئة التي أحاطت به والعصر الذي عاش فيه ، ولكن هذا التحليل نفسه إن أتيح للباحثين من مؤرخي الآداب ، فهو دليل واضح على أن الأديب ، إلى أن يكون مجبراً في الأدب أقرب منه إلى أن يكون مختاراً . فالأديب إذاً حر بالقياس إلى الناس ، وهو حر بالقياس إلى نفسه أو إلى إرادته إن شئت التدقيق ، وهو حر إلى أبعد غايات الحرية . وهو من هذه الناحية متمرد لا يستطيع أن يخضع لنظام ولا أن يذعن لسلطان ، إلا سلطان هذا الشيطان الذي يلهمه ويوحى إليه ويدفعه إلى الإنتاج . قد يكون الأديب ديمقراطي المذهب ديمقراطي المزاج ، ديمقراطي البيئة ، ديمقراطي الوراثة ، فتصدر عنه آثار ديمقراطية أيضاً ، لأنها لا تستطيع إلا أن تكون ملاءمة لمصدرها . وقد يكون الأديب أرسقراطياً في هذا كله ، فتصدر عنه آثار أرسقراطية . وإذا اتصلت حياة « الفاشزم » وأثرت في الأجيال

كما اتصلت حياة الأرسقراطية والديمقراطية ، فلا بد من أن يوجد أدباء تصدر عنهم آثار تلائم هذا المذهب الجديد من مذاهب الحياة . وإذا فكيف يستطيع كاتب من الكتاب أو ناقد من النقاد أو صاحب سلطان مهما يكن أن يجعل النقد أو الأدب ديمقراطياً أو أرسقراطياً أو فاشياً أو بلشفيّاً كله ! ليس إلى ذلك سبيل ، وإنما السبيل إلى ذلك هي الفوضى . هي هذه الحرية المطلقة ، الحرية التي لا تعرف الطبيعة غيرها ، ولا ترضى الطبيعة سواها . الحرية التي تستمتع بها الشمس حين تضيء ، والنسيم حين يهب ، والزهرة حين تتأرجح ، والريح حين تعصف ، والرعد حين يقصف ، والبرق حين يضطرب في السماء . هذه الحرية هي سبيل الأدب ليس إلى تقييدها من سبيل . وإذا فكيف يمكن أن ينظم النقد كله على أنه ديمقراطي أو على أنه أرسقراطي ، أو على أنه ما شئت من هذه المذاهب التي يلهج بها أصحاب السياسة ويكثرون فيها الجدال والحوار ! ليكن صديقي عوض إذاً ديمقراطياً في أدبه، وليكن الأستاذ الطناحي أرسقراطياً؛ فقد يكون مزاجهما يلزمهما ذلك إلزاماً ، ولكن الشيء الذي لا أشك فيه أنهما لن يستطيعا أن يفرضا ديمقراطيهما أو أرسقراطيهما على الأدب والأدباء ، ولن يستطيعا أن يخرجوا الأدب نفسه من أن يكون حرّاً طليقاً يعتمد على الفوضى أكثر مما يعتمد على النظام ، بل تصلحه الفوضى وتملؤه خصباً ونفعاً ، ويفسده النظام ويضطره إلى العقم والجمود .

والقراء كيف يمكن أن يكونوا ديمقراطيين أو أرسقراطيين في الأدب والنقد ؟ أما أن كل قارئ يجب أن يستمتع بحريته المطلقة الخالصة التي لا حد لها فيما يقرأ أو قل في اختيار ما يقرأ من الكتب والصحف والمجلات ، فهذا شيء لا شك فيه ، ولكن الحق المقرر شيء ، والحق الواقع شيء آخر . فالأصل أن حرية القارئ المطلقة ، والواقع أن حرّيته مقيدة محدودة بقيود كثيرة وحدود ضيقة ، أيسرها وأظهرها أنه لا يستطيع أن يقرأ إلا ما ينشر له ويصل إليه ، وهو بعد ذلك حر في أن يختار بين ما ينشر له ويصل إليه . ولكن حرّيته هذه نفسها محدودة أيضاً بمحدود كثيرة شديدة الضيق ، أيسرها وأظهرها أنه إنسان يتأثر بما يتأثر به الناس . والإعلان من أشد الأشياء تأثيراً في نفوس الناس مهما يكونوا ، وإذا فالقارئ مقيد بالإعلان ، يكفي ألا يخرج من داره حتى يرى الإعلان عن كتاب ينشر أو قصة تمثل ، وألا ينظر في صحيفة حتى يرى الإعلان عن كتاب

ينشر أو قصة تمثل ليرى أنه مدفوع دفعاً قوياً إلى أن يقرأ هذا الكتاب أو يشهد هذه القصة . وكلما كان الإعلان ملحاً كان اندفاع القارئ شديداً . فإذا كان الإعلان صادراً من قوم يحسنونه ويفتنون فيه كان اندفاع القارئ أشد ، فإذا كان الإعلان صادراً عن رجل له مكانة بين الناس أو للناس به ثقة وحسن ظن كان اندفاعه لا حد له . وإذا فهذه الحرية المطلقة التي يقررها الحق للقارئ والتي نحلم بها جميعاً ليست في حقيقة الأمر مطلقة ولا بريئة من كل قيد .

وكما أن القارئ مقيد في اختيار ما يقرأ بهذه القيود ، فهو كذلك مقيد في الحكم على ما يقرأ . فاملاً الصحف ولوحات الإعلانات بالشئ على كتاب من الكتب ، وألح فيه ما وسعك الإلحاح ، وأنفق في ذلك ما استطعت إنفاقه من المال ، وثق بأن كثيراً من الناس سيسرعون إلى الكتاب وسيشترونه وسيقرءونه وسيرضى أكثرهم عنه ، وسيشفق الذين لا يرضون عن الكتاب من أن يعلنوا سخطهم مخافة أن يتهموا بالجهل أو بالغباء ، أو بالتحذق والغرور . فإذا استطعت أن تضيف إلى هذا الإعلان العنيف فصولا من كبار الكتاب الذين يحبهم القراء ويشقون بهم فأنت مطمئن إلى أن كتابك سيظفر بالفوز والتأييد إلى حين على أقل تقدير . وقد يظهر الرأي الصحيح في هذا الكتاب بعد أن تهدأ عاصفة النقد والإعلان ولكن هذا لا يؤثر فيما نحن بسبيله من أن القارئ لا يستطيع أن يكون ديمقراطياً في القراءة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، وإنما هو خاضع أشد الخضوع لطغيان الإعلان . ولعمري إنى لأؤثر إذا لم يكن بد من خضوع القارئ أن يخضع لطغيان ناقد أديب مثقف ممتاز الثقافة لا يطلب الطغيان ولا يتكلفه ولا يلح فيه ، على أن يخضع لهذا الطغيان المرذول الذي يفرضه الإعلان وما ينفق عليه من مال في غير صدق ولا نصح ولا إخلاص للقراء .

فديمقراطية القراء إذاً من هذه الناحية حلم من الأحلام ، كما أن أرستقراطيةهم وهم من الأوهام . وإذا فأين تكون الديمقراطية والأرستقراطية في الأدب ؟ ! أو أين يكون النظام الدقيق في الأدب ما دام لا يمكن تحقيقه عند الأدباء ، وما دام لا يمكن تحقيقه عند القراء ؟ ! إنما يكون النظام الدقيق عند الناشرين الذين يتوسطون بين الأدباء والقراء . ولست أدري ، بل ليس يعني أن يكون هذا النظام ديمقراطياً أو أرستقراطياً ، أو شيوعياً ؛ لأن الحق الواقع أنه نظام دقيق ، وأنه يقوم قبل كل شيء على رعاية مصلحة الناشر ورأس المال الذي يعتمد عليه ،

وعلى إهمال الأديب والقارئ التضحوية بهما في سبيل التنمية المسرفة الآتمة لرأس المال . ولكننا نبعد عن الموضوع الذي أردنا أن نكتب فيه إن أطلنا الوقوف عند الناشرين واستبدادهم بالمنتجين والمستهلكين جميعاً ، فلندعهم وما هم فيه من سلب ونهب ومن تضحوية بالأديب المنتج وعبث بالقارئ المستهلك . ولنرجع إلى النقد والأدب ، ولنسأل كيف يمكن أن يخضعوا خضوعاً عاماً شاملاً لنظام من نظم الحكم أو لصورة من صور الحكومات ؟ كيف يمكن أن يكونا ديمقراطيين أو أرسطقراطيين ؟ أو بعبارة أدق كيف يمكن أن يحكم فيهما الفن أو أن يحكم فيهما القراء ؟ ما زلت أنتظر أن ينبئني أصحاب الفن عن حكم الفن هذا كيف يكون ، بل عن الفن نفسه كيف يقرأ وكيف يلاحظ ، وكيف يقضى . وما زلت أنتظر أن ينبئني أصحاب الجمهور كيف يمكن حكم الجمهور في الأدب ؟ من هو هذا الجمهور ؟ وكيف يصدر عنه حكم متفق مع أنه هو مختلف أشد الاختلاف في الطبقة والبيئة والثقافة ؟

صدقوني أيها الزملاء أن من الإسراف أن تفرضوا النظام على كل شيء . فدعوا الأدب حراً طليقاً ، كما أراد الله له أن يكون . ليكتب من شاء ما يشاء . ولينتقد من شاء ما يشاء كما يشاء ، فلا حياة للأدب إلا بهذا . ولندع للطبيعة نفسها الذهاب بما لا خير فيه واستبقاء ما ينفع الناس ؛ فقد تكون الطبيعة أقدر من الفن وأقدر من النقد وأقدر من الجمهور على هذه التصفية . وأنا أعلم أنك ستسألني عن الطبيعة ما هي ؟ فأجيبك بأنها هي مجموعة من المؤثرات الظاهرة والخفية التي نعرفها والتي لا نعرفها ، والتي تعمل سواء أردنا أم لم نرد على تحقيق ما قال الله عز وجل : « فإما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » .

في الضمير الأدبي

جذوة مضطربة يختلف عليها الليل والنهار ، وتتعاقب عليها الفصول ، وتثور من حولها العواصف ، وتتباين من حولها الظروف ، وهي متوقدة متوهجة ، لا يعرف الخمود ولا الضعف إليها سبيلاً ، هذه الجذوة الخالدة القوية التي لا يخمدها إلا الموت ، إن كان الموت يستطيع أن يخمدها - وأكبر الظن أنه لا يستطيع ذلك ، لأن الموت لا يفنى شيئاً ، وأن هذه الجذوة ، تنتقل من حيز إلى حيز ومن مكان إلى مكان - هذه الجذوة الخالدة التي تستعصي على الفناء هي عندى الصورة الصادقة لضمير الأديب الذي يستحق هذا الاسم . هي قوية لا تعرف الضعف مهما تكن الظروف التي تكتنفها ، والخطوب التي تلم بها ، والهموم التي تصب عليها صباً. خذ أديباً خليفاً بهذا الاسم وادرس حياته الأدبية وحياته المادية والظروف التي أحاطت بهذه وتلك ، فسرى أن جذوته هذه قد ثبتت للخطوب جميعاً ، واستعصت على الأحداث جميعاً ، واستغلت الظروف جميعاً في سبيل بقائها وتوقدها وصفائها وإنتاجها المتصل . تلبس الحياة لهذا الأديب ، وتواتيه الظروف ويتاح له خفض العيش ، وتبسم له الأيام ، فإذا هو ناعم راض مبتهج قوى الأمل ، ولكن شيئاً من هذا كله لا يبطره ولا يطغيه ، ولا يصرفه عن الأدب ولا عن الإنتاج فيه ، إنما هو الأديب دائماً ، المختلف دائماً إلى معبد « أبسولون » المستخرج دائماً من هذا المعبد خير ما فيه من آيات الأدب والحكمة والفن . لا ينخدع بزخرف الحياة ، ولا يطمئن إلى لين العيش ، ولا يكتفى بما أتيج له من نعم ، وإنما يتخذ هذا كله وسيلة إلى إذكاء جذوته وتصفيتها وتنقيتها وتمكينها من أن تنتج ، ومن أن تمس أكبر عدد ممكن من الناس ، ومن أن تتعمق أكبر عدد ممكن من مشكلات الحياة . وقد تقسو الحياة عليه وتتنكر له ، وتنصب الظروف له أشنع الحرب ، وتعرض الآمال عنه إعراضاً ، وتنسج الدنيا له من الكيد والمكر والعدوان شبكاً تأخذه من كل مكان فلا يتقدم إلا رأى شراً ولا يتأخر إلا رأى شراً ، ولا يسكن إلا أحس همّاً ، ولا يتحرك إلا أحس همّاً ، وهو مع ذلك أديب لا يصرفه الشر

المتصل والنكر الذى لا ينقطع ولا الخطوب المتلاحقة ولا الهموم الثقال عن أدبه ولا عن جذوته هذه ، إنما هو دائم العكوف عليها مستمر التذكية لها ، يستغل قسوة الحياة لذلك كما يستغل لينها ، ويستفيد من اليأس كما استفاد من النعم ، وينتفع بالشقاء كما انتفع بالسعادة ، ويبلغ بجذوته هذه أن تمس أكبر عدد ممكن من الناس ، وأن تتعمق أكبر عدد ممكن من مسائل الحياة ، وأن تثير أكبر عدد ممكن من هذه العواطف الخفية التى ينطوى عليها قلب الإنسان الأديب الخليق بهذا الاسم . حركة دائمة وحياة متصلة وإنتاج لا ينقطع ، ينتج حين تمسه السراء ، وينتج حين تمسه الضراء ، ينتج حين يكون قوياً في ظاهر الحياة ، وينتج حين يكون ضعيفاً في ظاهر الحياة ، لأنه قوى دائماً . ينتج وهو حى وينتج بعد أن يموت ، لأن جسمه هو الذى يموت ، ولأن ملكاته المتصلة هى التى تموت ، فأما حياة ضميره الأديب ، فأما جذوته المتقدة ، فأما حياة عقله وقلبه ونفسه ، فهى باقية أبداً . لا يموت حتى يسلم اللواء إلى من يحمله ، وحتى يلقى فى الآفاق من آرائه ومعانيه وخواطره ومذاهبه ما يؤتى أثماراً تتبعها أثمار ، ويحيى نفوساً تنتقل منها الحياة إلى نفوس . وهو كذلك حى دائماً ما عاش الناس ، باق دائماً ما بقى فى الأرض قلب يشعر وعقل يفكر ، وإنسان قادر على الفهم والذوق والإنتاج .

خذ من شئت من الأدباء الذين يستحقون هذا الاسم على اختلاف آجالهم وبيئاتهم وأزمانهم ، وادرس حياتهم قبل أن يموتوا ، وادرس حياتهم بعد أن ماتوا ، فهم أحياء بعد الموت . وحدثنى أترى فى هذه الحياة ضعفاً ، أم ترى فى هذه الحياة فتوراً ، أم ترى فيها ذبولاً واستعداداً للفناء ؟ كلا ! إنما هى القوة المتصلة ، والخصب المتصل ، والإنتاج الذى ليس إلى انقطاعه سبيل . كم مضى على هوميروس ، أو على الهومييريين من قرون ، وكم اختلفت على آثارهم الظروف والأهم والأجيال ، وهذه الآثار مع ذلك باقية تقرأ وتحى النفوس ، وتثير العواطف وتدعو إلى الإنتاج القيم ، الذى يختلف فى صورته وأشكاله وفى أغراضه وآياته وفى موضوعاته أيضاً ، ولكنه ينتهى دائماً إلى أصل واحد ، هو هذه الجذوة القوية المضطربة التى لم تخمد بعد ، والتى أنتجت الإلياذة والأوديسا أو ما يتصل بهما من القصص والأساطير . وخذ من شئت غير الهومييريين من أدباء الرومان أو من أدباء العرب أو من أدباء الفرنجة فى العصور الوسطى وفى هذا العصر الحديث ، فستراهم أحياء ، وسترى

أن حياتهم أقوى وأنفع ألف مرة ومرة من حياة أمثالك وأمثالي من الذين يضطربون في الأرض ، ويتحدثون إلى الناس ويجادلون فيما يثور من المشكلات. فليس من شك في أن انتفاع الناس الآن بآثار هوميروس وأمثاله ، وتحدثهم عن هذه الآثار ، واستغلالهم لها ، واستعانتهم بها على إنشاء النثر ونظم الشعر ، أكثر ألف مرة ومرة من انتفاعهم بما ينتج الأدباء الأحياء، مهما يكن شأنهم مرتفعاً، ومهما يكن صوتهم بعيداً ، ومهما يكن استعدادهم للخلود قوياً . فالجلدة الأدبية إذاً تمتاز بقدرتها على البقاء ، وبأن طول العهد بها لا يزيد لها إلا قوة، وبأن اختلاف الأحداث عليها لا يزيد لها إلا اضطراباً وانتشاراً .

إذاً فليس أديباً حقاً من يزعم أنه قادر على أن يفارق الأدب ، ويخمد جذوته في نفسه ، أو هو أديب ولكنه لا يعرف نفسه ولا يقدر طاقته ، ولا يفرق بين ما يستطيع وما لا يستطيع . وإذا رأيت رجلاً يتحدث الناس عنه أنه أديب ، ويتحدث هو عن نفسه أنه أديب ، ثم يتخلف فجأة عن حياة الأدباء وعن الإنتاج الأدبي ، وينصرف إلى أشياء ليست من الأدب في شيء ، فاعلم أنه ليس أديباً ، وإنما خلد عن نفسه ، أو خلد الناس عنه ، ثم تبين له الحق ، أو تبين للناس الحق في أمره ، فعاد إلى ما يلائمه ، وعاد الناس في أمره إلى الصواب .

وإذا رأيت أديباً ينتج ما استقامت له الحياة وواتته الظروف واتصل عليه النعيم ، فإذا اعوجت به الطريق ، أو نبت به الظروف ، أو سلط عليه البؤس ، لم يصنع شيئاً ، وإنما ضعف وأدركه الوهن ، وحيل بينه وبين الحصب المنتج المفيد ، فهو ليس أديباً خليقاً بهذا الاسم ، تستطيع أن تسميه بما شئت من الأسماء ، وأن تخلع عليه ما أحببت من الأوصاف ، إلا أن تزعم له أنه أديب .

أتعرف هؤلاء الشعراء الذين يستمتعون بالحرية فيتغنون ، ويُرَجَّجون في أعماق السجون فيتغنون ، والذين يستمتعون بالنعيم فيتغنون ، ويضطرون إلى البؤس والجوع والحرمان فيتغنون ؟ هؤلاء شعراء حقاً وأدباء حقاً ! لأن أخص ما يمتاز به الشاعر أو الأديب هو أن جذوته مضطربة دائماً ، وضميره حي دائماً ، وقلبه مرآة لكل شيء ، وملكته الإنشائية مصورة دائماً لكل ما يرتسم في هذه المرآة . فإذا رأيت رجلاً تعجبه الحياة فيتغنى ، فإذا ساءت آثر الصمت أو اضطرت إليه ، فهو أديب منقوص ، أو شاعر منقوص ، فكيف بك إذا رأيت هذا الرجل الذي يسلط إرادته على أدبه ، فينتج حين يريد ، ويكف عن الإنتاج حين يريد ، ويتصرف

في الأدب كما يتصرف في غيره من هذه الأشياء التي يتصرف الناس فيها أحراراً ؟ هذا الرجل ليس أديباً ، وإنما هو صانع ، وإنما هو متكلف ، وإنما هو عامل من العمال ، ومن العمال الذين يتخذون العمل وسيلة إلى الحياة ، لا وسيلة إلى إرضاء طبيعتهم المشغوفة بالفن ، المفطورة على حبه ، المكروهة على أن تتصل به ، مهما تكن الظروف .

والأديب الذي يستحق هذا الاسم قد تختلف آراؤه وميوله ، وقد تتباين عواطفه وأهواؤه ، وهو قد يرضى ، وقد يسخط ، وقد يرضى عن شيء ، ويسخط على هذا الشيء نفسه ، وقد يحب إنساناً ثم يبغضه ، وقد يحب شيئاً ثم يكرهه ، ولكن شيئاً من هذا لا يؤثر في ضميره الأدبي ولا يؤثر في تقديسه للأدب ورفعته فوق كل شيء ، وفوق كل ظرف ، وفوق كل عاطفة أو هوى . فالأدب عنده ليس وسيلة ولا أداة ، وإنما هو الغاية والغرض ، وهو الشيء الذي من أجله خلق ، ومن أجله عاش ، ومن أجله يجب أن يموت . فإذا رأيت رجلاً يتنذل الأدب ابتداءً ويمتنه امتناناً ، ويبيع مذهبه الأدبي في السوق ، فيميل به إلى اليمين إن راجت السوق نحو اليمين ، ويميل به إلى الشمال إن راجت السوق نحو الشمال ، ويقف به موقف الحائر المنتظر حتى يتبين من أين تهب الريح وإلى أين تريد أن تمضي لاتباعها ، فليس هذا الرجل أديباً ، وليس هذا الرجل مستمتعاً بهذا الضمير الأدبي الذي يتيح لأصحابه القوة والخلود ، وإنما هو تاجر يحمل طائفة من السلع والعروض يريد أن يفيد منها ما يتاح له من الربح ، فيوفق حيناً ، ويخطئه التوفيق في كثير من الأحيان .

والضمير الأدبي الصحيح صُلْبٌ لا يعرف المرونة ، ماضٍ لا يعرف التردد ، قاسٍ لا يعرف ليناً . ترى الأديب يتلون في أشياء كثيرة ، ولكنه لا يتلون في الأدب . تراه يفرط في أشياء كثيرة ، ولكنه لا يفرط في الأدب . تراه يساوم في أشياء كثيرة ، ولكنه لا يساوم في الأدب ، لأنه يستطيع أن يمس الأدب بتلون أو تفريط أو مساومة . انظر إلى هذا الشاعر قد اتخذ لنفسه هذا المذهب في الشعر ، أو فرض هذا المذهب على نفسه فرضاً ، فهو يتصور على هذا النحو دون ذلك ، وينظم على هذا النحو دون ذلك ، ويتغنى على هذا النحو دون ذلك . قد تختلف عليه الأحداث ، وتلم به الملمات ، ويمتحن في حياته ما شاء الله من ضروب الامتحان ، ولكنه لن يغير مذهبه في الشعر ، ولن يتحول عن أسلوبه في النظم ،

ولن يميل عن طريقته في الغناء ، إلا أن يكون هذا التحول نتيجة طبيعية للتطور الفني الذي لا بد منه ، فأما أن يبيع مذهبه بمذهب آخر ، لأن الناس يريدونه على ذلك ، فأما أن يغير أسلوبه في النظم لأن أسلوبه القديم لا يرضى الناس ولا يوافق أهواءهم ، فأما أن يميل عن طريقته في الغناء إلى طريقة أخرى لأن طريقته لا تلائم ذوق الناس ، فهذا شيء لا سبيل إليه ؛ لأن الأديب الخليق بهذا الاسم لا يفكر في الناس ولا يحفل بهم ، ولا يقف عندما يريدون وما لا يريدون ، وإنما يفكر في الأدب وحده ، ويحفل بالأدب وحده ، ويقف عند ما يريد الأدب وحده .

الأديب هو أصدق صورة للرجل المحبر الذي لا رأى له ولا إرادة ولا اختيار فيما ينتج من الآثار الأدبية الخالصة ، هو أشبه شيء بالأداة التي توجهه ، وهي لا تعرف كيف توجهه ، وأشبه شيء بالمرآة التي تتلقى الصور وهي لا تعرف كيف تتلقاها ، وأشبه شيء بالرجل الملهم الذي يأتيه الوحي وهو لا يعرف كيف يأتيه ولا من أين يأتيه ، هذا هو الضمير الأدبي الذي يتيح لأصحابه البقاء ، ويتيح لهم أن يكونوا أئمة للناس وقادة للحضارة .

فأما هذه الضمائر الضعيفة الفاترة التي لا تعرف ثباتاً ، ولا تقدر على مقاومة ، ولا تحس استقراراً ولا استمراراً ، فلست أدري ما هي ، ولكني أعلم حق العلم أنها ليست ضمائر أدبية ، وإنما هي ضمائر تستطيع أن تسميها بما شئت من الأسماء وأن تصفها بما أحببت من الأوصاف .

ولعلك تسألني : فيم كل هذا الكلام ؟ وفيم كل هذا التفصيل ؟ وأظن أنني لست في حاجة إلى أن أجيب ولا أن أطيل الجواب ، وإنما يكفي أن تنظر في الأدب المصري الحديث ، وفي الأدباء المصريين المحدثين ، وأن تسأل أين يكون الضمير الأدبي الصحيح من هذا الأدب ومن هؤلاء الأدباء ؟ أين يكون هذا الأديب الذي يرفع أدبه عن الظروف ويرقى به فوق الأحداث ، ويمتنع به عن الضمير ، ويأبى أن يجعله تجارة ، وأن يساوم فيه كما يساوم التجار ؟ أين يكون هذا الأديب الذي لا يفكر في الناس قبل أن ينشئ ، ولا يسأل عما سيقول الناس قبل أن ينتج ، ولا يقدر عواقب آثاره الأدبية قبل أن يلديعها في القراء ؟ أين يكون الأديب الذي لا يقوم أثره الأدبي بالدرهم والدنانير قبل أن يكتبه وقبل أن يخرج منه ؟ أين يكون هذا الأديب الذي لا يسعى إلى الشهرة وإنما تسعى الشهرة إليه ، والذي

لا يطلب الرضا وإنما يطلبه الرضا ، والذي لا يخاف الخمول ولا يكره الانزواء ، ولا يشفق من الغضب والخطر ؟ أين هذا الأديب الذى لا يرضى صحبة الأديب إلا أن يكون الأديب صاحباً مأموناً لا يعرض لخطر ولا يثير خوفاً ، ولا يهيج غضب السلطان أو اتباع السلطان ، ولا يحول عنه رضا الناس ولا يحول عنه قروش الناس بنوع خاص ؟ ثم أين هذا الأديب الذى ينتجه فى مصر مثل هذا الأديب ؟ تستطيع أن تبحث عن هذا الأديب ، وأن تبحث عن ذلك الأديب ، وأن تلتمس الضمير الأدبى الصحيح الذى يؤمن بالمبدأ الأدبى كما يؤمن الرجل النقى بمبدئه الدينى ، وأظنك لن تخالفنى فى أن هؤلاء الأدباء فى مصر قليلون جداً ، وليسوا فى حاجة إلى الإحصاء ، لأنهم يحصون أنفسهم بأنفسهم ، وفى أن الآثار الأدبية التى تصدر عن هذا الضمير الأدبى الحى قليلة جداً ليست فى حاجة إلى العد لأنها تعد نفسها ، وفى أن مصر ستظفر بالحياة الأدبية الصالحة التى ترفع مكانها بين الأمم الراقية بالأدب حقاً يوم يقوى الضمير الأدبى فى أديائها ، ويوم يستطيع أن يسيطر سيطرة صحيحة على نفوس كثير من الكتاب وكثير من الشعراء ، فلا ينشئون ولا ينظمون إلا عن يقين وصدق وإيمان .

ولا تقل إنى سبى' الرأى ، ولا تقل إنى متشائم ، فقد يكون هذا حقاً ، ولكن ما رأيتك فى أن سوء الرأى وفى أن التشاؤم فى مثل هذه الموضوعات أساس من أسس النهضة الصحيحة ، وفى أن حسن الرأى غرور ، وفى أن التفاؤل عجز ، وفى أن النقد والنقد الصارم الحازم ، الذى لا يمهل ولا يهمل ، ولا يجامل ولا يصانع هو من أجل هذا ضرورة من ضرورات الحياة الأدبية فى مصر الآن !

بين الدين والعلم والأدب والإحسان

وما رأيك أيها القارئ الكريم في هذا العنوان الطويل الذي لا يكاد ينقضى ، وفي هذا العنوان الطويل يصدر عن كاتب تعود أن يختار عنوانه قصيراً معماً في القصر ، لا يتجاوز به الكلمة في أكثر الأحيان ، ولو استطاع أن ينزل به عن الكلمة لفعل ، ولو استطاع أن يجعل عنوانه رمزاً يحس ولا يقرأ لكان بذلك مغتبطاً وله مؤثراً . ولكنه مع ذلك قد آثر في هذا اليوم أن يكون عنوان حديثه طويلاً كليل الشتاء ، أو كشمس الصوم ، أو كعقوب تلك الفتاة التي أنشد فيها بعض العلماء :

نُبِّشْتُ أَنْ فَتَاةً كُنْتُ أَحْطَبُهَا عَرَقُوبَهَا مِثْلَ شَهْرِ الصَّوْمِ فِي الطَّوْلِ

والعنوان ليس طويلاً فحسب ، ولكنه مختلف شديد الاختلاف ، مركب شديد التركيب ، فيه الدين ، وفيه العلم ، وفيه الأدب ، وفيه الإحسان . وهو بهذا كله يخيل إلى من يقرؤه أني سأعرض لموضوعات شائكة معضلة لها خطرها الذي لا يشبهه خطر . وهو يثير في نفس من يقرؤه شوقاً إلى القراءة واستعداداً للجدال والنضال ، وتأهباً للحرب والقتال ؛ فما ينبغي أن يتحدث كاتب هذا الفصل عن الدين والعلم ، إلا إذا كان يريد أن يقول شيئاً عظيماً ، أو يحدث حدثاً خطيراً ، أو يُقَدِّم على أمر ذي بال . وما ينبغي أن يتحدث كاتب هذا الفصل عن العلم والأدب إلا وهو يريد أن يعرض لموضوع سيحفظ قوماً ، وسيرضى قوماً ، وسيثير بين أولئك وهؤلاء حرباً شعواء . والإحسان ما موقعه من الأدب ؟ وما موقعه من العلم إن فهم موقعه من الدين ؟ أيريد كاتب هذا الفصل أن يكون ناقداً ؟ أيريد أن يكون واعظاً ؟ أيريد أن يكون فيلسوفاً ؟ أم يريد ماذا ؟ أسئلة سيثيرها هذا العنوان الطويل المركب في نفوس كثير من الناس إذا قرعوه . وأنا حريص على ألا يطول انتظارهم للجواب ، فلأسرع إليه إذاً ، ولأنبيهم بأني لا أريد ثورة ولا أبتغي انقلاباً ؛ وحسب مصر أن يثور فيها « صدقي » وأتباعه ،

وحسب مصر أن يحدث فيها الانقلاب السياسي إثر الانقلاب السياسي . وخير للأدباء في هذه الأيام أن يرفقوا بالناس ، وهم مع الأسف ومع السرور يرفقون بهم ، فلا ينتجون أو لا يكادون ينتجون شيئاً خليقاً أن يحدث ثورة أو اضطراباً . لأريد إذاً أن أقدم على أمر عظيم ، ولكني مع ذلك اخترت هذا العنوان لأنني لم أجد من اختياره بدءاً ، فوضوعه يقتضى هذا الاختيار . ولأفرض أني تلميذ يبي موضوعاً من موضوعات الإنشاء ، فهو يريد أن يبين عناصر هذا الموضوع كما يقولون ليكون ما يكتبه منظماً يصور عقلاً منظماً أو أخذاً في سبيل النظام ، فلأبين إذاً عناصر هذا الموضوع الإنشائي الذي أردت أن يكون حديث الأربعاء في هذا اليوم .

فالجمعية الخيرية الإسلامية هي العنصر الأول من عناصر هذا الموضوع . والمصريون جميعاً يعرفون الجمعية الخيرية الإسلامية ، يعرفها الفقراء لأنها تعينهم أنواعاً مختلفة من المعونة : تعلم أبناءهم ألواناً من العلم ، وتتيح للمحرومين منهم أن يهتموا بالحياة . ويعرفها الأغنياء لأن كثيراً منهم يعينها على مروءتها ، يعينها بالمال ويعينها بالجهد ، ويعينها بالإخلاص ، ويعينها بهذا الجزء الذي يكمل به نفسه الإنسانية ، وهو حب الإحسان . ويعرفها التلاميذ الذين يختلفون إلى مدارسها ، ويعرفها المعلمون الذين يؤدبون هؤلاء التلاميذ ، ويعرفها المعوزون الذين يستعينون بها على استقبال رمضان ، ويستعينون بها على التهيؤ لاستقبال الأعياد ، ويستعينون بها على الدفع إذا كان الشتاء ، وعلى التبليغ إذا تراءت لهم أشباح الجوع . ثم يعرفها هؤلاء الذين كانوا أغنياء فأدركهم الفقر ، ولكنهم يريدون أن يكونوا كراماً ، فتعينهم على أن يكونوا كراماً . ثم يعرفها الطلاب في الجامعة وفي المدارس العليا ، لأنها تعين بعضهم على استكمال حظه من التعليم العالي . ثم يعرفها سكان مصر جميعاً من المصريين والأجانب ، لأنها قديمة العهد بالوجود ، قد كادت تبلغ عيدها الفضي ، وهي تظهر للناس في كل عام في أقوى مظهر وأرقاه وأروع حين تقيم حفلها السنوي الذي ستقيمه غداً . ويقال إن دار المنسوب السامي تعرفها أيضاً ، ويقال إنها تبرعت لاحتفال الغد بشيء من المال ، لأن الإحسان فضيلة تزدان بها الديانات جميعاً ، وتزدان بها الوطنيات جميعاً ، وتجعل الإنسان إنساناً . فهذا هو العنصر الأول من عناصر موضوع الإنشاء . وأظنني قد بينته في غير لبس ولا غموض .

وأما العنصر الثاني فهو علماء الدين ، وعلماء الدين الإسلامى الكريم الذى لا يعرف الناس ديناً يشبهه فى العطف على الفقير وإيثار البائس بالرحمة والبر ، وجعل الصدقة ركناً من أركانه فرضها على القادرين فرضاً ، واتخاذها أداة صالحة منتجة لتحقيق عدل الله فى الأرض ، ولتحقيق التوازن بين الطبقات ، ولتحقيق الحب بين الأغنياء والمحرومين ، ولصيانة النظام الاجتماعى من الاضطراب والفساد ، ولتطهير النفس الإنسانية من أدران الأثرة والحرص والتهاك على المنفعة . وعلماء الإسلام هم حماة ودعاته ، وهم حفظته وناشروه ، وهم قدوة الناس فى الائثار بما يأمر به من معروف والانتها عما ينهى عنه من منكر ، وفيهم الأسوة لمن أراد الأسوة ، وفيهم المثال لمن ابتغى المثال . وهم مصابيح الظلام ، وهم الهداة إلى الحق والهداة إلى الخير ، وهم أزهّد الناس فى أنفسهم ، وأحب الناس للناس . وهم أبغض الناس لأعراض الدنيا ، وأحب الناس لثواب الآخرة . وهم رسل الرحمة فى الأرض ، وهم قادة الناس إلى السماء .

فهذا هو العنصر الثاني من عناصر الموضوع الإنشائى . فأما العنصر الثالث فهذه البطاقات التى توزعها الجمعية الخيرية فى كل عام على الناس تدعوهم بها إلى أن يشهدوا حفلها العام ، أو قل تدعوهم بها إلى أن يدفعوا ثمنها صدقة تطهرهم وتزكّيهم وتعين الفقراء على احتمال الفقر ، وتعين المحسنين على المضى فى الإحسان . والأصل فيمن انتهت إليه هذه البطاقة أن يؤدى ثمنها مضاعفاً إن كان غنياً ، وغير مضاعف إن لم يكن غنياً . فإذا أدى هذا الثمن فالأصل أن يشهد الحفل إن استطاع شهوده ، فإن لم يستطع فليس عليه من ذلك بأس . والناس جميعاً يعلمون هذا ولا يختلفون فيه . وهذه البطاقات توزع فى كل عام على أفراد الناس وجماعاتهم ، وعلى مصالح الدولة ودواوينها ، وأهل الخير يتطوعون بالتوزيع كما يتطوعون بالبذل . فهذا هو العنصر الثالث من عناصر الموضوع . ولهذا البطاقات قصة يجب أن تُقصّ ، ولكن لا أقصها إلا لتفكر فيها وتتفجع بها . وسرى أنها خليقة بالتفكير قادرة على النفع . فقد صدرت خمس بطاقات عن لجنة الحفل ، أو قل عن رئيس هذه اللجنة ، وهو رجل كريم من كبار الموظفين ، وقيل لهذه البطاقات : اذهبي راشدة إلى صندوق البريد ، ثم اذهبي راشدة إلى الإسكندرية ، ثم اذهبي راشدة إلى المعهد الدينى فى المدينة ، ثم استقرى هناك وأرسلى إلى الجمعية ثمنك يسيراً ولكنه مبارك . فليس الجنيه

الذى يجمع من علماء الدين على قلته وضالته كثات الجنيات التي تجمع من غير رجال الدين على كثرتها وضخامتها . هو حنيه كله خير وبر ، فيه البركة كلها ، وفيه الخصب والنماء . اذهبي أيتها البطاقات الخمس راشدة إلى شيخ العلماء في الإسكندرية ، فاقرئي عليه تحية الفقراء وألتي إليه سلام البائسين وقولي له إنهم ينتظرون . وخرجت البطاقات من عند رئيس اللجنة الكريم نشيطة شديدة النشاط ، فرحة عظيمة الفرح ، تكاد تنطق لتبين عما يملؤها من الفخر . وما بالك ببطاقات خمس تذهب إلى شيخ من شيوخ الدين لتأخذ منه الصدقة لفقراء المسلمين ! ثم أصبح رئيس اللجنة الكريم ذات يوم ، وإذا غلاف يدفع إليه ، فيفضه فيرى ؛ ويأشر ما يرى ! يرى البطاقات الخمس قد عادت إليه حزينه كثيية كاسفة البال ، تريد أن تشكو فلا تستطيع أن تشكو ، لا لأنها بطاقات لا تبين ، بل لأن الحزن قد حال بينها وبين الشكوى ، فأفهم قلبها إن كان للبطاقات قلوب ، وعقد لسانها إن كان للبطاقات ألسنة . لقد طرقت باب الشيخ فلم يُفْتَحْ لها ، وألحت في الطرق ، وصبرت وصابرت ، وتمثلت قول الشاعر القديم :

أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا
ولكن صبرها لم يغن عنها ، ولكن إدمانها للقرع لم يجد عليها ، وإنما
رُدَّتْ رداً عنيفاً ، وانتهرت انتهاراً قبيحاً ، وقال لها القائلون : عودي من حيث
أتيت فإننا عنك مشغولون بالعلم والدين ؛ حاولت البطاقات أن تقنع فلم تقنع
أحدأ ، وحاولت البطاقات أن تُسْمِعَ فلم تسمع أحدأ ، وحاولت البطاقات
أن تمس القلوب فحيل بينها وبين القلوب ، وحاولت البطاقات أن تثير الحياء ،
فحيل بينها وبين الحياء ؛ قالت البطاقات فلإني استحيي أن أنبي الفقراء بهذه
الحيية ، وأن أعتذر إليهم من هذا الإخفاق . قال القائلون : لا بأس عليك ،
فسنعفيك من هذا الحياء ، وسنريحك من هذا الاعتذار ، احملي إلى مرسلك
عنا هذا الكتاب :

« حضرة صاحب السعادة المفضل

نعيد لسعادتك مع هذا التذاكر الخمس الواردة بكتاب الجمعية رقم ٤١
و ١٢ برسم صاحب الفضيلة الشيخ محمد الشافعي الظواهري ، للعلم بأن فضيلته
مشغول والعلماء بأعمال الدراسة في ليلة حفلة الجمعية ، ولا يمكنهم التخلف
عنها في ذلك التاريخ .

سكرتير المعهد

وتفضلوا . . . »

وأقبلت البطاقات الخمس تسعى على استحياء ، تقدم رجالاً وتؤخر أخرى ، ثم رفعت الكتاب مستخذية إلى رئيس اللجنة . فلما قرأه رق لها وعطف عليها ، وتحدثت إليها بجديث طويل طيب خاطرها ، كما يقول الناس . ثم قال لها : اذهبي راشدة أيتها البطاقات الخمس إلى دار الفقراء مبتسمة راضية ، واحلى إليهم ثمنك هذا يسيراً ولكنه مبارك ، لأنه يصدر عن قلب مخلص للفقراء ، يحبهم ويعطف عليهم ، ويريد لهم الأمن والدعة والأمل الواسع العريض . اذهبي راشدة أيتها البطاقات الخمس إلى دار الفقراء فاحلى إليهم هذا الجنيه الذى لم تمسه يد شيخ مبارك ، ولم يخرج من مال عالم من علماء الدين ، ولم يفكر فى إرساله رأس عليه العامة الضخمة ، ولم يأمر بإرساله لسان يتردد بهذه الألفاظ التى تتردد بها ألسنة رجال الدين ، وإنما هو جنيه متواضع يسير ، يهديه إلى الفقراء رجل متواضع يتخذ الطربوش ، ولا يختلف إلى المقابر والأضرحة ، ولا يطيل الكم ولا يتحرج فى القول ، ولا يتحرج فى الحركة ، ولا يتحذق فى الغيرة على الدين ، وإنما هو رجل مؤمن قد أخلص دينه لله ، واتخذ رضا الفقراء وسيلة إلى رضاه .

قال ذلك ثم وضع البطاقات فى غلاف ووضع معها جنيهاً وقال لها : اذهبي راشدة ولا تحزنى . فمن يدري ! لعلك بعد أن تؤدى ثمنك هذا إلى الفقراء أن تُدْفَعى إلى قوم مخلصين فيؤدوا ثمنك مرة أخرى ، فيكون الله عز وجل قد ضاعف بك فضله على الفقراء ، وعزأك عن خيبة الأمل أحسن العزاء . فهذا عنصر آخر من عناصر الموضوع . أتريد أن أمضى فى بيان هذه العناصر ، أم يكفيمك ما قرأت ؟ أما أنا فإن الحزن يملأ قلبي ، ويصرفنى عن التفكير والإملاء . ولكنى أسأل نفسى وأريد أن تسأل نفسك ، وأظن أن البطاقات قد سألت نفسها : أكان ردها خائبة من الإسكندرية ناشئاً عن اشتغال رجال الدين بالعلم والدين ، أم كان ناشئاً عن إيثار رجال الدين للمال ، أم كان ناشئاً عن مذهب سياسى يجعل معونة الجمعية الخيرية الإسلامية شيئاً لا ينبغي لرجال الدين أن يخفوا له أو يقبلوا عليه ؟ فقد يقال إن بطاقات أخرى أرسلت إلى المعاهد الدينية الأخرى فعادت خائبة !

أفلمح فى هذا أيضاً آثار الأبراشى باشا ؟ !

نزاهة الأدب

في مصر الآن قضية سياسية خطيرة يسميها الناس « قضية نزاهة الحكم » . وقد أخذت اسمها هذا من عنوان بعض المقالات التي أثارها حين نشرت في « السياسة » نقداً لبعض الوزراء .

وأظن أن من الممكن ، بل من الخير ، بل من الواجب . أن تثار من حين إلى حين في الأدب قضية تشبه هذه القضية ، في الاسم على أقل تقدير ، فتسمى « قضية نزاهة الأدب » .

لست أدري إلى من ترفع هذه القضية . بل لست أرى ضرورة لأن يكون هناك قاض بعينه ترفع إليه الخصومة ليقتضى فيها . فقد يجوز أن ترفع القضية إلى النقاد ، إن كان النقاد قضاة ، برغم إلحاح صديقنا « عوض » في أنهم شهود . وقد يجوز أن ترفع القضية إلى الفن ، إن كان الفن قاضياً ، برغم إلحاحي أنا في أن الفن لا يصلح للقضاء ولا يقدر عليه ؛ لأن القاضي يجب أن يعقل ، وليس للفن عقل ، ولأن القاضي يجب أن يريد ، وليس للفن إرادة ، ولأن القاضي يجب أن ينطق ، وليس للفن لسان .

وهذا الكلام قد يُضحك ، ولكن من زعم أن الضحك حرام على الأدباء ، وأن الكاتب الأديب يجب أن يكون جاداً كلما تعرض للنقد أو للفن ! فالواقع أن الفن لا عقل له ، وإنما له عقول لا تحصى ، له في كل بلد ألف عقل وعقل . والواقع أن الفن لا إرادة له ، وإنما له إرادات لا تُعدّ ، له في كل بلد ألف إرادة وإرادة . والواقع أن الفن لا لسان له ، وإنما له ألسنة لا تحصى ، له في كل بلد ألف لسان ولسان . ولو أتى أردت أن أصور الفن وعقوله التي يفكر بها ، وإرادته التي يعزم بها ، وألسنته التي ينطق بها ، وأقلامه التي يقتل بها طوراً ويحرج بها طوراً آخر ويأسو بها طوراً ثالثاً ، لما وسعني إلا أن أتخيل ملكاً من هؤلاء الملائكة الذين تتحدث عنهم كتب الوعظ ، لكل واحد منهم سبعون ألف جناح ، وعلى كل جناح من هذه الأجنحة سبعون ألف ملك ،

إلى آخر هذه الصورة الجميلة الرائعة التي جاءت بها السير ، والتي تملأ قلوب الناس روعة حيناً وروعاً حيناً آخر . ذلك أن عقول الفن وإرادته وألسنته وأقلامه هي كما يتصورها. صديقنا الأستاذ طاهر الطناحي ، عقول أصحاب الفن وإراداتهم وألسنتهم وأقلامهم جميعاً . فاجتهد إذاً في أن تحصى أصحاب الفن منذ كانوا ، وفي أن تحصيهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، واجمعهم كلهم في ذهنك ، إن كان الذهن المحدود يستطيع أن يجمع غير المحدود ، وقل كما يقول الأستاذ طاهر الطناحي : إن هؤلاء الناس جميعاً هم الفن ، سواء منهم من ذهب ومن هو قائم ومن لم تلده أمه بعد .

الفن إذاً لا يصلح للقضاء ولا يقدر عليه . ومع ذلك فلست أرى بأساً في أن ترفع إليه هذه القضية ليقضى فيها إن وجد إلى ذلك سبيلاً . وقد يجوز أن ترفع هذه القضية إلى الجمهور الذي يؤمن صديقنا عوض بأنه هو القاضي والفيصل والحكم التزبه ، وإن كنت أرتاب في صلاح الجمهور للقضاء وقدرته عليه ، وأرى فيه مثل ما أرى في الفن من أنه كائن غريب ، تستطيع أن تصوّره القصص والأساطير ، ولكنه لا يستطيع أن يوجد ولا أن يجلس مجلس القضاء . وما رأيك في كائن يأتلف من المثقفين الذين خلقهم الله فيما مضى وفيما هو كائن وفيما سيكون من الزمان . تصوّر هذا الغريب وأجلسه في غرفة من الغرفات أو حجرة من الحجرات على كرسي من الكراسي . ثم ارفع إليه هذه الخصومة ليقضى فيها إن وجد إلى ذلك سبيلاً ، فليس عندي بذلك بأس . بل لا تضحك ولا تدهش إن قلت لك إنى ألقى هذه القضية إلقاء ولا أنتظر فيها قضاء من النقاد ولا من الفن ولا من الجمهور ولا من أحد كائناً من كان . ألقها لأنى لا أجد من إلقائها بدءاً ، وأعرضها لأنى لا أجد عن عرضها منصرفاً ، وكل إنسان حر في أن يسمعها أو يُصمّ أذنه عنها ، وفي أن يقضى فيها أو يُعرض عنها إعراضاً ، فليس هذا يعنني في قليل ولا كثير ، إنما الذي يعنني هو أن أرفه على نفسى بإلقائها ، وأن أتخفف من ثقلها بالتحدث بها إلى القراء . وليست هذه القضية سهلة ولا بسيرة ولا نادرة ، وإنما هي عسيرة معقدة كثيرة الوقوع والتردد في حياتنا الأدبية الحاضرة ، وهي قضية جماعة من الناس يتكلفون الأدب وليسوا منه في شيء ، أو يصطنعون الأدب وهم أدباء ولكنهم لا يحرصون على النزاهة الدقيقة في صناعة تحتاج إلى النزاهة أشد الاحتياج .

هذا كاتب لا أعرفه ولا أريد أن أسميه ، لأني أخشى أن يقضى الفن عليه قضاء صارماً ، أو أن يناله الجمهور بما لا يطيق . هذا كاتب إذاً يتكلف الأدب ، إما لأنه يحبه ، وإما لأنه يجب أن يراه الناس أديباً . وأكبر الظن أنه يجب أن يرى الناس أدبه ، أو قل إنه يجب أن يرى اسمه مطبوعاً في صحيفة من الصحف . أرسل إلى هذا الكاتب في الأسبوع الماضي مقالا طويلا لا بأس به ، عن رجل من كبار الموسيقيين في القرن الثامن عشر . فلما قرأت المقال لم أر به بأساً وأذنت في نشره فأرسل إلى العمال . ولم يكذبصل إلى أيديهم حتى تقسموه فيما بينهم وأسرعوا إليه فصفوه صفاً ، وهيثوه للمطبعة . ولكن صديقاً زميلاً أقبل على في آخر لحظة يقول : إن هذا المقال الذي أذنت في نشره وهيي للنشر ليس جديداً ولكنه قديم ، قديم جداً ، قد نشر منذ عام أو منذ أكثر من عام ، وأنت الذي أذنت في نشره في الكوكب حين كنت تعمل فيه ، وقد نشر بشكله وجوهه وبلمضائه الذي يحمله الآن . قلت لصاحبي : ماذا تقول ؟ فلإني لا أذكر أني قرأت هذا المقال . قال : لم تقرأه أنت وإنما قرأته أنا ولخصته لك واستأذنتك في نشره فأذنت . قلت : فلإني أتهم ذاكرتك فأتني بالبرهان . قال : أتهم ذاكرتي ما شئت فهذا هو الكوكب قد استحضرته ، وهذا هو المقال قد نشر فيه ، فُرد من شئت يقابل معي بين المقال الذي نشرناه منذ أكثر من عام وبين هذه الصورة التي أرسلت إليك لتنشر غداً . ولم نكد نتمضي في المقابلة حتى تبين أن صاحبي لم يخطئ ، وأن صاحب المقال قد تعمد غيشتنا ، ولم يتخرج من هذا التضليل الأثيم .

ولم يكن بدّ من إلغاء هذا المقال ، ومن أن ندفع إلى العمال مقالا آخر ، ومن أن نكلفهم ما يكرهون من إعادة العمل ، ومن أن نكلف أنفسنا ما نكره من تأخير صدور الودادى عن مواعده . وأظن أن أمثال هذا الكاتب ليسوا قليلين ، وأظن أن منهم من يرى في هذا الصنيع لذة بريئة ، ولكنها آتمة في وقت واحد . بريئة لأن مصدرها غرور الأطفال ، آتمة لأنها سر على كل حال . وهي على كل حال نقيصة من النقاىص التي تقومها التربية ويصلحها التأديب ، والتأديب الذى يعتمد فيه على استعداد الصبيان والشبان ، أكثر مما يعتمد فيه على السوط والعصا .

وهناك شبان لعلمهم يعمدون إلى مثل هذا في شيء من الفكاهة وحب

العبث يريدون أن يضحكوا من الصحف ومن رؤساء التحرير ، فيدخلون عليهم فصولاً نُشِرت على أنها لم تنشر ، ويدخلون عليهم فصولاً يضيفونها لأنفسهم مع أنهم ليسوا منها في شيء ، يقصدون إلى ذلك عمداً ، حتى إذا تم لهم ما أرادوا ، تندروا بالصحيفة وبرئيس تحريرها . قساة لا يعرفون رحمة ولا إشفاقاً ، ولا يقدرّون أن رؤساء التحرير أضيّق وقتاً وجهداً واطلاعاً من أن يلّموا بكل ما نشر ، ومن أن يضيفوا كل شيء مكتوب أو منظوم إلى الذين كتبوه أو نظموه . على أن هناك لوناً آخر من هذا الفساد أشد منه خطراً فيما يظهر ، لأنه ليس فردياً ، وإنما هو اجتماعي بأدق معاني الكلمة وأوسعها ، وذلك أن الذي يجني هذا الفساد ليس هو الفرد من حيث هو فرد ، بل هي الصحيفة من حيث هي صحيفة . وواضح أن الصحيفة ظاهرة اجتماعية لا فردية ، فهي ملك للجماعة وإن كان صاحبها فرداً . فهي إذا اتخذت الخداع والتضليل في الأدب أسلوباً من أساليبها ، فهي لا تخدع رئيس التحرير ولا تخدع نفسها ، وإنما تخدع القراء وتضلّهم ، وهؤلاء القراء آلاف حين تكون الصحيفة متواضعة ضيقة الانتشار ، وهم عشرات الألوف حين تكون الصحيفة كبيرة واسعة الانتشار . والأصل أن كل صحيفة سيارة يومية تصدر للناس جميعاً ، فهي إذا خادعت أو ضللت تخادع الناس جميعاً وتضلّل الناس جميعاً . وأذكر أن صديقاً لي كتب مقالا نشرته له في الكوكب عن كاتب إنجليزي كبير ، فلما مضى على هذا المقال عام أو ما يقرب من عام ، أو أشهر على أقل تقدير ، رأيت المقال قد نشر في مجلة سورية صديقة لم يستأذن صاحبها في نشره ولم ينقل من الكوكب ، أو بعبارة أدق لم يُصَفَّ إلى الكوكب ، وإنما نشر كأن صاحبه قد أرسله إلى المجلة مباشرة . والظريف أن صاحب المقال كان يرمز لاسمه بحرف من الحروف ، فأمضى المقال في نفس المجلة بنفس الحرف الذي أمضى به في الكوكب . وأقبلت المجلة من الشام ، وأصبحت ذات يوم فإذا المقال نفسه في صحيفة سيارة من الصحف الكبرى ، لم يُصَفَّ إلى المجلة السورية ولا إلى الكوكب المصرية ، وإنما نشر كأن صاحبه قد أرسله إلى الصحيفة نفسها مباشرة ، ونشر بنفس الإمضاء الذي نُشِر به في الكوكب وفي المجلة السورية !

سمّ هذا ما شئت وقل ما أحببت ، فهو على كل حال بعيد كل البعد عن النزاهة الأدبية ، وبعيد كل البعد عن النزاهة الصحفية ، وخليق أن يرفع

الأمر فيه إلى أحد هؤلاء القضاة الذين تحدثت عنهم أول هذا الفصل . ولا أريد أن أذكر القضاء الرسمي ، فأنا أحب أن يحتنب الأدب وأن تحتنب الصحافة خاصة مجلس القضاء الرسمي ما وجد إلى ذلك سبيلا ؛ وحسب الأدباء وحسب الصحفيين أن تدفعهم الحكومات والنيابة إلى هذا المجلس المهيب وهم كارهون . ولون آخر من ألوان هذا الشر ، قد يكون في ظاهر الأمر مألوفاً سائفاً ، ولكني أعترف بأن الضمير الأدبي يجب أن يباه وأن ينبو عنه ، وهو على ذلك شائع شيوفاً فاحشاً . ولست أذكر هذا الإثم الذي كثر وشاع وقبله الناس حتى أصبح مباحاً أو كالمباح ، وهو اعتداء بعض الصحف على بعض في رواية الأخبار وأخذها بالمقص لتمتلي بها صحيفة فارغة على حساب صحيفة ممثلة . فقد أصبح هذا الإثم خطيئة مباحة ، وجزءاً من الفن عند بعض الصحفيين . إنما أذكر نوعاً آخر من الاعتداء لا أستطيع أن أسيغه ، وأريد أن أعتقد أن كثيراً من الزملاء لا يسيغونه . ولست أشك في أن فريقاً منهم أعرفهم يابونه أشد الإباء وينفرون منه أعظم النفور ، وقد كان مصدرراً لشيء من الحصومة بيننا وبين زميلتنا الرسالة منذ أشهر .

فقراء هذا الحديث يذكرون أن الأستاذ توفيق الحكيم كتب إلى عاتباً في بعض الأمر ، وخرج عن طوره في هذا العتاب ، فنشرت له عتابه ، ثم رددت عليه بما رأيت أنه يلائمه . ثم اعتذر الأستاذ توفيق الحكيم فنشرت له اعتذاره ، ثم التقينا وأغضينا عن كل شيء . وفي ذات يوم نظرت في الأهرام فإذا هي تعلن عدداً من أعداد الرسالة وتعلن أن لي في هذا العدد فصلاً ، ولم أكن قد كتبت في الرسالة في ذلك الأسبوع . فلما وصلت إلى الرسالة رأيتها قد أخذت من « الوادي » ردى على الأستاذ توفيق الحكيم دون أن تضيفه إلى الوادي ، ودون أن تستأذني في إعادة نشره ، فكرهت ذلك وضقت به ، وزادني كرهاً له وضيقاً به أن الأستاذ توفيق الحكيم ظن أني طلبت إلى الرسالة أن تعيد نشر هذا الفصل ؛ لأنني معجب به ، أو لأنني لم أكن صادقاً حين أظهرت الرضا وأغضيت عما كان بيننا من خلاف . والله يعلم لقد نسيت الفصل بعد نشره في الوادي ، وما تعودت الإعجاب بشيء أكتبه فضلاً عن أن أطلب إعادة نشره في صحيفة أخرى . والله يعلم ما تعودت أن أظهر الرضا للأصدقاء وأضمر السخط عليهم ، ولا أن أقبل بينهم وبينى صلحاً مدخولاً . وإذا فقد

كان عتاب منى الرسالة ورد من الرسالة على ، وخصوصة لم تنقض بعد . وإنما عدت إلى ذكر هذه الخصوصة وقصتها لأن الرسالة نفسها هي التي اضطرتني إلى هذه العودة ، لأنها عرضت لي ، فمهي لم تعرض لي في هذه الأسابيع بخير ولا شر ، ولكن لأنها عادت إلى شيء يشبه ما تورطت فيه معي من هذه الخصوصة ؛ فقد احتفلت لجنة التأليف والترجمة والنشر منذ حين ببلوغها سن العشرين ، وأصدرت كتاباً تذكاريّاً صغيراً فيه فصول عن اللجنة وحياتها وأعمالها لبعض الأصدقاء . وقد وزع الكتاب علينا يوم الاحتفال ، ولم نكن كثيرين ، وكنا نحب لهذا الكتاب أن يكثر الذين يأخذونه ويقرءونه ، ليكثر الذين يعلمون من أمر بلجنتنا ما نحب أن يعلم . ولم تمض أيام على هذه الحفلة وإذا أنا أنظر في الرسالة فأرى مقالا للأستاذ أحمد زكى عن لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وإذا هذا المقال قد أخذ من هذا الكتاب التذكاري أخذاً دون أن يذكر هذا الكتاب أو يشار إليه . ثم تصدر الرسالة أول من أمس فأرى فيها فصلاً آخر للأستاذ أحمد أمين ، فإذا هو قد أخذ عن هذا الكتاب أخذاً دون أن تذكر الرسالة هذا الكتاب أو تشير إليه . والغريب أن الأستاذ أحمد أمين كان ألقى علينا هذا الفصل يوم الاحتفال قبل أن يوزع علينا الكتاب بلحظات . وأكبر الظن أن الرسالة تريد أن تمضى في نشر هذه الفصول التي اشتمل عليها هذا الكتاب دون أن تذكر الكتاب أو تشير إليه حتى تأتي على آخر هذه الفصول . هذا كثير ، وهو خليق أن تضيق به الرسالة نفسها لو أن صحيفة أخذت بعض فصولها أخذاً ولم تضيفها إليها . وأيسر ما ينبغي للأدباء وللصحافيين أن يضيفوا إلى الناس ما يأخذونه عن الكتب والصحف .

ولون آخر من ألوان هذا الشر لاحظته كاتب أديب من أهل الإسكندرية على بعض الكتاب ؛ فقد نشر بعض الكتاب فصلاً في البلاغ منذ حين ، فلما قرأه أديب الإسكندرية ذكر أن له به عهداً ، فلما استقصى تبين أن هذا الفصل نفسه قد نشر في مجلة التربية الحديثة التي تنشرها الجامعة الأمريكية . وفي هذا النوع من الشر ، عبث بالصحيفة التي أعيد فيها نشر المقال دون أن تعرف أنه قد نشر من قبل ، وعبث بالقراء الذين كان من حقهم على الكاتب أن ينبهم بأنه يعيد لهم نشر مقال قد نشر من قبل في مجلة لا يقرؤها إلا فريق بعينه من الناس .

هذه الألوان المختلفة من الشر تشترك كلها في شيء واحد ، هو أنها تصدر عن ضمير أدبي يحتاج إلى أن يعظم حظه من نزاهة الأدب . وكنت في أول هذا الفصل أبحث عن القاضى الذى يمكن أن ترفع إليه هذه الخصومات ، ولكنى لم أفرغ من تسجيل الخصومات نفسها حتى اهتديت إلى القاضى ، وهو ضمير الأدباء أنفسهم . فن الناس من يحتاج إلى السوط والعصا ، ولكن منهم الأحرار الذين تكفيهم المقالة ، كما يقول الشاعر القديم ، وأنا أشهد أن أدباءنا كلهم أحرار . وأرجو ألا ينكر على هذه الشهادة أحد لعله أن يكون أعلم منى بشئون الأدب والأدباء .

فهرس

| صفحة | صفحة |
|------|--|
| ... | أسلوب في العتب ... ٥ |
| ... | أسلوب في العتب ... ٩ |
| ... | التقديم والحديث ... ١٠ |
| ... | النوق الأدبي ... ١٤ |
| ... | حول أسلوب في العتب ... ١٩ |
| ... | حول أسلوب في العتب ... ٢٠ |
| ... | التقديم والحديث ... ٢٢ |
| ... | التقديم والحديث ... ٣١ |
| ... | عدد الرسمية منذ نصف قرن ... ٣٧ |
| ... | الشيخ محمد المهدي ... ٤٠ |
| ... | علم الأخلاق لأرسطاطاليس ... ٤٧ |
| ... | رد على كتاب - مهذب الأغاني ... ٥٨ |
| ... | تهذيب الكامل - مدامع العشاق ... ٥٨ |
| ... | عود إلى مهذب الأغاني ... ٦٧ |
| ... | بلاغة العرب في الأندلس ... ٦٧ |
| ... | التقد والأدب والحرية ... ٧٨ |
| ... | شعراؤنا ومترجم أرسطاطاليس ... ٨٤ |
| ... | مختارات سلامة موسى - مطالعات في الأدب والحياة للأستاذ عباس محمود العقاد ... ٩٤ |
| ... | جان جالك روسو - أشهر قصص الحب ... ١٠٦ |
| ... | التاريخية - رسائل الأحران ... ١٠٦ |
| ... | عود إلى كتاب هيكل - رسائل ... ١١٥ |
| ... | الأحران في فلسفة الجمال والحب ... ١٢٥ |
| ... | أحسن إلى وأنا مولاك ... ١٢٥ |
| ... | أسلوب الأستاذ وحيد - مجلة الجديد ... ١٣١ |
| ... | للأستاذ محمود عزي ... ١٣١ |
| ... | الملاح التائه : لعل محمود طه ... ١٤٠ |
| ... | وراء الغمام : للدكتور إبراهيم ناجي ... ١٥٠ |
| ... | أخلاق الأدياء ... ١٥٨ |
| ... | الضاحك الباكي : للأستاذ فكري أبانظة ... ١٦٣ |
| ... | عود إلى أخلاق الأدياء ... ١٧٠ |
| ... | على بساط الريح : للشاعر اللبناني فوزي المعلوف ... ١٧٨ |
| ... | أنفاس محترقة : لمحمد أبي الوفا ... ١٨٦ |
| ... | الجدال : للشاعر اللبناني أبي ماضي ... ١٩٥ |
| ... | ملاحظات ... ٢٠٢ |
| ... | التقد وأصول الحكم ... ٢٠٨ |
| ... | في الضمير الأدبي ... ٢١٣ |
| ... | بين الدين والعلم والأدب والإحسان ... ٢١٩ |
| ... | نزاهة الأدب ... ٢٢٤ |

| | |
|----------------|--------------------|
| رقم الإيداع | ٢٠٠٤/٥٨٣٠ |
| الترقيم الدولي | ISBN 977-02-6585-3 |

١/٢٠٠٤/٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)